

# الله الْحَمْدُ لِلّٰهِ عَنْدَ الشَّهِيدِ المطهري

حسين يزدي

جزء المقدمة





الحرية  
عند الشهيد المطهري

جَمِيع الْحُقُوق مَحْفُوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٢ م - ٢٠٠١ مـ



هاتف: ٠١/٥٥٠٤٨٧ - ٠٣/٨٩٦٣٢٩ - فاكس: ٥٤١١٩٩ - ص.ب: ٢٨٦/٢٥ - غبيروي - بيروت - لبنان  
Tel.: 03/896329 - 01/550487 - Fax: 541199 - P. O. Box: 286/25 Ghobeiry - Beirut - Lebanon  
E-Mail: [daralhadi@daralhadi.com](mailto:daralhadi@daralhadi.com) - URL: <http://www.daralhadi.com>

**الحرية**

**عند الشهيد المطهري**

جمع حفيده

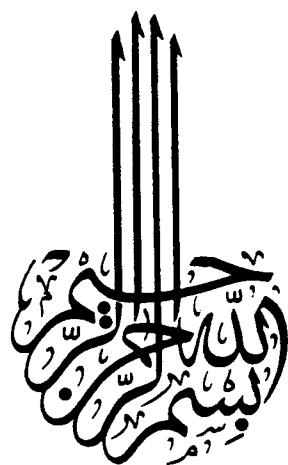
حسين البزدي

تعریب

عبد الرحمن العلوی

دار المتنادي

للطباعة والنشر والتوزيع



## مقدمة

ما هي حقيقة الحرية؟ وهل هي غاية أم وسيلة؟ وهل هي محدودة أم مطلقة؟ هذه التساؤلات وعشرات التساؤلات الأخرى تثار دأبًا في أوساط أولئك الذين لديهم أهداف في حياتهم، ويعيشون بوحي من تلك الأهداف. والحقيقة هي أن «الحرية»، ذات معانٍ مختلفة— وأحياناً متناقضة— باختلاف المذاهب والأنظمة الفلسفية والسياسية، ولا بد من القول إن الحديث عن الحرية، يبدو حديثاً في غير محله أو غير دقيق على الأقل، إن لم يبحث علاقة الحرية بفلاهيم آخرى كحقيقة الإنسان ومكانته، ومصلحة الفرد والمجتمع، والحقوق العامة، والعدل، والأخلاق، والسعادة، وغيرها؛ سيا وان هذه المفاهيم معانٍ تختلف باختلاف المذاهب والمدارس الفكرية. ومن الطبيعي ان يكون للحرية في النظم الدينية أو تلك التي تؤطر غايتها باطار السعادة الدينية فقط - وبحسب فهمها للسعادة - معنى يتلاءم مع تصوراتها للمفاهيم السابقة. ومن الطبيعي ايضاً ان يكون لفردة «الحرية» في النظام الذي يكرس تطلعاته واهدافه لسعادة الناس الدينية وفوزهم الآخروي، معنى آخر ذو صلة وثيقة بسائر اجزاء وعناصر الرؤية العالمية لدى هذا النظام.

ولا شك في ان الاسلام - الذي هو بثابة مدرسة ملهمة للحياة وكفيلة

بسعادة الانسان وفلاحة في الدارين - لا يمكن ان يلوذ بالصمت ازاء موضوع خطير كالحرية، ولا يتحدث عن معناها وحدودها. ولا بد لنا على هذا الصعيد ولكي تقف على موقع الحرية في هذا النظام الفكري، من ملاحظة المفاهيم والمفردات الاخرى ذات الصلة ببدأ الحرية، لأن تجاهل مثل هذه العلاقة وهذه الشمولية، لا بد وأن يعمل على عدم فهم هذا المبدأ الحيادي كما ينبغي.

والهدف من هذا الكتاب، تسليط الاضواء على مختلف ابعاد الحرية، وجوانبها من وجهة نظر الفيلسوف والمفكر الاسلامي الكبير الاستاذ الشهيد المطهرى، معأخذ ما ذكرناه أعلاه بنظر الاعتبار؛ تدفعنا نحو ذلك ضرورةتناول مثل هذه المواضيع وعرضها على المجتمع، تلبيةً لتوجيهات زعيم الثورة الاسلامية آية الله السيد الخامنئي دام ظله العالى، والتي أكد فيها على نشر افكار الاستاذ الشهيد وآرائه بشكل موضوعي حينما قال: «لا بد من انجاز عمل فكري على صعيد أفكار الشهيد المطهرى، أي أن يجتمع اهل البحث والتحقيق والمهتمون بالنشاطات العلمية، ويستخرجوا أفكاره في شتى المقول». ونظرًاً لامكانية حصولي على الآثار المنتشرة وغير المنتشرة لجدي الشهيد الاستاذ المطهرى انصبّ جهدي - وبقدر بضاعتي العلمية المتواضعة وطاقتى المحدودة - على استخراج آراء الاستاذ الشهيد في حقل الحرية، من آثاره وكتاباته القيمة، مع تحاشي التكرار قدر المستطاع، والمرور بشكل سريع على بعض المواضيع التي ليست ذات صلة مباشرة بموضوع الكتاب. وبامكان القراء المولعين بالبحث والراغبين في اكمال معلوماتهم على هذا الصعيد، الرجوع إلى الآثار التي اعتمدنا عليها والتي اشرنا إليها في نهاية الكتاب.

وعلى هذا الضوء، لا أدعّي اني اقدم للقارئ الكريم دراسة وافية عن الحرية من منظار الاستاذ الشهيد، أو ان هذا الكتاب يعرض كل ما ذهب اليه، سيبا وأنّ بعض آثاره لم تُنشر حق اليوم. وأنا على اتم الاستعداد لاستقبال اقتراحات المهتمين بآثار هذا المفكر الالهي لاغناء هذا الاثر مستقبلًا.

أتمنى أن تعمل هذه الخدمة الثقافية - والتي هي بثابة جهد متواضع في مجال النشر الموضوعي لآثار الاستاذ الشهيد - على حل جانب من المشاكل الفكرية التي يعاني منها المجتمع لا سيما جيل الشباب، ويساهم في ازدهار حركة الفكر والثقافة والقيم الاسلامية الانسانية. كما اقدم شكري للجنة المشرفة على نشر آثار الاستاذ الشهيد المطهرى لسماحها بنشر هذا الكتاب.

أسأل الله تعالى مزيداً من التوفيق لنشر الثقافة القرآنية وتعزيز الافكار الإسلامية الندية.

حسين اليزدي

٢٠٠٥ / ٥ / ٢

## **الفصل الأول**

### **معنى الحرية**



## ما هي حقيقة الحرية؟

هل الحرية من خصائص الانسان؟ ولماذا يرى الانسان نفسه منفرداً بهذه المنحة دون غيره؟ وهل بامكان الحيوانات كالطيور والظباء والاغنام ان تقول بأننا احرار ايضاً؟ ولو استدعاينا - كاخوان الصفا - الانسان والحيوان إلى المحاكمة، فهل للانسان جواب في هذا الشأن؟

يُقال ان الحرية حقٌ غير قابل للسلب من قبل أي احد. (يمكن سلب الحرية من الناحية العملية، لكن لا يجوز لأحد سلبها من الآخرين ونقلها إلى نفسه أو تدميرها أو إبطال مفعولها، وليس بامكان أحد أن يبيع حرريته أو يهبها لغيره<sup>(١)</sup>، سواء كانت حرريته الفردية من خلال قوله أن يكون عبداً لغيره، أو حرريته الاجتماعية كانتزاع سيادته بنفسه ووضعها تحت تصرف الآخرين. فلماذا هذا الاصرار على الحرية؟

يُقال الحرية لا يمدها شيء سوى حرية الآخرين. اي أنها متاحة للانسان في كل شيء، ولا حدّ لها إلا اذا اضررت بحرية الآخرين.

وهذا يعني ان لا حق حتى لمصالح الفرد نفسه والمصالح الاجتماعية في تحديد الحرية وتحجيمها ...

---

(١) إلا انه يمكنه مقايضتها، فيشتري بها حرية غيره.

وجاء في مقدمة اللائحة العالمية لحقوق الانسان:  
«أساس الحرية والعدل والسلام العالمي ، الاعتراف بالكرامة الذاتية لأعضاء  
الاسرة الإنسانية كافة»<sup>(١)</sup>.

ولا بد لنا ان نعرف ما هي هذه الكرامة الذاتية التي يتمتع كل انسان  
بوجها باحترام ذاتي، وتعد من خصوصيات الانسان الذاتية رجالاً كان أم  
امرأة، وأسود كان أم أبيض، وطويلاً كان أم قصيراً؟  
وتتضمن تلك العبارة ثلاثة معانٍ<sup>(٢)</sup>:

- أ- تقع الانسان بكرامة ذاتية لا بد للآخرين من احترامها.
- ب- هذه الكرامة غير قابلة للتمييز.
- ج- الاعتراف بهذه الكرامة، يُعدّ اساس الحرية والعدل.

ونحن نعمل الكرامة الذاتية للانسان بأن نعترف له بدرجة خاصة في  
الوجود، ومهمة تكوينية وغاية لا تشريعية. ولا يجوز الحيلولة دون هذه  
المهمة لأن ذلك بمثابة عائق امام الهدف، مما يجعل دون عملية التكامل التي لا  
تتحقق إلا مع وجود الهدف. فصدر هذه الكرامة الذاتية اذاً هو الدرجة  
الوجودية التي عليها الانسان، والمهمة التي يحملها من قبل الطبيعة. ولا يمكن  
تعليق الحقوق بالاساس إلا كونها من الطبيعة ومن خلال معرفة مبدأ العلة  
الغائية.

نحن نرى وجوب احترام هذا التكليف أو المهمة الملقة على عاتق الانسان،  
لكن من اين تنبع جذور هذا الوجوب أو التكليف؟ ومن أين يستلم الانسان  
هذا الامر؟ فهل يستلمه من الله ام من العقل أم من الضمير أم من الخلقة؟ (ولا  
شك في وحدة مبدأ الخلقة ومبدأ الخالق على هذا الصعيد).

---

(١) المقصود ان الكرامة الذاتية، لا الحرية نفسها، تؤلف اساس استتاب الحرية وتحووها إلى واقع  
عملي.

(٢) المعنيان الاول والثاني صحيحان فقط.

والفلسفة الوربية تفصل بين الحقوق الطبيعية والفطرية كلما دار الحديث حول الحقوق الالهية، وهذه الفلسفة لا تستوعب الحقوق الالهية إلا في شكلها التشريعي، في حين ان الحقوق الطبيعية نوعان: حقوق طبيعية بلا هدف، وحقوق طبيعية ذات هدف. ولا معنى للحقوق اذا انعدم الهدف والمسار الطبيعي والغائي، ولا معنى للتكميل وملاحقة الهدف بدون مبدأ التوحيد.

### المعنى الصحيح للحرية

الحرية العامة صحيحة اذا كانت تعني عدم وضع العرقيل والعقبات في طريق الاستعدادات والقابليات البشرية، وعدم فرض الكثير من الاشياء على الانسان وقسره عليها، والانسان كائن لا بد من تساميه إلى الكمال عن طريق الاختيار وفي ميدان التنازع. اما اذا كانت تعني عدم التشويش على نوم الآخرين، فهي حرية خاطئة، وقد قال «فرويد» مفتخرًا: «ادركت بعد فترة طويلة اني كنت اضايق الآخرين في نومهم». ورغم انه قد اخطأ على هذا الصعيد ايضاً، إلا انه قد أقر بهذه التهمة.

فالحيلولة دون النمو الطبيعي لنبات معين - مثل وضع زهرة في الظل أو في محيط خانق غير مناسب - يُعد عملاً غير مستحسن واعتداء على الحق، إلا أنه لا يُعد ظلماً لعدم اقترانه بشعور لدى النبات، كما لا يُعد مثل هذا العمل ظلماً بالحيوان إلا اذا ألحق الأذى به. كما لا يعتبر استهلاك الانسان للنبات أو الحيوان ظلماً.

وإذا ما أردنا الاجابة على السؤال السابق: هل الحرية تختص بالانسان فقط؟ فلا بد من القول ان الحرية تعني ضرورة عدم ايجاد العائق؛ وهذا ما ينطبق على الانسان فقط ولا يصدق مع النبات أبداً، وإن كانت له حقوق أيضاً. اما على صعيد الحيوان فلا يجب الحاق الأذى به، غير ان عدم إلحاق الأذى، يختلف عن مفهوم «الحرية». وهذا يعني ان الحرية من خصوصيات

الانسان.

قلنا ان مصالح الفرد والمجتمع بامكانها أن تحدد الحرية لأن من الضروري احترام الحق الطبيعي والكرامة الذاتية للانسان، غير ان هذا الاحترام لا يعني ترك الانسان و شأنه و اغا لا بد من السماح له بمحارسة كل ما يعلم على إضاج قابلاته الطبيعية. و ترى الفلسفة الاوربية ان ضرورة احترام كرامة الانسان الذاتية تُعلي ضرورة احترام ميوله و رغباته وما ينتخب من أفكار و آراء؛ بتعبير آخر يمكن القول ان كل انسان لما كان محترماً فلا بد من احترام كل عقيدة يؤمن بها ولو كانت اتفه العقائد وأشدتها إهانة للانسان واكثرها تناقضاً مع شأنه ومكانته<sup>(١)</sup>. وهذا يعني ان الناس لو آمنوا بعبادة البقر كالهندوس أو عبادة العورة كالبابليين أو أية عقيدة تافهة اخرى، فلا بد من احترام عقائدهم على اعتبار انهم قد اختاروا هذه العقائد بأنفسهم.

أما طبقاً لما أشرنا اليه فالانسان محترم لكونه يسير باتجاه الهدف التكاملـي الطبيعي. وهذا يعني ان التكامل محترم، ولا احترام للعقيدة التي تشـيط قواه الكمالية وتحبسها حتى ولو كانت هذه العقيدة من انتخاب الانسان نفسه<sup>(٢)</sup>. فلا بد من تحطيم تلك السلسلة التي تحبس تلك القوى ولو بالقوة، وأن تُعرض عليه العقيدة التي تحرر هذه القوى وتقوده نحو المسار التكاملـي حتى ولو عن طريق فرضها عليه. وقد قيل ان الملك الاخميني كوروش (قورش) قد أعطى الحرية للبابليين بالذهب إلى معابدهم. فهذا العمل وإن كان مهماً على الصعيد السياسي إلا انه خاطئ على الصعيد الانساني. والعمل الصحيح هو ذلك الذي قام به ابراهيم عليه السلام حينما اندفع لتحطيم الاصنام، والذي قام به موسى عليه السلام حينما قال للسامري: «انظر إلى المك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفنه في اليم

---

(١) ويعـد عائقاً لحريته أيضاً.

(٢) الذي يجب ان يحرر وتهـيأ أرضية تحرره هو حرية الفكر وتنمية التفكير، وهذا هو غير حرية العقيدة.

نسفاً<sup>(١)</sup>). كما كان صائباً وصحيحاً موقف الرسول الأكرم محمد ﷺ حينما أشار إلى الاصنام بعصاوه وهو يقول: «وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً»<sup>(٢)</sup>.

والحرية في عقيدتنا تكليف وفرض<sup>(٣)</sup> لابد من رعايته خلال تعامل الإنسان مع نفسه، وخلال تعامل الآخرين معه، وتنقسم إلى قسمين: حرية معنوية، وحرية اجتماعية. فتكليف الإنسان بأن لا يكون عبداً للخرافات الفكرية والاهواء النفسية، يمثل الجانب الباطني من الحرية. في حين ان تكليف الآخرين بعدم تقييده أو وضع العراقيل في طريقه، يمثل الجانب الخارجي من الحرية<sup>(٤)</sup>.

---

(١) طه / ٩٧.

(٢) الاسراء / ٨١.

(٣) هناك موضوع رئيس لم يبحث وهو لماذا يجب أن يحترم كل انسان حريته وأن لا يفقدها؟ ولماذا يجب على كل انسان احترام حرية الآخرين ايضاً؟

(٤) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٧١-٨٠.



## **الفصل الثاني**

### **قيمة الحرية**



الانسان وخاصة المعاصر وبالأخص الاوربي يولي اهمية كبرى واحتراماً عظيماً للحرية حق انه أضيق عليها هالة من القدسية بحيث عدّها تستحق العبادة. وانبرى كل من يسعى لاضفاء الاهمية على نفسه، للاعلان عن دفاعه عن الحرية وايامه بها. فهل هكذا هي الحرية؟

والاجابة هي لا من جهة ونعم من جهة اخرى. فاذا اخذنا القيمة الحقيقية للحرية بنظر الاعتبار، فلا نجد للحرية أهمية وقيمة من الدرجة الاولى قياساً إلى سائر عوامل السعادة، لأن الحرية عامل سعادة سلبي، ولا شك في تفوق أهمية العوامل الايجابية كالثقافة والتربية والتعليم وحتى الثروة وسائر العوامل المادية والمعنوية ذات التأثير الايجابي؛ بالضبط مثل تفوق اهمية وجود التراب والماء والهواء والضوء والحرارة والبستاني بالنسبة للزهرة على اهمية عدم وجود المانع الذي يحول دون النمو والتتجذر. فهذا النوع من العوامل ضروريان كلاهما، إلا أن النوع الأول ضرورة ايجابية، والثاني ضرورة سلبية. وللحريقة قيمة من الدرجة الاولى وفق المنظار الآخر، وهو منظار الندرة. فنحن نعلم ان ندرة شيء ما تبعث على ارتفاع قيمته. والانسان قليلاً حصل على هذه الهمة الالهية أو ان حصوله عليها أقل من سائر الهمات الاخرى. كما انه طالما شاهد امامه موانع وسدوداً من أبناء نوعه تحول دون تبلور افكاره وازدهارها. والأضرار التي تعرض لها الانسان على يد الانسان تفوق بكثير

الاضرار التي الحقتها به الأعاصير والزلزال والأوبئة وغيرها. ومعنى الفساد الذي يمارسه الإنسان في الأرض هو أن لا يأمن الآخرون جانبه على أرواحهم وأموالهم، وهذا ما دفع بالملائكة للتأوه منذ البداية: «أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ»<sup>(١)</sup>.

### عامل تأمين الحرية

لا بد ان يثار السؤال التالي: ما هو علاج هذا الداء؟ لم يكن بالامكان خلق الانسان منذ البداية بحيث يتمتع بالمحصانة بالمستوى الذي يتمتع به افراد نوع من الانواع الحيوانية؟ والجواب: لا، لأنّ من ضروريات انسانية الانسان ومتاريته وحريته أن لا يُرفع عنه إمكان الانحراف والظلم. ويطرح السؤال التالي الآخر نفسه: هل بامكان العلم أن يضع العلاج؟ والايجابة بالنفي أيضاً لأنّ الانسان يستخدم العلم بمنابعة آلة أو واسطة لتنفيذ مآربه. وإذا كان يسعى للاحاق الاذى بالآخرين وانتزاع حریتهم، فليس بامكان العلم لوحده أن يردعه عن مثل هذه التصرفات، بل انه قد يستخدمه لخدمة أهدافه اللاانسانية. وقد رأينا في عصرنا هذا مدى التطور المهايل الذي حققه العلم حتى انه عرج بالانسان إلى القمر، إلا أن هذا الانسان قد اتخذ من هذا التطور العلمي وسيلة لمزيد من الهيمنة على الآخرين. والسؤال الذي لا بد من اثارته هنا هو: هل من الافضل وفق المقاييس الانسانية أن يذهب قوم إلى القمر، أم أن يخرجوا من فيتنام وفلسطين؟ ولا شك في ان الشق الثاني هو الصحيح وفق المنظار الانساني. إلا انهم ينطلقون نحو القمر كي يثبتوا اقدامهم في فيتنام وفلسطين وكل بلد على غرارهما، وكي يقرعوا طبل «لن الملك؟». ولا ريب في ان تجارب القرون الاخيرة قد برهنت على فشل العلم في هذا المجال.

والسؤال الآخر هو: هل يمكن ان يُعد ارتفاع مستوى الوعي العام وادراك

. (١) البقرة / ٣٠

الطبقة التي فقدت حريتها لقيمة الحرية، عاملاً لتأمين الحرية؟ ولا شك في ان هذا العامل يُعد شرطاً في تحقق الحرية، إلا انه شرط ضروري وليس شرطاً كافياً. ولا شك في ارتفاع مستوى الوعي العام في زماننا هذا وادراك الناس لقيمة الحرية وأهميتها، وهذا ما دفعهم للتضحيه، والاستحواذ على السلطة، وتأسيس الجمعيات والأحزاب والتنظيمات، ووضع البراجم والمشاريع، وسن الایديولوجيات من أجلها، غير ان الطبقة السالبة للحربيات قد ارتفع مستوىها الفكري بنفس النسبة ايضاً، وظل الفاصل بين الطبقتين على حاله، إن لم يكن أكبر من ذي قبل. ومتلك هذه الطبقة الاخيرة الاسلحة والقوى التنظيمية والاعلامية، والبراجم والمخططات في أعلى المستويات. وهذا لا تصل اقوى الأحزاب الوطنية في العالم إلى مستوى الاجهزه الاستخبارية العالمية، كوكالة الاستخبارات المركزية الامريكية. فالطبقات الحاكمة قد ادركت قيمة التنظيم والبرجمة قبل الجماهير. والأدهى من ذلك انه بجأ إلى اسلوب التخدير الجماهيري من خلال النفاق والتظاهر وكتمان حقيقة الامر. فإذا كان إنسان مثل مسلم بن عقبة قد جاء بالأمس كي ينتزع مبايعة الناس ليزيد بالعبودية بشكل رسمي، إلا انه لم يمارس ذلك العمل باسم الحرية؛ في حين لم يبق عمل مقدس في هذا اليوم إلا وتحول إلى ستار لاخفاء المآرب الشريرة<sup>(١)</sup>، كالمؤسسات الثقافية، والصحية، والتعاونية، ومنظمهات الاغاثة، والمؤسسات التي تعمل باسم التبشير، وإعلان حقوق الانسان، وغيرها. وإذا ما وجدت حماية للحق، تجد خلفها طمعاً كبيراً. فالامريكان قد حاربوا الاستعمار الفرنسي دفاعاً عن الشعب الفيتنامي، إلا أنهم نشبوا اظفارهم بشكل أبغض من الفرنسيين في جلود الفيتناميين، وعلى حد تعبير الشاعر سعدي: «سمعت ان رجالاً أقذ خروفاً من بين مخالب وأضراس الذئب ثم ذبحه...» والغريب أن

---

(١) يراجع ملف «الاستعمار» حديث الرجل الاسود مع ضابطين انجليزيين، وكتاب «مذهبان» تأليف خسروشاهي، وملف «الرق بعد الغاء الرق».

تكون لكل حركة ذات ظاهر انساني نشأت في القرون الاخيرة، جذور مادية واطماع، كالحركة الامريكية المناهضة للعبودية<sup>(١)</sup> (يراجع كتاب نظرة إلى تاريخ العالم، والتاريخ لـ«البرت ماليت»). ونجد نموذجاً لها في تأسيس اللجان الخيرية التي تقيم الكرنفالات وحفلات الرقص وبيع البطاقات باسم اغاثة منكوبى الزلازل والایتمام.

وتحدث «هوبر» حول تميز الانسان عن المجتمع الحيواني وأشار إلى خمسة عوامل تقف خلف التضارب الذي يعاني منه المجتمع الانساني وعدم وقوع مثل هذا التضارب والخلل في المجتمع الحيواني، وهي:

أـ- التنافس بين افراد النوع الانساني.

بـ- اتساق واتحاد خير الفرد وخير المجتمع في الحيوانات، على العكس من المجتمع الانساني.

جـ- بحث الانسان عن الكمال وتحديد النقص في الوضع القائم ورسم الظروف الجديدة.

دـ- قابليته على الكلام وقلب الحقائق.

هـ - سكون الحيوان بفعل الاستراحة، إلا ان الانسان تتحرك أطماعه بعد الاستراحة الاولى، ويفكر في تصدر السلطة (يراجع «الحرية الفردية وقدرة الحكومة» تأليف الدكتور صناعي، ص ٣٢).

ومن هذا نعلم ان الانسان قد خُلق هكذا، ولا يكفي العلم ولا ارتفاع مستوى الشعور العام لتأمين الحرية.

وما يمكن ان يكون مفيداً على هذا الصعيد وأثبت جدارته بشكل عملي هو القوة التي تنسم بالصدق (لا النفاق) من جهة، ومتلك قابلية التنفيذ، والهيمنة

---

(١) وحق الملكية والاستقلال الاقتصادي الذي أعطي للمرأة بعد ظهور الحاجة إلى العامل الرخيص (لذات الفلسفة).

على نفوس الناس، وتدمير مراكز ادارة سلب الحرية، وتمثل بالدين<sup>(١)</sup>.  
والاسلام هو هذه القوة، حيث يتمتع بالصدق ولديه القدرة، وقد تحدث  
التاريخ عن صدقه وقدرته. فرغم انه لم يلغ قشرة الرق إلا انه حطم نواته  
ودمرها، فأصبح العبيد سادة في ظل الحماية الاسلامية (قصة زيد بن حارثة)،  
في حين لا زال ابناء العبيد يعانون من التمييز في امريكا ويعيشون في ظل  
ظروف معيشية قاسية رغم الغاء الرق فيها.

فالاسلام لا يدافع عن الحرية فقط. والجنة من وجهة نظر الاسلام ليس  
المكان الذي يخلو من الأذى والذي لا يتدخل فيه أحد في شؤون أحد  
فحسب؛ انا جاء الاسلام بالحب، والاخاء، والتسامح، والعواطف الانسانية<sup>(٢)</sup>.  
فالحرية تعد امراً مقدساً للغاية لدى الناس، ويرى فيها البعض اعظم النعم،  
في حين انها ليست بهذه الصورة، لأنها ليست سوى عدم وجود العائق امام  
ازدهار وتحلي فكر الانسان وعمله، بينما لا يقل تأثير الثقافة وعوامل التربية  
والتعليم والامن عن ذلك. فعدم وجود العائق امام نمو الزهرة لا يبلغ في اهميته  
أهمية وجود عامل النمو وعدم وجود عامل الامان. لكن لماذا شغلت الحرية  
مثل هذا الموضع في حياة الناس، وبلغت هذه المكانة الرفيعة بحيث ينزع البعض  
حتى لعبادتها، وينظرون اليها كأسى النعم وأم السعادات والنجاحات؟ ذلك  
لأن الانسان قلما تنعم بهذه النعمة قياساً إلى النعم الأخرى، وطالما سُلبت منه  
بواسطة ابناء نوعه لا بواسطة السيول والزلزال والأعاصير والأوبئة، وهذا  
راح يعتقد ان هذه الكوارث تتتفوق في قابليتها للعلاج على سلب الحرية؛ ومن  
حقه ان يعتقد مثل هذا الاعتقاد.

ورأى الملائكة ومنذ اليوم الاول نقطة الضعف هذه في الانسان، فقالوا:

(١) الفرق بين العلم والدين يتمثل في ان العلم وسيلة لا غير، في حين ان الدين يؤثر على الروح حينما ينزل إلى الواقع وتظل صورته وسيلة فقط.

(٢) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٦٣ - ٦٧.

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا...﴾<sup>(١)</sup>.

وهذه الحالة غير قابلة للعلاج من ناحية الخلقة. فاختيار الانسان وحريرته الطبيعية وإمكانية اعتداء البعض على البعض الآخر، تُعدّ جزءاً لا يتجزأ من جوهر ذات الانسان. ولا يمكن للكمال الانساني أن يستمر إلا باختيار هذا الانسان وحرية كل فرد في عمله، وإلا هبط الانسان إلى مستوى الحيوان. ويلجأ الانسان إلى سلب هذا الاختيار عن ابناء نوعه كي يتمكن من الحاق الظلم بهم وانتهاك حرياتهم. ومن هنا يبدأ هذا المرض، ويعجز العلم عن علاجه، لأنّ علاجه وعلى العكس من امراض الكوليرا والدifterيا والسرطان وغيرها من الامراض، بيد الدين فقط.

وليس بامكان تصاعدوعي العام أن يضع علاجاً لهذا المرض ايضاً، لأنّ القضية هنا هي قضية استعلاء الطبقة المحاكمة، وموضع النفاق.

يُشترط ان لا تتحول الحرية إلى هدف للانسان. وان المحبة، والصفاء، والوحدة، والحميمية التي يديها الآخرون هي التي تطبع حياة الانسان بالسعادة، فضلاً عن اهتمام البعض بمصير البعض الآخر، والتعاون، والاخاء. فالفائدة التي يجب أن يجنيها البعض من البعض الآخر، ليست في أن لا يتعرض البعض لأذى البعض الآخر أو أن لا يضع البعض العاقيل في طريق البعض الآخر.

والتاريخ الاسلامي شاهد على انّ الاسلام أشعاع الحرية والأمن بين المسلمين وهيا لهم اسباب العيش في ظل الاخاء والحب والعاطفة الانسانية.

فتاريخ الانسان في القرون الجديدة يشير إلى ان الخدمات الانسانية المقدمة للانسان، ليست ذات جانب انساني، وإنما املتها الضرورة والجبر التاريجي ، إن لم تكون منتبطة إلى الانبياء أو اتباعهم.

---

(١) البقرة / ٣٠

فحينما يطالع المرء تاريخ الاستقلال الامريكي مثلاً (يراجع نظرة إلى تاريخ العالم، والتاريخ لألبرت ماليت)، يرى - وعلى العكس مما كان يتصور في البداية - انَّ الضرورة والمصالح الاقتصادية لامريكا الشمالية - وعلى العكس من امريكا الجنوبية - هي التي جعلت من الرق امراً غير مرحب لها. ولما كان الغاية غير نابع من جذور انسانية، فلا زال ابناوها يفتقدون للحقوق الانسانية والمساواة، في حين انَّ الاسلام ورغم عدم العائمه للرق قانونياً، إلا انه وجّه السلوك توجيهًا إنسانياً.

و كذلك الامر بالنسبة لإعطاء المرأة حقوقاً اقتصادية مستقلة في اوربا، فقد ورد في «لذات الفلسفة» انَّ هذا القرار كان ناجماً عن ظهور الماكنة وال الحاجة إلى اليد العاملة. اي انَّ اصحاب رؤوس المال ومن اجل تشجيع النساء والاطفال على العمل في المصانع - ومن اجل مصالحهم في الحقيقة - منحوا المرأة الحرية الاقتصادية والحقوق الاقتصادية المستقلة. وبما انهم قد اخذوا جانباً واحداً بنظر الاعتبار ويتمثل في مصالحهم، فقد دمّروا البيوت والأسر.

وتحظى نقطتان بالأهمية في حركة التحرر الاسلامية وهما: الصدق (في مقابل النفاق)، والقدرة على تدمير البؤر المناهضة للحرية في الانسان، بل وخلق قيم أسمى من الحرية وهي العواطف الانسانية<sup>(١)</sup>.

فالحرية تتالف من اساسين: العصيان والتrepid، والتسليم والانقياد. فينجم عن عدم وجود الاساس الاول الجمود والأسر، وعن عدم وجود الثاني الفوضى والاضطراب.

ويتصل هذان الاساسان بالحرية عبر الطريق الباطني والانساني والموضوعي، أي انَّ الروح الحرة والمتطلعة إلى الحرية يجب أن تتصف بهذه

---

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الألف، ص ٦٠-٦٢.

الأساسين مثل الكلمة «لا إله إلا الله» الطيبة، وفي غير هذه الصورة لا يكفي عدم وجود العائق والمانع بدون وجود التحمس والانجذاب للحركة. كما لا يجب أن نفترض الحرية أبداً كان موجوداً من قبل، وإنما كأمر يجب الحصول عليه، وهذا لا بد من روح الترد والكفر **«فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله»**<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أن روح الحرية، روح ايجابية.

بتعبير آخر: الحرية عند النبات والحيوان - غير المسؤولين عن بناء نفسهما - ليست سوى التحرر من مثبطات النمو والنشاط. إلا أنها عند الإنسان - الذي هو خليفة الله ومكلف ومسؤول - تعني الترد من جهة، والطاعة والانقياد والانضباط من جهة أخرى.

... قيل ان الحرية تتألف من عنصري العصيان، والتسليم، وهما عنصران لا ينفك احدهما عن الآخر؛ فلا يُتاح التسليم بدون هذا العصيان، ولا هذا العصيان بدون الاعتماد على ذلك التسليم.

فالباحث يجب أن يبدأ من هنا وهو أن الحرية جوهرة ثمينة ونفيسة جداً للإنسان الذي أدرك في القرون الأخيرة أهميتها وقيمتها الثمينة بشكل أكبر، وقدّم التضحيات من أجل الحصول عليها، وأهدى الدماء في هذا الطريق، حتى قيل أن فسائل الحرية لا ترويها سوى دماء الاحرار. اي ان هناك عقبات وعرائق في طريق الحرية دائماً لا يكتسحها سوى دم الاحرار.

ويرهنت الحرية على قيمتها، حتى اضطر اعداء الحرية للتقنع بقناع الحرية دائماً. والأمر هكذا دائماً وينطبق على آية حقيقة أخرى. فالدين هو الآخر ما أن يبرهن على قيمته بشكل نهائي وما أن يستقر حكمه حتى يقتنع العدو وجهه وينزع من الكفر نحو النفاق، ويخفي اهدافه المعادية تحت قناعه. اي انه يتخذ من هذه الحقيقة نقاباً يتستر به على وجهه التحس. هذا موضوع.

---

(١) القراءة ٢٥٩.

والموضع الآخر هو لا بد من الوقوف بوجه المخطأ والتصدي له بشكل كامل. فالبعض يتصور أن الحرية تعني التحرر من كل قيد وشرط والتزام؛ أبداً، ليس الأمر هكذا. فمن المستحيل أن لا يلزم أي موجود -إنساناً أو غير إنسان- نفسه بمحور ما<sup>(١)</sup> أو أن لا يقبل بحدود ما، ثم يستطيع أن يطوي طريقه التكاملية. فالحرية تعني التحرر والخلاص من القيود والعقبات التي تحول دون نمو قابلية الإنسان وطاقاته. فلدى الإنسان استعدادات وقابلية منحها الله له على صعيد الفكر، والفن، والجسم، والمعنيات، ولا بد من تبلورها وظهورها. وعلى الآخرين أن لا يقفوا بوجه تبلور هذه القابلية. غير أن الإنسان بحاجة إلى سلسلة من القوى الغريزية والاكتسابية الضرورية لرقمه، والتي يُعد التخلص منها تنصلأ عن مقومات التربية والأمن، اللذين هما ركنان آخران من اركان تكامل الكائن الحي. ويُعد العقل والفكر والرأي الحصيف والأدب والأخلاق جزءاً من هذه المقومات. ولا يُعد الالاتعقل، والجنون، واللأدب، واللاتربية، والاهمية والانتقام من قيد الذهنية السليمة، جزءاً من الحرية. فالجانين ليسوا أحرازاً، والجنون نقص لا كمال. فليست الحرية التخلص عن كافة القيود الإنسانية والادبية والتربوية<sup>(٢)</sup>...

### حرية الطبيعة أو حرية الارادة

على الصعيد الحقوقي الراهن هناك غلطان أو نقصان على صعيد الحرية، أحدهما يتمثل في علة وأساس ضرورة الحرية واحترامها، وأن كرامة الإنسان الذاتية هي التي تتضمن احترام الحرية، دون الاشارة إلى طبيعة هذه الكرامة وأي امتياز هي في الإنسان ولماذا يجب رعايتها؟ وهل هي مجرد أمر اقتضته المصلحة العامة أم أنها ما وراء هذه المصلحة؟

(١) وهذا قبلنا من قبيل الحرية لها اساسان: الترد، والحضور.

(٢) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ١١٧-١١٩.

والثاني اعتبار الارادة هي العامل الذي يقف خلف ضرورة الحرية وإطلاقها، على اعتبار أنها ارادة الانسان نفسه. فهم يقولون بما انَّ الانسان محترم (المذهب الانساني) فلا بد من احترام ارادته وفكرة وعقيدته، ولا بد من احترام كل ما يتعلق بارادته وعقيدته.

نحن نرى ايضاً انَّ احترام الحرية نابع عن الكرامة الذاتية للانسان، غير انَّ هذه الكرامة الذاتية لم تصبح مطلقاً لضرورة الاحترام إلا لأنَّ ناموس الخلقة الغائي قد اوجبها. فالحق هو ناموس الخلقة. ورعاية ناموس الخلقة، هو الذي يجب ان يحظى بالاحترام. والنظام الغائي للوجود، هو مصدر الحق. ولا بد من احترام الانسان كي يبلغ كماله الجدير به. فهذه الكرامة الذاتية، هي الروح الالهية والارادة الالهية للانسان.

وعلى صعيد ما يجب ان يُحترم ذاتياً، في رأينا انه ليس إرادة كما انه ليس عقيدة، وإنما هو جزء من الذات الطبيعية والتكتوينية للانسان. في المقال السادس من «أصول الفلسفة واسلوب المذهب الواقعي» أُشير إلى ان نظام الشعور والأفكار الاعتبارية، نظام في خدمة النظام الطبيعي والتكتويني في الانسان. ولا بد من رعاية حرية الطبيعة كما هو الحال في رعاية حرية العقل النظري. أما حرية الارادة، فهي صحيحة ما دامت في مسار كمال الطبيعة التكتوينية للانسان. ولو قدرَ لهذه الارادة أن تتعارض حرية الطبيعة في يوم ما، فلا بد من التضحية بالارادة من أجل الطبيعة، لأنَّ نضحي بالطبيعة من أجل الارادة.

فكما أنَّ الشهية من المنظار الطبي، وسيلة للجهاز الهضمي، فلا بد من الاهتمام بها ما دامت منسجمة مع الجهاز الهضمي وسائر الاجهزة الجسمية الاخرى، أما إذا أخلت بهذا الانسجام - وهو ما يحدث في الانسان بشكل اكبر من الحيوان - فلا بد من التصدي لها. ومن هنا لا يُعد من الطيب للمريض من الاستجابة للشهية أمراً يتعارض مع حقوقه الحقيقية، في حين يُعد من جهة ما

عن معالجته تعارضًا مع حقوقه الفطرية.

وتنطبق هذه القاعدة ايضاً على رغبات الانسان وارادته على صعيد المصالح الفردية والاجتماعية السامية. فكما ان تشخيص رعاية حقوق الطبيعة من واجبات الطبيب لا المريض؛ كذلك تشخيص هذه الحقوق، ليس من واجبات الفرد وانما من واجبات القانون الذي يصدر عن مصدر الاهي أو بشري. ونحن نعتقد بعدم صلاحية المصدر البشري، ولا يبقى غير المصدر الاهي.

وفي ذات الوقت لا بد للارادة - كظاهرة لتأمين الحاجات الطبيعية - أن تسمتع بالحرية، وعدم وجود العراقيل في طريقها للسماح لها بالنمو والتكميل. اذاً نحن لا نقصد حرية الطبيعة دون الارادة، وانما نقصد ان الطبيعة يجب أن تكون حرة بشكل مطلق كي تنمو وتبلغ الكمال، وأن يكون لدى الارادة حرية موجهة باتجاه الطبيعة. فالارادة الضعيفة وغير الواضحة أو المحدودة والخاضعة، لا يمكنها أن تتكامل، كما لا يمكنها أن تسمو بالطبيعة إلى الكمال. وهذا يوضح ما قلناه في موضوع «الحرية» بأنّ بامكان المصلحة الفردية والاجتماعية، تحديد الارادة.

وربما هناك من يقول: أية مصلحة في الكبت والمنع والمحدودية؟ والجواب هو: لا وجود للمصلحة في الكبت المطلق، وهي تتعارض تماماً مع هذا الكبت الذي يعني الموت والجمود وعدم البروز، إلا اننا نتحدث عن تحديد الارادة من أجل الحرية الطبيعية.

نحن نتفق على الرأي القائل: الحرية لا تحددها إلا الحرية، اذا كان يعني ان حرية الارادة لا تحددها إلا حرية طبيعة الفرد والمجتمع، لا ان حرية الارادة لا تحددها إلا حرية ارادة الآخرين.

وهناك بحث آخر استعرضناه في موضوع «الحرية» ايضاً وهو ضرورة حرية الارادة والاختيار في بعض الاحيان ولبعض المصالح.

وفي مثل هذه الاحوال لا تبدو مصلحة الطبيعة مغایرة لحركة حرية

الارادة، وانما تعمل حرية الارادة على تأمين مصلحة الطبيعة، وبدونها لا يمكن تأمين هذه المصلحة.

ومن بين حالات حرية الانتخاب:

أـ الاذواق، والتي يكون فيها جانب الحُسن نسبياً.

بـ الحسن والقبح الخلقي: الصدق، والاستقامة، والامانة، وغيرها، مفردات تفقد معانها بالجبر.

جـ - اختيار الرفيق، والمحامي، والدروس، وغيرها من انواع الاختيارات التي تعمل على إنضاج الشخصية الاجتماعية فكريأً وتسنرها من قيمومة الآخرين (لا القانون، سيا القانون الاهلي)، لا يمكن أن تتحقق بدون حرية ضمن حدود خاصة. وهذا النوع من الحرية لا يتعارض مع نوع من التحديد القانوني، كمنع المجنون والسفهية ومعاقر الخمرة عن اختيار الرفيق، أو أن يحدد القانون مواصفات المحامي.

دـ على صعيد عدم المرجع وتساوي نسبة اراده الفرد مع اراده الآخرين، من حيث الكشف عن المصالح الحقيقية<sup>(١)</sup>.

### حدود الحرية

من الطبيعي أن الإنسان ورغم حريته في صنع تركيبته النفسية وتحويل محیطه الطبيعي إلى محیط مطلوب، وصنع مستقبله كما ينبغي، هناك الكثير من القيود، مما يعني أنّ حريته حرية نسبية، اي حرية ضمن دائرة محدودة، حيث بامكانه أن يختار ضمن هذه الدائرة المحدودة إما المستقبل السعيد وإما المستقبل الشقى.

والقيود التي تقيد الانسان كثيرة، منها:

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ١٢٧-١٢٩.

## ١- الوراثة

يطل الانسان على الدنيا بطبيعة انسانية مجرأً عليها لانه ولد من انسانين هما أبوه وأمه. كما يضطر هذا الانسان ايضاً كي يأخذ عنهما سلسلة من الصفات الوراثية التي لم يتدخل في اختيارها كلون البشرة، ولون العين، وبعض المواصفات الجسمية التي ربعا انتقلت اليه عن اجداد سابقين.

## ٢- المحيط الطبيعي والجغرافي

المحيط الطبيعي والجغرافي الذي يتربع فيه الانسان لا بد وأن يطبع عليه - شاء أم أبي - سلسلة من بصماته سواء على جسمه أو على نفسه. فالمواقع الباردة والحرارة والمعتدلة، تترك كل منها نوعاً من النفسيات والأخلاق الخاصة. وكذلك الحال بالنسبة للمناطقين الجبلية والصحراوية.

## ٣- المحيط الاجتماعي

فالمحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه الانسان، عامل مهم في تبلور الخصوصيات النفسية والأخلاقية. فاللغة، والأدب، العرفية والاجتماعية، والدين، والمذهب، غالباً ما يفرضها المحيط الاجتماعي على الانسان.

## ٤- التاريخ والعوامل الزمنية

لا يُعدّ الانسان تحت تأثير زمان الحال فحسب من حيث المحيط الاجتماعي، وإنما يلعب الماضي والواقع والاحاديث التي شهدتها دوراً كبيراً في التأثير عليه. ولكل كائن علاقة مفروغ منها بين ماضيه ومستقبله. فالماضي والمستقبل ليسا نقطتين منفصلتين وإنما هما حلقتان في حركة واحدة. فالماضي نطفة المستقبل ونواته.

## تردد الانسان على القيود

في الوقت الذي لا يستطيع فيه الانسان أن يقطع علاقته بالوراثة، والبيئة الطبيعية، والمحيط الاجتماعي، والتاريخ والزمن، بامكانه أن يتمدد عليها إلى حد

كبير، ويتحرر من أغلالها. فبامكانه ومن خلال قوة العقل والعلم من جهة، وقوة الارادة والايام من جهة اخرى، أن يحدث تغيرات في هذه العوامل و يجعلها منطبقة مع ارادته، فيمتلك بذلك مصيره.

### الانسان والقضاء والقدر الاهيين

يتصورون عادةً ان القضاء والقدر الاهيين، هما العامل الاساس في محدودية الانسان، في حين اتنا وعلى العكس من ذلك، لم نشر اليها كعامل من عوامل تحديد حرية الانسان. لماذا؟ فهل لا وجود للقضاء والقدر الاهيين أم انها ليسا عاملًا محدداً؟ والحقيقة هي ان القضاء والقدر، امر قطعي ولا يمكن الارتياب فيه، إلا انه لا يُعد عاملًا محدداً للانسان. فالقضاء الاهي عبارة عن حكم الله القاطع في الاحداث، والقدر الاهي عبارة عن تقدير الطواهر والاحاديث (اي تعين مقدارها).

ومن الثابت على صعيد العلوم الاهية، عدم تعلق القضاء الاهي بأى حدث، مباشرة وبلا واسطة، وإنما يوجب كل حدث عن طريق علله وأسبابه فقط. أي أن القضاء الاهي يحتم أن يكون نظام العالم، نظام اسباب ومسيرات. فالمقدار الذي يمتلكه الانسان من الحرية عن طريق العقل والارادة، والمقدار الذي لدى الانسان من المحدودية عن طريق العوامل الوراثية والبيئية والتاريخية، إنما هما بحكم القضاء الاهي ونظام اسباب ومسيرات المحتمي<sup>(١)</sup>. ومن هنا لا يعد القضاء الاهي نفسه عاملًا من عوامل تحديد الانسان. فالمحدودية التي تطال الانسان بحكم القضاء الاهي، هي ذات المحدودية الناجمة عن الظروف الوراثية والمحيطة والتاريخية، لا غيرها. كما ان الحرية التي ينعم بها الانسان، إنما هي بحكم القضاء الاهي أيضاً، إلا ان هذا القضاء قد أوجب ان يكون الانسان كائناً ذا عقل وارادة وأن يكون بامكانه التخلص بشكل

(١) لمزيد من الاطلاع يرجى كتاب «الانسان والمصير» للمؤلف.

واسع من قيد الاستسلام لدائرة الظروف الطبيعية والاجتماعية، وتقرير مصيره ورسم مستقبله بنفسه<sup>(١)</sup>.

## العلاقة بين حرية الانسان وجود الله

القضاء والقدر قضية قد عوْلَجت قبل ما يربو على ألف عام ولا تتعارض مع الحرية ادنى تعارض. بل لا يمكن التحدث عن حرية الانسان إلا من خلال الاعيان بالله والقضاء والقدر. فالانسان بامكانه أن يتحرر من جبر الطبيعة، باعتباره نفحة الهيبة. أما اذا كان الانسان، مجرد هذه الاعضاء والجوارح، وإذا كانت ارادته وليدة حركات الذرات وغيرها، فلن يكون هذا الانسان سوى كائن مجرّب لا غير. ويرى «سارتر» ان الانسان ليس سوى ارادة حرة. ونحن نسأل: من اين جاءت هذه الارادة؟ ان هذا الكلام يقوله شخص يؤمن بوجود قوة ما وراء الطبيعة للانسان، اي انه لا يرى الانسان كائناً مجرّباً أو مقهوراً من قبل الطبيعة، وانما يراه قاهراً لها. ولا يؤمن بأنّ الطبيعة اصل، والروح فرع، بل انه لا يتحدث عن الاصل والفرع، وانما عن قوتين: الطبيعة وما وراء الطبيعة في الانسان، وبامكان الانسان -كشعلة وفيض ما وراء طبيعي -أن يهيمن على طبيعته وأن لا يكون قراره نفس حركات الذرات، وانما يكون شيئاً آخر؛ بامكانه تغيير الطبيعة والتغلب عليها. «الانسان ليس لديه طبيعة غير الحرية» ما معنى عبارته هذه؟ لا شك في صحة هذه العبارة إلى حد ما. وقد أردت أن أوضح هذه الفكرة من خلال الفلسفة الاسلامية. فالفكرة التي عرضها تحت عنوان «إصالحة الوجود»، عرض العلماء جزءاً منها ولكن ليس تحت هذا العنوان، فقالوا ان الانسان يصنع وجوده بنفسه، ويختار وجوده بنفسه؛ أي انه ليس مثل الاشياء الطبيعية. فـا في الطبيعة ليس سوى ذلك الشيء المخلوق، عدا الانسان الذي هو كما يريد. غير ان هذا لا يعني انه يفتقد

(١) الانسان في القرآن، ص ٣٦-٣٩.

الفطرة والطبيعة وانما يعني ان طبيعته بهذا الشكل . بتعبير آخر: طبيعة الانسان طبيعة لها مثل هذا الاقتضاء ، وليس ان الانسان هو هكذا لأنه لا طبيعة له<sup>(١)</sup>.

### الله أم الحرية؟

هناك قضية معروفة في الفلسفة والكلام والأخلاق باسم «الجبر والاختيار»، وتدور حول: هل ان الانسان مجبر في اعماله وليس لديه حرية الاختيار أم انه حرّ ومحترر؟ كما هناك قضية اخرى تطرح في حقل الاهيات تعرف بالقضاء والقدر. وهمما يعنيان حكم الله الجازم في حركة أعمال العالم وحدودها ومقاديرها.

وتُبحث على صعيد قضية القضاء والقدر: هل ان القضاء والقدر الاهيين، امر عام وشامل لكافة الاشياء والاحاديث؟ واذا كان عاماً، فما هو مصير الحرية واختيار الانسان؟ وهل يمكن ان يكون عاماً في نفس الوقت الذي يتمتع فيه الانسان بالحرية والاختيار؟

والجواب: نعم. وقد بحثنا هذا الموضوع في الرسالة التي طبعت باسم «الانسان والمصير» وبرهنا فيها على عدم وجود أي تعارض بين القضاء الاهي العام وبين اختيار الانسان وحريرته. وما قلناه في تلك الرسالة، لم نكن قد قلناه لأول مرة؛ ما قلناه، اقتباس من القرآن الكريم، واقتبسه الآخرون من قبلنا، لا سيما الحكماء المسلمين الذين تناولوه بشكل واف. واليوم وحينما نلقي نظرة على العالم الغربي نجد افراداً مثل جان بول سارتر يتخطبون في دهاليز هذه القضية، وينكرون وجود الله تعالى لاعتادهم في فلسفتهم على فكرة الاختيار والحرية. ويقول سارتر: بما اني اؤمن بالحرية فلا استطيع الاعيان بالله، لأنني لو آمنت بالله فلا بد لي من الاعيان بالقضاء والقدر، ولو آمنت بالقضاء والقدر فليس بامكاني قبول الحرية الفردية، وبما اني لا اريد ان ارفض الحرية ولا يمكني بها

(١) فلسفة الاخلاق، ص ٢١٦ و ٢١٧.

فأنا ارفض الله اذاً.

الإيام بالله من منظار الإسلام يساوي اختيار الإنسان وحريته. فالحرية بمعناها الحقيقي، جوهر الإنسان. فالقرآن الذي تحدث عن عظمة الله اللامتناهية ومشيئته العامة، دافع بقوة عن الحرية أيضاً:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورة. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سيعاً بصيراً. إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾<sup>(١)</sup>.

أي ان الإنسان حر: بامكانه انتخاب الطريق الصحيح، وبامكانه انتخاب طريق الكفران بالنعمة وجحدها.  
ويقول القرآن ايضاً:

﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلها مذوماً مذحراً. ومن اراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاوئنك كان سعيهم مشكوراً. كُلَّا ند هؤلاء وھؤلاء من عطاء ربک وما كان عطاء ربک محظوراً﴾<sup>(٢)</sup>.

نعم، هذا هو منطق القرآن.

فالقرآن لا يرى أي تعارض بين القضاء الالهي العام وحرية الإنسان و اختياره. كما ثبت من الناحية البرهانية والفلسفية عدم وجود مثل هذا التعارض. في حين يتصور فلاسفة القرن العشرين ان عدم الإيمان بالله يعني حرية لهم، حيث بامكانهم من خلال ذلك قطع علاقتهم بالماضي والحاضر، أي بالتاريخ والمحيط بما يسمح لهم باختيار المستقبل وبنائه؛ هذا في حين ان قضية الجبر والاختيار لا علاقة لها بقبول الله أو رفضه. ويكون من خلال الإيمان بالله أن تلعب ارادة الإنسان دوراً فاعلاً وحرراً، في حين تواجه فرضية حرية

(١) الدهر / ٣-١.

(٢) الاسراء / ١٨-٢٠.

الانسان الكبير من المؤخذات في حالة عدم الایمان بالله، انطلاقاً من مقتضيات قانون العلية العامة؛ اي ان اساس الجبر أو توهם الجبر هو الایمان بالنظام الحتمي أو العلة والمعلول والذى يعترف به الاهي والمادي معاً . و اذا لم يكن هناك تعارض بين هذا النظام الحتمي وبين حرية الانسان واختياره- وليس هناك تعارض حقاً - فان الایمان بالله لا يبعث على إنكار الحرية . ولمزيد من المعلومات حول هذه القضية، يرجى مراجعة كتاب «الانسان والمصير»<sup>(١)</sup>.

### الحرية والاختيار

ويطرح السؤال التالي نفسه هنا: اذا كنا نعتقد ان القضاء والقدر الاهيين قضية ترتبط بشكل مباشر وبدون تدخل العلل والاسباب، بالحوادث، فلا معنى حينئذ لحرية الانسان واختياره؛ لكن هل تتحقق هذه الحرية من خلال القبول بمبدأ العلية العامة أم هذا المبدأ يتعارض معها أيضاً؟ وهل الاسلوب الوحيد للإعян بحرية الانسان واختياره أن لا نربط اعماله وارادته بأية علة خارجية ونأخذ بالرأي الاول من بين الآراء الثلاثة الماضية؟

يعتقد الكثير من المفكرين القدامى والجدد بتعارض مبدأ العلية العامة مع حرية الانسان واختياره، وهم لهذا مضطرون للإعян بالارادة التي وصفوها «بالحرة»، أي الارادة التي لا تتصل بأية علة، والقبول بفترات مثل الصدفة والجزاف حق ولو على صعيد ارادة الانسان.

وقد أثبتنا في هوماش الجزء الثالث من «أصول الفلسفة» اننا لو أنكرنا أية صلة بين الارادة وعلة خارجية، فلا بد أن نؤمن بخروج كافة اعمال الانسان وافعاله عن اختياره وارادته بشكل كامل، فضلاً عن برهنتنا على ان مبدأ العلة العامة ليس قابلاً للإنكار من جهة وليس قابلاً للاستثناء من جهة اخرى. أي اننا وبدلاً من إثبات نوع من الاختيار للانسان من خلال قبول فكرة عدم

---

(١) اسباب النزعة نحو المادية، ص ١١٩-١٢٢.

الارتباط الضروري بين الارادة وعلة من العلل، جعلناه أشدّ لا اختيارية.

فالانسان قد خلق مختاراً وحرّاً، أي أُعطي له العقل والفكر والارادة. وهو ليس كالحجر في أعماله الارادية بحيث يُقذف من الأعلى فينطلق نحو الارض بقوة الجاذبية شاء أم أبي، كما انه ليس كالنبات ليس امامه سوى طريق محدد وظروف نحو معينة لا بد له خلاها من امتصاص المواد الغذائية وقطع أشواط الحياة. كما انه ليس كالحيوان يعمل استجابة ليعاز الغرائز. فالانسان يرى نفسه عند مفترق الطرق دائمًا وليس مجبراً على سلوك طريق واحد منها فقط، بل ان سائر الطرق مفتوحة بوجهه، ويعتمد اختياره لأحدتها على رأيه وفكرة وارادته الخاصة. أي ان نمطه الفكري هو الذي يحدد طريقه.

وهنا بالذات تطرح شخصية الانسان وسجاياه وخصوصياته النفسية وخلفياته التربوية والوراثية ومستواه العقلي وعمقه الفكري، نفسها، ويتبين مدى علاقة المستقبل السعيد أو الشقى لكل شخص بالعوامل أعلاه وبالتالي بالطريق الذي يختاره.

والتفاوت بين الانسان والنار التي تُحرق والماء الذي يُغرق والنبات الذي ينمو وحتى الحيوان الذي يُعدو، يتمثل في أنّ أيّاً من هذه الاشياء لا يختار عمله وخصوصيته من بين عدد من الاعمال والخصوصيات، في حين يتميز الانسان بخصوصية الاختيار. لأنّه يقف دائمًا أمام عدد من الاعمال والطرق، ويعتمد تحديد أحد هذه الاعمال والطرق على ارادته فحسب<sup>(١)</sup>.

### الانسان خليفة الله

توجد في القرآن سورة باسم «الانسان» وتسمى «الدهر» أيضًا. وقد سميت بسورة الانسان لذكره في اوها وتحديثها عن اختياره وحرفيته ورسالته ومسؤوليته. وتبدأ هذه السورة بالآيات التالية:

(١) الانسان والمصير، ص ٥٨ و ٥٩.

**﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانَ حِينَ مِنَ الدُّهُرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾**. إنما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سبيعاً بصيراً. إنما هدinya السبيل إما شاكراً وإما كفوراً<sup>(١)</sup> فالإنسان على هذا الأساس ليس كائناً مجرراً أمام الخالق ونظام الخلق. فإذا أراد منه خالق الخلق؟ انه اراد منه الحرية. وقد خلقه كائناً حرّاً، ومسؤولاً، ويحمل على عاتقه رسالة. وقد عبر القرآن الكريم عن الإنسان تعبيراً لا يكن العثور على تعبير أسمى منه وهو «خليفة الله». ولا ريب في عدم وجود كتاب كالقرآن قدس الإنسان إلى هذا الحد: **﴿وَإِذَا قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾**<sup>(٢)</sup> ، كان هذا في بداية خلق الإنسان، فاعتراض الملائكة على ذلك، فقال لهم الله: **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾**. فخلافة الإنسان لله في الأرض تعني أنه رب في الأرض، وهذا معنى قولنا انه نصف الله. فإذا يبني ذلك؟ انه يبني عن الاستعدادات الهائلة الكامنة في هذا الموجود.

**﴿وَعَلِمَ آدَمُ الْإِسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**<sup>(٣)</sup> ، ولا شك في ان هذه الآية تشير إلى مدى المكانة التي يوليه الإسلام - الذي هو مدرسة انسانية من حيث الجوانب الفلسفية - للإنسان. فهو يتحدث بلغة رمزية عن تعلم الإنسان لكافة الأسماء. واسم الشيء يعني مفتاح تعلم ذلك الشيء. وقد علم الله الإنسان مفتاح معرفة الأشياء كلها، ثم دعا ملائكة العالم العلوى لمباراته في ميدان السباق، ففاز عليها. فخاطب الله تعالى الملائكة حينئذ ألم أقل لكم **﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** فأنتم قد قرأتم أحد جانبي القضية فقلتم: بما ان هذا الموجود الجديد ذو شهرة وغضب فلا بد ان يسفك الدماء ويقتل الناس ويقوم بأعمال التخريب. إلا انكم لم تقرأوا الجانب الآخر، فاعترف الملائكة بذلك وقالوا جميعاً: **﴿سَبَحَانَكَ لَا**

(١) الدهر / ٣-١.

(٢) البقرة / ٣٠.

(٣) البقرة / ٣١.

علم لنا إلا ما علمنا<sup>(١)</sup>، أي إننا قلنا ذلك عن جهل لا عن علم. وحينئذ أمرهم تعالى بالسجود لهذا الموجود: ﴿وَإِذْ قَلَنَا لِلملائِكَةِ اسْجَدُوا لِلنَّاسِ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ﴾<sup>(٢)</sup>.

تجدر الاشارة إلى وجوب عدم تفسير الملائكة بقوى هذا العالم، وإنما هم موجودات سُخِّرت لها قوى هذا العالم كافة.

وصفة الكلام هي أن الله تعالى قد عَبَرَ عن الإنسان أسمى تعبير من حيث حمل الرسالة والتبع بالحرية والاختيار، من خلال تتوبيه بالخلافة. فقد جعله مكيل الوجود، وفوض إليه جزءاً من خلقيته، وجعله مظهراً لها، ولا بد له من العمل على أساسها<sup>(٣)</sup>.

### امتياز الانسان

اعمال الانسان وافعاله، تُعد جزءاً من سلسلة الاحاديث ذات المصير الحتمي، لأنها تتصل بآلاف الاسباب والعلل بما فيها انواع الارادات والاختيارات التي تصدر عن الانسان نفسه. فكافحة الامكانيات المتوفرة للجهادات والنباتات والافعال الغريزية للحيوان وكافة ظروف حدوثها، متوفرة في افعال الانسان واعماله ايضاً. فبامكان الآلاف من الظروف الطبيعية أن تتدخل في نمو الشجرة أو حدوث العمل الغريزي عند الحيوان. وبامكان هذه الظروف الطبيعية كافة أن تتدخل في افعال الانسان ايضاً، فضلاً عما خلق الله له من عقل وشعور وارادة اخلاقية وقوة اختيار وترجح.

فبامكان الانسان وانطلاقاً من تشخيصه وحكمته أن يتخل عن العمل الذي ينسجم مع غريزته الطبيعية والحيوانية مئة بالمئة حتى مع عدم وجود اي

(١) البقرة / ٣٢.

(٢) البقرة / ٣٤.

(٣) الحرية المعنوية، ص ٢٥٧ و ٢٥٨.

رادرع أو مانع خارجي، وبإمكانه القيام بالعمل الذي يتعارض مع طبيعته مئة بالمئة حتى مع عدم وجود أي عامل خارجي يجبره على القيام به. فالانسان يقع - وكما هو الحال في الحيوان - تحت تأثير المحفزات النفسية والرغبات الباطنية، إلا انه ليس مكتوف اليدين امامها، وإنما يتمتع بنوع من الحرية. اي لو توفرت للانسان كافة العوامل التي لو توفرت للحيوان أجبرته على أداء عمل معين، يظل طريق الفعل والترك مفتوحاً لديه من قبل العقل والارادة. فالقيام بهذا العمل يتوقف على مصادقة قوة التمييز التي لديه والتي هي بثابة مجلس اعلى، حيث تسلك الارادة حينئذ سلوك السلطة التنفيذية. وهنا يتجلّى تدخل الانسان في مصيره كعامل مختار، أي العامل «الحر» في انتخاب الفعل وتركه بعد موافاته كافة الظروف الطبيعية.

فحرية الانسان ليست أن يكون الانسان حرّاً من قانون العلية، حيث من المستحيل التحرر من هذا القانون اولاً، ولعدم ارتباط هذا النوع من الحرية بالاختيار ثانياً وتساويه مع الإجبار. فما الفرق بين ان يكون الانسان مجرّأً ومكرهاً من قبل عامل خاص يفرض عليه ان يعمل خلافاً لرغبته ورادته، وبين تحرر ذلك العمل من قانون العلية وعدم ارتباطه بأية علة بما فيها الانسان نفسه، فيحدث بشكل تلقائي؟! فنحن حينما نقول بأن الانسان مختار وحرّ نعني صدور عمله عن ارادته وموافقته الكاملة وبمصادقة قوة التمييز التي لديه، وليس بامكان أي عامل أن يفرض عليه عملاً متعارضاً مع رغبته وميله ورضاه وتشخيصه، بما فيه القضاء والقدر.

وصفة الكلام هي: بما ان العلل والاسباب كلها، مظاهر للقضاء والقدر الالهيين، ووجود مجموعة من العلل والاسباب الكامنة خلف كل حادثة، فلا بد من وجود صور عديدة و مختلفة من القضاء والقدر. فالحدث الذي يقع، يقع بقضاء الله وقدره؛ والحدث الذي يتوقف، يتوقف بقضاء الله وقدره ايضاً<sup>(١)</sup>.

---

(١) الانسان والمصير، ص ٧١ و ٧٢.

## الآيات القرآنية

تحدثت بعض الآيات القرآنية بشكل صريح عن تأثير المصير وتدخله، وأشارت إلى أن أي حدث يقع في العالم، لا يقع إلا بمشيئة الله، وتسجิله قبل وقوعه<sup>(١)</sup>، مثل:

﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿وَعِنْهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(٣)</sup>.

## الآثار المشؤومة

لا شك في ان مفهوم «الجبر» والذي يعتقد الاشاعرة بوجبه بفقدان الانسان للاختيار والحرية بشكل كامل، قد ترك الكثير من الآثار الاجتماعية السيئة، وشلّ - كجرثومة الشلل - روح الانسان وارادته. فمثل هذه العقيدة تجعل أيدي المتعسفين اكثر تطاولاً في التعسف وأيدي المظلومين اكثر إمساكاً عن الانتقام والثأر. فذلك الذي اغتصب منصباً وصادر مالاً أو ثروة سيحدث في مثل هذه الحالة عن النعم الالهية، وان الله هو الذي قد أفاله عليه هذه النعم، وهو الذي يهب بحر النعمة للمتنعم وسفينة المحن للمفاسد. وينبغي لتقديم افضل الأدلة لاثبات مشروعيه ما استولى عليه وأن لا حق لمن حرم من العطایا الالهية بالاعتراض لأنه اعتراض على «القسمة» والتقدیر الالهي، ولا بد من التزام

(١) الإنسان والمصير، ص ٣٣ و ٣٤.

(٢) الحديد / ٢٢.

(٣) الانعام / ٥٩. طالما شوهد تطبيق البعض لعبارة ﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ على القرآن الكريم، في حين لا تتطابق عليه قطعاً. وربما لم يفسرها احد من نقّات المفسرين بهذا المعنى.

الصبر امام القسمة والتقدير الاهلي ولا بد من الرضا والشكر. فالجائز يتناصل من مسؤولية اعماله الجائرة بذرية المصير والقضاء والقدر لانه يد الحق ولا يليق بيد الحق ان يُطعن فيها او يُقدح . والمظلوم يتحمل لنفس السبب كل ما يراه على يد الظالم لانه يتصور كل ما يريد عليه، يريد من الله مباشرة وبلا واسطة، ويردد في نفسه: من العبث التصدي للظلم لانه تصد للقضاء والقدر، كما انه عمل لا اخلاقي لتعارضه مع مقام الرضا والتسليم.

المؤمن بالجبر وانطلاقاً من رفضه للعلاقة بين السبب والسبب في الاشياء، لا سيما بين الانسان واعماله وخصائصه الروحية والاخلاقية من جهة وبين مستقبله السعيد أو الشقي من جهة اخرى، لا يسعى لاصلاح اخلاقه والسيطرة على اعماله وتقوية شخصيته، ويحيل كل شيء إلى التقدير<sup>(١)</sup>.

### الجذور التاريخية

من الموضوعات الجديرة بالبحث هي: ما هو مصدر هذه الافكار والعقائد والمناقشات المثارة حولها؟ وكيف انهمك المسلمون في بحث الجبر والقدر منذ النصف الاول او منذ النصف الثاني للقرن الرابع الهجري على اكثر تقدير؟

ولا شك في ان الآيات القرآنية وكلمات الرسول الراكم ﷺ ، كانت السبب في اقبال المسلمين على بحث مثل هذه المواضيع . قضية المصير وكذلك قضية الحرية والاختيار، من القضايا التي يميل المرء بطبعه إلى الوقوف عليها، وقد ضاعف من اهتمامه بها واندفعه نحوها، تكرار الاشارة إليها في كتاب المسلمين السماوي وتأييد بعض الآيات لقضية المصير بشكل صريح، وتحدث البعض الآخر وبنفس الصراحة عن اختيار الانسان وحرি�ته.

ويدعى المستشرقون وأتباعهم وأذنابهم ان مصدر هذه الافكار وجذورها، شيء آخر. وسبق أن قلنا ان بعض المؤرخين الغربيين يعتقد بأن قضية المصير

(١) الانسان والمصير، ص ٤٣ و ٤٤.

والجبر والاختيار قد طرحت فيها بعد بين المتكلمين المسلمين ولم يتحدث الاسلام بشيء لا عن الجبر ولا عن الاختيار!! بينما يذهب البعض الآخر إلى ان فكرة الاشاعرة القائمة على الجبر وعدم الاختيار اثنا اخذوها عن تعاليم الاسلام، في حين رفض المعتزلة فكرة الاسلام هذه مثل الكثير من الافكار الاسلامية الاخرى التي لا تتلاءم مع العقل والمنطق، فتحدثوا لأول مرة بين المسلمين عن حرية الانسان و اختياره!! أضف إلى ذلك أن المعتزلة لم يبتدعوا هذه الفكرة، وانا انتبهوا اليها من خلال علاقتهم واتصالهم بالامم الاخرى لا سيما النصارى!

يقول ادوارد براون في كتابه «تاريخ ايران الادبي»، الجزء الاول، ص ٤١٣:  
«يعتقد فون كرمر ان معبد الجهني قد اذاع فكرة حرية الارادة في نهاية القرن الميلادي السابع بدمشق تقليداً لشخص ايراني يدعى سنبويه».

ويقول في ص ٤١٢:

«يرى فون كرمر ان دمشق كانت المحل الذي نشأت وتبلورت فيه معتقدات هؤلاء القوم الذين تأثروا بالمتألهين البيزنطيين، لا سيما يحيى الدمشقي ومربيه ثيودور ابوقره».

وهكذا نرى كيف يعتقد فون كرمر ان ذلك الايراني الذي لقى معبد الجهني عقيدة الحرية والاختيار في بداية الامر، اثنا استفاض بفيوضات متألهي الروم النصارى!!

وإذا كان الامر هكذا، فعلينا ان نبحث عن مثل هذه الجنوزر عند دراسة قضايا كالتوحيد والمعاد بل وحتى الصلاة والصيام ايضاً! ولا بد على هذا الاساس ايضاً ان يعود اهتمام المسلمين بقضايا التوحيد والمعاد والصلاه والصيام لخلفياتها في الاوساط المسيحية!!

والحقيقة هي ان المستشرقين لا يتمتعون لا بأهلية بحث الافكار والعقائد الاسلامية والتحقيق فيها ولا بحسن النية غالباً. فهم حينما ينبرون لتحليل

الافكار والعقائد الاسلامية ودراسة القضايا المتعلقة بالكلام الاسلامي أو العرفان والتتصوف والفلسفة، يحوكون من الآراء التافهة ما يبعث على الدهشة أو الضحك في بعض الاحيان<sup>(١)</sup>.

### الانسان والتکلیف

تُعد قابلية الانسان على التکلیف، من بين المواهب التي يتمتع بها عادة. فهو بامكانه العيش في إطار القوانین التي توضع له، في حين ليس بامكان اي موجود آخر غيره أن يطیع قوانین اخری عدا قوانین الطبیعة الجبریة. فليس بالامکان وضع قوانین للأخشاب أو الاشجار والازهار أو للحصان والبقرة والنعجة، وابلاغها بها وتکلیفها بالعمل في إطار هذه القوانین التي شرعت لصالحها. ولو افترضنا حصول خطوة ما لصالحها والمحافظة عليها، فلا بد أن تتم عن طريق القسر والالزام.

اما الانسان فهو الكائن المتميز الوحید الذي يتمتع بـ«الامکان» و«القابلية» المدهشتين على التحرك في إطار سلسلة من القوانین الوضعیة، وقد سُمِّيت هذه القوانین الوضعیة بـ«التکلیف» لأنها مفروضة على الانسان من قبل جهة مؤهلة. ولا شك في عدم خلو تحمل القانون من شيء من المشقة والجهد.

ولا بد للمشرع أن يأخذ عدة عوامل بنظر الاعتبار حين يكلف الانسان بتکلیف خاص. بتعبير آخر: لا يمكن للانسان أن يؤدي التکالیف التي يكلف بها إلا اذا توفرت فيه بعض الشروط وهي:

- ١- البلوغ.
- ٢- العقل.
- ٣- المعرفة.

---

(١) الانسان والمصير، ص ١١٤ و ١١٣.

٤- القدرة<sup>(١)</sup>.

## ٥- الحرية والاختيار:

والحرية والاختيار اذاً شرط من شروط التكليف. أي ان الانسان يكلّف بأداء مهمة معينة حينها لا يكون هناك إكراه أو اضطرار يمنع أداءه لها. ويسقط هذا التكليف بوجود الإكراه أو الاضطرار.

والإكراه، مثل قيام قوة قاهرة بتهديد الصائم بوجوب الافطار وإلا تعرضت حياته للخطر، حيث من الطبيعي سقوط تكليف الصيام في مثل هذه الحالة. أو تهديد الظالم للمستطيع بعدم أداء فريضة الحج وإنما تعرضت حياته أو حياة ذويه للخطر، فيسقط عنه تكليف الحج أيضاً. وقد قال الرسول ﷺ: «رُفِعَ مَا استُكْرِهُوا عَلَيْهِ».

والاضطرار ليس أن يهدّد المرء من قبل شخص آخر، وإنما هو الذي ينتخب التخلّي عن التكليف، إلا أن هذا الانتخاب خاضع لشروط قاسية، كأن يتّبه في البيداء ويستبد به الجوع ولا يجد حيلة آنذاك سوى تناول لحم الميت، فيسقط عنه تكليف أكل لحم الميت.

فالتفاوت بين الإكراه والاضطرار هو أن يهدّد المرء في «الإكراه» من قبل قوة جائرة في وجوب القيام بعمل مغاير للشرع، وتعرض حياته للخطر في حال عدم القيام به، مما يدفعه للاذعان للأمر المفروض عليه. في حين لا وجود للتهديد في «الاضطرار» وإنما تطرأ بعض الظروف التي تفرض على المرء وضعاً غير ملائم فيضطر للعمل خلافاً للتوكيل من أجل التخلص من ذلك الوضع.  
اذاً يختلف الإكراه عن الاضطرار من ناحيتين:

- ١- هناك تهديد للانسان في حالة الإكراه على العكس من الاضطرار.
- ٢- يلجم الإنسان في الإكراه إلى «دفع» وضع غير ملائم وفي الاضطرار إلى

(١) تحدث الشهيد المطهرى عن هذه المناصر بشكل مفصل في كتاب «الانسان في القرآن» ص ٤٥-٤٦، ونتحااشى بحثها هنا لعدم اتصالها بدراستنا.

«رفع» مثل هذا الوضع.

ولا يمكن على ضوء ذلك عد الاكراه والاضطرار من شروط التكليف العامة لفقدانها حالة العمومية ولأنها تعتمد:

١- على درجة الضرر الذي يُراد دفعه أو رفعه.

٢- على أهمية التكليف الذي يُراد عدم أدائه بفعل الاكراه أو الاضطرار.

ومن الطبيعي انه لا يمكن بذرية الاكراه أو الاضطرار إلحاق الازى بالآخرين أو المجتمع أو الدين نفسه. وهناك من التكاليف ما يجب تحمل الضرر في سبيلها منها كان نوعه<sup>(١)</sup>.

### العلية في التاريخ وعلاقتها باختيار الانسان

هل هيمن مبدأ العلية على التاريخ؟ وإذا كان الامر كذلك فلا بد أن يكون وقوع كل حادثة حتمياً في زمانه وغير قابل للاجتناب، مع هيمنة نوع من «الجبر» على التاريخ. ولو هيمن الجبر على التاريخ، فما هو مصير تكليف حرية الانسان واختيارة؟

والحقيقة هي اننا لا يمكن أن نتصور حرية الانسان إلا من خلال فكرة «الفطرة»، أي ان الانسان يقدم على العالم خلال الحركة الجوهرية العامة للعالم بعد إضافي يقوم خلاها هذا البعد بصياغة أساس شخصيته التي تتکامل بتأثير عوامل المحيط والبيئة. وهذا البعد عبارة عن وجود ينبع الانسان شخصيته الإنسانية حتى يرثي ظهر التاريخ ويحدد حركته.

والحرية بالمفهوم الذي اشرنا اليه لا تتعارض لا مع قانون العلية ولا مع كلية القضايا التاريخية وقانونية التاريخ. فـ«الضرورة بالاختيار» والتي تعني ان يكون للانسان مسار محدد وحتمي في حياته الاجتاعية انطلاقاً من فكرة وارادته، في ذات الوقت الذي يمتلك فيه الاختيار والحرية، تختلف عن

(١) الانسان في القرآن، ص ٤٠-٤٧.

«الضرورة العمياء» التي تستولي على الإنسان وارادته ...

### دور حوادث الصدفة في نقض قانونية التاريخ

هناك إشكال آخر على صعيد قانونية التاريخ وعمومية قضاياه يتمثل في أن دراسة الحوادث التاريخية تكشف عن أن بعض الحوادث الصغيرة أو التي أفرزتها الصدفة، قد غيرت حركة التاريخ أحياناً. والمقصود بحوادث الصدفة - وعلى العكس من تصور بعض السذج - ليس الحوادث التي لا علة لها، وإنما الحوادث غير الناشئة عن علة عامة وكلية ولا تميّز بقاعدة عامة. وإذا كان للحوادث التي لا تميّز بقاعدة عامة دور مؤثر في الحركات التاريخية، فهذا معناه خلو التاريخ من أي قاعدة وقانون وسنة وحركة محددة. وبُعد ظهور «كليوباتره» - ملكة مصر الشهيره - من بين الحوادث التاريخية التي تحمل طابع الصدفة. وهناك العديد من هذه الحوادث التي غيرت مجرى حركة التاريخ أو كما يقول المثل المعروف: قلب النسيم أوراق سجل الأيام.

ويقول «ادوارد هالت كار» في كتاب «ما هو التاريخ»:

«والعامل الآخر ل מהاجمه «الجبر التاريخي» هو طلسم «بيفي كليوباتره» الشهير. وهذا هو ذات الفرضية التي تعتقد ان التاريخ وإلى حد ما فصل من أعراض سلسلة من الاحداث الفجائية المتنسبة إلى أكثر العلل القائمة على سبيل الصدفة. فلم تكن معركة اكسيوم ذات صلة بالعلل التي يتتصورها المؤرخون المسلمين بشكل عام، وإنما نجمت عن افتتان انطونيوس بكليوباتره؛ حينما توقف بايزيد عن الزحف في اوربا الوسطى لاصابته بمرض النقرس، كتب غيبون: «غلبة قليل من الخلط على مزاج فرد من الناس، من الممكن أن يحول دون وقوع كارثة بشرية أو يؤجل وقوعها»؛ حينما عض قرد اليف الملك اليوناني الكساندر في خريف عام ١٩٢٠ وأدى إلى وفاته، أدى هذا الحدث إلى ظهور سلسلة من الاحداث دفعت بالسير ونستون تشرتشل إلى

القول: «ومات بعضة القرد مئتان وخمسون الف شخص»؛ وحينما أصيب تروتسكي بالحمى أثناء اصطياد البط ورقوده في فراش المرض خلال صراعه مع زينويوف، وكامنوف، واستالين في خريف عام ١٩٢٣، كتب: بامكان المرء أن يت肯هن بحدوث ثورة أو حرب ما، وليس بامكانه التكهن بنتائج الصيد الخريفي للبط البري<sup>(١)</sup>.

وتعتبر قصة هزيمة مروان بن محمد - آخر خليفة اموي - خير شاهد في العالم الاسلامي على تدخل الصدفة في مصير التاريخ ومساره. فقد ألمَّ البول على مروان في ميدان معركته الاخيرة مع العباسيين فانزوى لبيول فرآه احد افراد العدو صدفة فقتله. وذاع نبأ مقتله في اوساط عسكره فأحدث اضطراباً لأنهم لم يكونوا قد توقعوا مثل هذه الحدث المفاجئ فاضطروا إلى الهزيمة، مما ادى إلى انقراض الدولة الاموية فقيل على اثر ذلك: «ذهبت الدولة ببولة».

وتحدث ادوارد هالت كار عن الصدفة ووصفها بأنها تنجم عن سلسلة من العلل والمعلولات التي تقطع سلسلة اخرى من العلل والمعلولات، وليس هي حادثة بدون علة، وقال:

«كيف يمكن اكتشاف التوالي المنطقي للعلة والمعلول في التاريخ والاعتقاد بوجود اساس وقاعدة في التاريخ في حين انَّ توالينا من الممكن أن ينقطع أو ينحرف بواسطة توال آخر متفكك؟»<sup>(٢)</sup>.

والاجابة على هذا التساؤل تعتمد على تيز أم عدم تميز المجتمع والتاريخ بطبيعة محددة. فإذا كان التاريخ ذا طبيعة محددة، كان دور الاحداث الجزرية ضئيلاً؛ أي ان هذه الحوادث لا تلعب دوراً في تغيير الحركة العامة للتاريخ، وإنما تعمل على تسريعها أو عرقلتها على أقصى تقدير. أما اذا كان التاريخ لا يتسم بطبيعة أو هوية محددة فلن يكون لذلك التاريخ حركة ذات ملامح محددة ولن

(١) ما هو التاريخ؟ ترجمة حسن كامشاد، ص ١٤٤ و ١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٦.

يتميز بالكلية ولا يكن التكهن به.

ومن وجهة نظرنا، حيث نقول بوجود طبيعة و هوية للتاريخ وان هذه الهوية نتاج الهويات الفردية للناس الباحثين فطرياً عن الكمال، نعتقد ان حوادث الصدفة لا تلحق الضرر بكلية التاريخ وضرورته<sup>(١)</sup>.

### نتائج تأثير تعاليم الانبياء على التكامل التاريخي

- ١- التعليم والتربية.
- ٢- تعزيز العهود والمواثيق<sup>(٢)</sup>.
- ٣- التحرير من القيود الاجتماعية

ويعد دور الانبياء في مكافحة انواع الاستبداد ومظاهر الطغيان، من اعظم الادوار. وقد أكد القرآن بشكل كبير على هذا الدور الذي مارسه الأنبياء من خلال الاشارة إلى إقامة العدل كهدف لبعثتهم اولاً، وتكرار اشارته ضمن قصصهم عن صراعهم مع مظاهر الاستبداد ثانياً وكون الطبقة المستبدة هي الطبقة التي تتصدى للأنبياء على طول الخط.

وكلام ماركس ومن هم على نهجه عن ان الدين والحكومة والثروة، وجوه ثلاثة للطبقة الحاكمة ومناهضة للطبقة الممحورة، ليس سوى ثرثرة تتعارض مع الحقائق التاريخية الدامغة. ويقول الدكتور اراني في تبرير نظرية ماركس: «الدين دائمًا وسيلة بيد الطبقة الحاكمة التي تستخدم المسبحه والصلب إلى جانب الرمح لقهر الطبقة المحكومة»<sup>(٣)</sup>.

واذا أُريد قبول مثل هذه التبريرات التاريخية وهذا النوع من الفلسفة

(١) المجتمع والتاريخ، ص ٨٣-٨٩.

(٢) تحدث الاستاذ الشهيد عن النقطتين الاولى والثانية بشكل مفصل في كتاب «الوحى والنبوة»، تتحاشى ذكرها لعدم اتصالها بموضوعنا.

(٣) مجلة «انترنيشنال» نقلأً عن كتاب اصول علم الروح للدكتور اراني.

التاريخية فليس هناك سوى طريق واحد: إغماض العين وتجاهل الحقائق التاريخية.

فعلي بطل السيف والمبحة، كان رجل السيف، ورجل المبحة، لكن لقهر أية طبقة كان يستخدمها؟ هل لقهر الطبقة المحكومة أم الطبقة الحاكمة؟ ماذا كان شعار علي؟ كان شعاره: «كونا للظلم خصماً وللمظلوم عوناً»<sup>(١)</sup>. كان علي طليلاً محباً للسيف والمبحة طوال عمره، وعدواً للذهب. قد استخدم سيفه لمجاوبة أرباب القوة والثروة، وعلى حد تعبير الدكتور علي الوردي في كتاب «مهزلة العقل البشري» ان علياً قد دحض بشخصيته فلسفة ماركس.

ويُعَد كلام نيتشه أكثر ثرثرة من كلام ماركس وفي الجهة المعاكسة لنظريته حيث عد الدين عامل توقف المجتمع وانحطاطه لدعمه للضعفاء في حين ان الأقوياء هم الطبقة الوحيدة التي تعمل على تقدم المجتمع وتكامله! وكأن المجتمع البشري لا ينطلق في حركته التكاملية إلا إذا هيمن عليه قانون الغاب. فكان ماركس يرى ان الطبقة المحرومة هي التي تؤلف عامل التكامل وان الأنبياء كانوا مناهضين لها، في حين يرى نيتشه ان الطبقة القوية هي التي تؤلف عامل التكامل وقد وقف الانبياء بوجهها. ويعتقد ماركس ان الدين من صنع الأقوياء والأغنياء، بينما يعتقد نيتشه انه من صنع الضعفاء والمحروميين. ويمكن خطأ ماركس في تفسيره للتاريخ على أساس التناقض بين مصالح الطبقات وتجاهله للجانب الانساني من التاريخ<sup>(٢)</sup> اولاً، واعتقاده ان عامل التكامل يمكن في الطبقة المحرومة فقط ثانياً، ووضعه لأنبياء ضمن جناح الطبقة الحاكمة ثالثاً. في حين يتمثل خطأ نيتشه في اعتقاده ان الانسان الأفضل هو الانسان الأقوى، والانسان الأقوى هو العامل الاوحد الذي يتطور

(١) نهج البلاغة، الكتب، الكتاب رقم ٤٧.

(٢) تراجع رسالة «قيام وثورة المهدى من منظار فلسفة التاريخ» للمؤلف، وموضوع «المجتمع والتاريخ» ضمن سلسلة بحوث الرؤية للكون.

## نموذج على سو الحرية

الحرية من أسمى القيم الإنسانية، أو أنها جزء من معنويات الإنسان بتعبير آخر. ومعنىـيات الإنسان هي تلك الأشياء التي ما وراء حد حيوانيته. فالحرية ذات قيمة إنسانية تفوق القيم المادية. والآفراد الذين يدركون معنى الإنسانية لديهم الاستعداد للعيش ببطء خاوية وبدن عار وفي ظل ظروف حياتية قاسية على أن لا يعيشوا أسرى في يد غيرهم أو تحت هيمنة الآخرين. أي انهم يتحملون كل تلك الصعاب من أجل العيش بحرية.

انتم تعلمون ان ابن سينا قد أمضى فترة من حياته وزيراً وللأسف<sup>(٣)</sup>، واورد كتاب «نامه وانشوران»<sup>(٤)</sup> حديثاً عجيباً عن فترة وزارته جاء فيه:

«سلك يوماً في موكبه الوزاري طريقاً فرأى كناساً مشغولاً بذلك الشغل الوضيع ولسانه يترنم بهذا الشعر اللطيف:

أني أكرمك أيتها النفس

كي يير العالم على القلب سهلاً

فتبعـسـ الشـيـخـ من سـمـاعـ هـذـاـ الشـعـرـ فـأـخـذـ يـهـتـفـ مـعـارـضاًـ لـهـ:ـ لـاـ شـكـ فـيـ انـ حدـ التـعـظـيمـ وـالـتـكـرـيمـ هوـ ماـ رـعـيـتـهـ لـنـفـسـكـ الشـرـيفـةـ.ـ اـنـ قـدـرـ جـاهـهاـ هوـ انـكـ اـوـقـعـتـهاـ فـيـ قـاعـ بـئـرـ ذـلـةـ الـكـنـاسـةـ،ـ وـعـزـهاـ وـشـأنـهاـ هوـ انـكـ الحـقـتـ بـهاـ هـذـهـ الـاـهـانـةـ

(١) نكتـيـ هناـ بـهـذـاـ الـقـدـرـ الـمـوجـزـ حـوـلـ «ـفـلـسـفـةـ التـارـيـخـ وـدـورـ الـأـنـبـيـاءـ فـيـ تـكـاملـهـ»ـ،ـ وـندـعـ التـفـاصـيلـ إـلـىـ كتابـ «ـفـلـسـفـةـ التـارـيـخـ مـنـ مـنـظـارـ الـقـافـةـ الـاسـلامـيـةـ»ـ الذـيـ هوـ عـلـىـ اـبـوـابـ الطـبـعـ.

(٢) الـوـحـيـ وـالـنـبـوـةـ،ـ صـ ٢٧ـ ـ ٢٩ـ .

(٣) يـجـبـ القـولـ بـأـسـفـ انـ هـذـاـ الرـجـلـ قـدـ أـعـيـقـ عـنـ نـشـاطـهـ الـعـلـمـيـ بـسـبـبـ الـوـزـارـةـ.ـ فـلـوـ لمـ يـذـهـبـ خـلـفـ الـوـزـارـةـ وـالـرـئـاسـةـ لـاستـطـاعـ بـنـبـوـغـهـ الـعـلـمـيـ الـفـذـ أـنـ يـنـجـزـ عـمـلـاًـ أـكـبـرـ بـكـثـيرـ مـاـ اـنـجـزـ لـلـبـشـرـيـةـ.ـ وـقـدـ أـعـرـبـتـ شـخـصـيـاتـ كـمـلاـ صـدـراـعـنـ أـسـفـهـاـ لـسـقوـطـهـ فـيـ هـذـاـ الـوـادـيـ .

(٤) أيـ «ـرـسـالـةـ الـعـلـمـاءـ»ـ،ـ جـ ١ـ،ـ صـ ١١٣ـ ،ـ طـ ٢ـ .

والاحتقار. انك تضيع العمر النفيس في هذا الامر الخسيس ثم تعد هذا العمل القبيح افتخاراً للنفس. فتوقف الكناس عن الكناسة وأطلق لسانه قائلاً: «في عالم الهمة، الاقتنيات من هذا العمل الخسيس أفضل من تحمل مئة الرئيس». ففرق أبو علي في العرق، وحثّ الخطى مبتعداً عنه».

لقد ادرك ابن سينا انه لا يعتلك الاجابة المنطقية على ذلك الكلام المعتبر عن الحقيقة. وفي المنطق الحيواني والمنطق الترابي لا معنى لأن ينصرف الانسان عن الطيور والرز والجود والمحاربة والغلام والامر والنهي، ويقبل على الكناسة ثم يتحدث عن الحرية. فما هي الحرية؟ فهل هي شيء محسوس وملموس؟ لا، ليست محسوسة ولا ملموسة؛ إلا ان الضمير الانساني الرفيع يولي لها من الاهمية والقيمة ما يدفعه لترجح الكناسة على الأسر.

### ضرورة رعاية العدل في تقييم الحرية

الحرية، قيمة كبرى ولا شك. وقد يشاهد نسيان هذه القيمة تماماً في بعض المجتمعات، كما قد يشاهد يقظة هذا الحس لدى الانسان في مجتمعات أخرى. ويقول بعض الافراد ان الانسان والانسانية يعنيان الحرية ولا قيمة لها غير قيمة الحرية، وهذا يعني انهم يريدون حشو كافة القيم في قيمة واحدة تدعى «الحرية». فالحرية ليست هي القيمة الوحيدة، بل هناك قيم أخرى ايضاً مثل «العدل» و«الحكمة»، و«العرفان» وغيرها<sup>(١)</sup>.

### حركة التحرر الاسلامية

دراسة العلاقة بين الاسلام والحرية يعتمد بعد البحث في معنى الحرية على معرفة قواعد الحرية وعللها والعقبات التي تعترضها ثم نرى مدى ما تحمله الافكار والمعتقدات الاسلامية من قواعد الحرية واسسها والتي قد تبعث على

(١) الانسان الكامل، ص ٤٥٩.

قرد النفوس<sup>(١)</sup> شئنا أم أبينا وتلهم الحرية، ومدى تعزيزها لاسباب الحرية المباشرة وحجم مواجهتها أو ازاحتها للعقبات التي تعرضاها، أو بتعير آخر: ما هي الاشياء التي دعت إلى الترد عليها وما هي الاشياء التي دعت إلى التسليم لها؟

ولا بد أن نعلم بوجود تباين بين شعار ملحمة الحرية وبين اصولها وقواعدها. والاسلام لم يأت بشعار الحرية فقط وإنما جاء بقواعد الحرية ايضاً، وأنه قوي إلى حد بعيد على صعيد شعار الحرية. ولا شك في ان شعار الحرية يعد عاملاً محركاً وقوياً بحد ذاته للحصول على الحرية. وهذا يعني ان الاسلام لم يأخذ بالاصول والقواعد الجافة فقط ويتجاهل الشعار على صعيد الحرية، كما لم يكتف بالشعار فقط ويدير ظهره لاصول الحرية وقواعدها، وإنما جاء بشعارات حية وخالدة، وكذلك باصول قوية راسخة.

فكانـتـ كـلـمـةـ «لا إله إلا الله»، أولـ شـعـارـ اـسـلـامـيـ يـحـمـلـ اـكـثـرـ المـبـادـئـ والـاـصـوـلـ اـسـاسـيـةـ. وـهـذـهـ الـكـلـمـةـ الـتـيـ هيـ شـعـارـ اـسـلـامـ وـالـتـيـ اـنـطـلـقـتـ مـنـ لـسانـ الرـسـوـلـ الـاـكـرـمـ ﷺ تـحـمـلـ مـعـهـ السـلـبـ وـالـإـيجـابـ، وـالـنـفـيـ وـالـاثـبـاتـ، وـالـتـرـدـ وـالـتـسـلـيمـ، وـالـلـاـ وـالـنـعـمـ، وـالـفـصـلـ وـالـوـصـلـ، وـالـحرـيـةـ وـالـعـبـودـيـةـ<sup>(٢)</sup>، ولـكـنـ

(١) والتسليم في ذات الوقت، لأن الترد المطلق يبعث على الفوضى، ولا بد من حالة التسليم لأنها تقتل مبادئ الرقي الانساني. فالتسليم بدون قرد امام العقبات يعني الجمود، والترد بدون تسليم يعني الفوضى والاضطراب.

(٢) هناك شعر لستاني يشبه فيه توحيد الانسان الله بابتلاع الحوت للماء. ويقول أن المرء يجب أن يتبع كل بحر الوجود، ثم يلفظ كل شيء عدا «الله» تعالى. اي ان يقول من خلال ذلك «لا» لكل شيء، إلا «الله».

والقرآن الكريم يقول: **«فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ...»**.

ويقوم الاساس الفكري للحرية في الاسلام على شيئين: الله، والانسان. فالله هو العامل الذي اذا انكره الانسان، حرر نفسه من كل قيد. والانسان لا بد وأن يرى نفسه أسمى من أن يذلها وينال من قيمتها وسموها بالأشياء النافحة، آيات مثل **«نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي»** و**«أَنِي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...»** و**«خَلَقْتُ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا»**، تخلق هذا الشعور لدى الانسان.

ليس على شكل شيئاً منفصلين، وإنما على شكل شيئاً متصلاً أحدهما بالآخر ولا إمكان لأحدهما بدون الآخر. فالسلب بحاجة إلى نقطة اتكاء هي الإيجاب، والإيجاب غير ممكن بدون العبور من ذلك السلب، أي لا يقبل الشريك.

وكما قلنا خلال حديثنا عن «الرسول الراكم» ﷺ كيف كانت للدعوة الإسلامية بداية عجيبة: كان شعار الإسلام الأول بسيطاً، ومفهوماً، وشاملاً، ومؤثراً.

ونفتحت هذه الكلمة النافخة الأولى من الحرية الإسلامية: التحرر من الأصنام، ونير العبودية، ومن هم على شاكلة أبي سفيان وأبي جهل، والتحرر من أغلال عبودية الثروة، والهوى، والنفس الamarة. وأصبح هذا التحرر ذا قيمة سامية بواسطة هذه الكلمة<sup>(١)</sup>.

### الحرية في التعابير الإسلامية

... أقرّ الإسلام بالحرية كقيمة من القيم الإنسانية، ولكن ليست كقيمة وحيدة، وليس بتلك التعابير والتفسير المصطنعة، وإنما ذات معنى حقيقي، وللامام علي عليه السلام وصيحة<sup>(٢)</sup> وصى بها ولده الامام الحسن عليهما السلام بعد وصيته لمالك الاشتري، وقد وردت في نهج البلاغة بشكل مفصل وتعدّ اوسع كتب الامام.

وفي كتاب الوصية هذا جملة تقول: «أكرم نفسك عن كل دنيئة وإن ساقتك إلى الرغائب فانك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً»<sup>(٣)</sup>. فهو لم يقل مثلاً لا تلق بنفسك في الدنيا وإنما قال «أكرم نفسك عن كل دنيئة». والحقيقة إن خسران النفس وكما أكد القرآن الكريم على ذلك، هو الخسران الكبير. والامام

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الألف، ص ٥٦ و ٥٧.

(٢) الوصية بمعنى العهد والتوصية، وليس بالضرورة أن تكون لما بعد الموت.

(٣) نهج البلاغة، الكتاب ٢١.

قد اكد على هذا المعنى من خلال هذه العبارة من وصيته، فهو يريد من خلالها أن يقول لابنه: بني! لكل شيء تباعه وتخسره قيمة، وكل شيء لديك بأمكانك ان تباعه وتقنلي ما يعادله من ثمن؛ إلا أن هناك شيئاً لو بعثه فلن يكون العالم كله ثناً له، وهو نفسك، فانك اذا بعثها فلن تعوض عنها الدنيا وكل ما فيها. ويقول الامام الصادق عليه السلام أن ليس هناك ما يساوي النفس سوى الله، فيمكن بيعها له، ولا يوجد بين مخلوقات عالم الملك والملائكة والدنيا والآخرة ما يعادل النفس أو يكون ثناً لها.

ويقول الامام علي عليه السلام في نفس الوصية السابقة: «ولا تكن عبد غيرك فقد جعلك الله حرّاً».

### اقسام العبادة وقيمة كل منها

هناك كلام للامام علي عليه السلام في نهج البلاغة يقيم فيه العباد على اساس العبادة ويقسمهم إلى ثلاث فئات، وقد ورد هذا الكلام في العديد من الاحاديث، فالفئة الاولى تعبد الله خوفاً، أي خوفاً من عذابه وناره، وعبادة هذه الفئة: «عبادة العبيد»، مثل أولئك الذين يعملون خوفاً من اسيادهم، ولا قيمة اخرى لعملهم.

والفئة الاخرى هي تلك التي تعبد الله طمعاً في الجنة، لأنها سمعت ان هناك «جنت تحجري من تحتها الانهار» و«حور عين» و«لحم طير ما يشتهون»<sup>(١)</sup> لا ولئك الذين يعبدون الله. فهم يقبلون على هذا النوع من العبادة حينما يتذكرون لحم الطير واللؤلؤ والمرجان والحور العين. ولا شك في ان هذه العبادة، «عبادة التجار»: انهم يعبدون ويعملون للحصول على اجر كبير. اما الفئة الثالثة فهي تعبد الله تعالى شكرأً وحمدأً لا طمعاً في الجنة ولا خوفاً من النار، وانما خلوصاً لله.

(١) الواقعه / ٢١

من خصوصيات الانسان - بما هو انسان - تقيذه بالشکر . فالضمير يلي على الفرد أن يشكّر الله تعالى حتى مع عدم وجود الجنة والنار .

ألم يكن الرسول ﷺ يعبد الله تعالى حتى تتورم قدماه؟ وقد قيل له لماذا كل هذه العبادة وقد غفر الله تعالى لك ذنبوك كافية: «لِيغْفِرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقْدِمُ مِنْ ذَنْبٍ وَمَا تَأْخُرٌ»<sup>(١)</sup> . فأجابهم الرسول ﷺ: «أَلَا أَكُونْ عَبْدًا شَكُورًا؟!»<sup>(٢)</sup> .

فعبادة الفتنة الاولى اذاً عبادة العبيد ، والفتنة الثانية عبادة التجار ، والفتنة الثالثة عبادة الاحرار<sup>(٣)</sup> ، فالانسان الحر في منطق علي عليه السلام لا صلة له حتى بالجنة والنار ، اي انه حرّ منها ايضاً ولا اتصال له إلا بربه .

ويتبين لنا ما سبق ان الاسلام لا يؤمن بقيمة واحدة ، حيث لديه عين ترى كل شيء . فما قاله الفلاسفة ، كان الاسلام قد قاله قبلهم ، وما رأاه العرفاء ، رأى الاسلام اعظم منه ، وما تحدثت عنه مدرسة الحب ، تحدث الاسلام أوسع منه ، وما رأته مدرسة القوة ، رأاه الاسلام افضل من رؤيتها ، وما قاله المذهب الاشتراكي قال الاسلام افضل منه ، وما شاهده مذهب الحرية ، شاهده الاسلام بشكل اوضح ، اضف إلى هذا كله ان الاسلام قد خلا من كافة نقاط الضعف والسلبيات التي كانت تعاني منها هذه المدارس والمذاهب . فهناك من الادلة الدامغة والواضحة التي تؤكد لنا ان الاسلام ، مدرسة شاملة وكاملة ونظام صادر عن الله تعالى .

أليست كل هذه المدارس التي ذكرناها قد صدرت عن نوابع الدنيا؟ لكننا نراها تتضاءل كافة وتفقد بريقها امام النظام الاسلامي . فالرسول ومهما كان نبوغه - نابعة لم يقرأ ولم يكتب - إلا ان من المستحيل أن يستطيع بفكره أن يأتي بمثل هذا الكلام . فلا بد أن يكون قد استلهمه مما فوق قدرة البشر ، ألا وهي

(١) الفتح / ٢ .

(٢) الكافي ، باب الشکر ، ص ٩٥ ، الحديث ٦ .

(٣) نهج البلاغة ، الحكمة ٢٣٧ .

القدرة الالهية. انه نظام يتغلب على كافة النظم. وي يكن أن نقف على قيمته - كما يجب - من خلال مقارنته بتلك النظم والمذاهب<sup>(١)</sup>.

### خصوصيات الاسلام عقائدياً

من الصعوبة بمكان تناول خصوصيات الاسلام من الناحية العقائدية لاسع نطاق العقيدة الاسلامية سواء كان على صعيد المخصوصيات العامة أو على صعيد خصوصيات كل فرع من فروع هذه العقيدة، ولا بد لنا من اشارة سريعة لذلك امثلاً للقول القائل: «ما لا يدرك كله لا يترك جله»:

... حقوق الفرد وحرি�ته<sup>(٢)</sup>: الاسلام وفي ذات الوقت الذي هو دين اجتماعي يفكر في المجتمع ويعتبر الفرد مسؤولاً فيه؛ إلا انه لا يتجاهل حقوق الفرد وحرি�ته ولا يعده ثانوياً. فللفرد من منظار الاسلام حقوق سياسية واقتصادية وقضائية واجتماعية. ويتمتع سياسياً بحق المشورة والانتخاب، واقتصادياً بحق الملكية، والمعاوضة، والمبادلة، والصدقة، والوقف، والاجارة، والمزارعة، والمضاربة في ما يملك شرعاً. كما يتمتع على الصعيد القضائي بحق اقامة الدعوى، وإحقاق الحق، وحق الشهادة، وعلى الصعيد الاجتماعي بحق انتخاب العمل والمسكن والفرع الدراسي، وعلى صعيد الاسرة بحق انتخاب شريك الحياة.

(١) الانسان الكامل، ص ٣٥٤-٣٥٠.

(٢) ذكر الاستاذ الشهيد في كتاب «الوحى والنبوة» (ص ١١٥-١٢٧) ثلاثة خصوصية عقائدية للإسلام، أشرنا هنا إلى واحدة منها لعدم اتصال البقية ب موضوعنا.



## **الفصل الثالث**

### **الحرية المعنوية**



**التفاوت بين مدرسة الأنبياء والمدارس البشرية في مفهوم الحرية  
... أريد أن أنفرد للحديث عن الحرية المعنوية: ماذا تعني الحرية المعنوية؟  
وهل من الضروري أن يتمتع الناس بها؟<sup>(١)</sup>**

الحرية المعنوية هي نوع آخر من الحرية. والاختلاف بين مدرسة الأنبياء والمدارس البشرية يتمثل في أن الأنبياء قد منحوا الإنسان الحرية المعنوية أيضاً، فضلاً عن الحرية الاجتماعية. والحرية الاجتماعية ليست الحرية المقدسة الوحيدة، وإنما الحرية المعنوية هي الأخرى مقدسة، بل وتفوقها من حيث القيمة والقدسية، ولا تناح الحرية الاجتماعية بدونها ولا تتحرك في ساحة العمل. والمرض الذي يعني منه المجتمع البشري في هذا اليوم هو أنه يسعى لتأمين الحرية الاجتماعية إلا أنه لا يقتفي آثار الحرية المعنوية لأنه ليست لديه القدرة على ذلك، لكون هذه الحرية لا تتحقق إلا عن طريق النبوة، والأنبياء، والدين، والآيات، والكتب السماوية<sup>(٢)</sup>.

فما هي الحرية المعنوية اذاً؟ الإنسان كائن مركب ذو قوى وغرائز مختلفة. في وجوده آلاف القوى القوية كالشهوة، والغضب، والحرص، والطمع، وحب

---

(١) الحرية المعنوية، ص ٢٧.

(٢) الحرية المعنوية، ص ٢٠.

الجاه والرئاسة. ولديه في المقابل: العقل، والفطرة، والوجودان الخلقي. وقد يكون الانسان حراً من حيث المعنى، والباطن، والروح، ويمكن ان يكون عبداً ايضاً، أي من الممكن أن يكون عبداً وأسيراً للجشع والشهوة والغضب وحب الترؤس، ومن الممكن ان يكون متحرراً من هذه القيود، ويقول:

اقول بصرامة وانا مسرور بقولي  
انا اسير حبي ومتتحرر من كلام العالمين

فن الممكن أن نرى انساناً متحرراً اجتماعياً يرفض الخنوع والذلة والعبودية ويحتفظ بحريته في المجتمع، ويحافظ في ذات الوقت بحريته على صعيد الاخلاق والمعنيات، أي يحافظ بحرية عقله وضميره أو ما يعبر عنه في لغة الدين بـ«تركية النفس» و«النقوى».

فهل من الممكن أن يكون لدى الانسان حرية اجتماعية دون أن يتمتع بالحرية المعنوية؟ اي هل يتوقع من انسان أسير الشهوة والغضب والطمع أن يحترم حرية الآخرين؟

ويُجاب عملياً على هذا التساؤل بكلمة نعم، لأنهم يريدون للانسان أن يكون أسير طمعه وشهوته وغضبه ونفسه الأمارة، ثم يطلبون منه أن يحترم الحرية الاجتماعية. وهذا ما ينطبق عليه الشعر القائل:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له اياك اياك أن تبتل بالماء  
انها احدى حالات التناقض التي يعاني منها المجتمع الراهن.

### سبب استلاب الحريات الاجتماعية طوال التاريخ

لم يحترم الانسان الحرية في العصور القديمة وكان ينتهكها. فلماذا كان ينتهكها؟ وهل كان يستلب حرية الآخرين لأنه كان جاهلاً، واليوم لا بد وأن يحترمها لأنه أصبح عالماً ما فيه الكفاية؟ فعلى صعيد الامراض مثلاً، كان الانسان القديم جاهلاً، لهذا حينما كان يواجه تلك الامراض يستعين ببعض

العقاقير الخاصة التي لا تجدي نفعاً. أما اليوم فبامكانه ان يستعين بالادوية والعلاجات الجديدة النافعة. نحن نريد ان نعرف هل سلب الانسان القديم لحرية الآخرين كان بداع من الجهل، أم ان ذلك الجهل لا تأثير له على هذا الصعيد؟ والحقيقة هي ان الجهل والعلم لم يكن لها تأثير على الانسان في تعامله مع الحرية، واما كان يفعل ذلك بايحاء من مصلحته الخاصة. فهل كان الانسان القديم ينتهي حرية وحقوق الآخرين لأن القوانين آنذاك تسير في هذا الاتجاه، وهل بامكاننا ان نغير هذا السلوك من خلال تغيير القانون أو سنّ الانسان نفسه لقوانين جديدة؟ في امريكا - على سبيل المثال - هل الغي الرق بالغاء قانون الرق ام ان شكله تغيير فقط وظل محتواه على حاله؟ وهل كان النط الفكري الفلسفي لدى الانسان هو الذي يقف خلف عدم احترام الانسان القديم لحرية الناس وحقوقهم؟ والاجابة ستكون بالنفي على كل هذه التساؤلات، لأن النفعية هي العامل الوحيد الذي يقف خلف ذلك الاتهام.

كان الانسان القديم وانطلاقاً من طبيعته الفردية نفياً، ومحباً لصالحته الخاصة، ويسعى لاستغلال كل وسيلة لصالحه فقط، وكان يرى في ابناء نوعه وسيلة ايضاً كالوسائل الاخرى مثل الخشب، والحجر، وال الحديد، والاغنام، والابقار، والخيول، والبغال، ويصرّ على استغلالهم لصالحه الذاتية. فحينما كان يزرع شجرة او يقتطعها، كان الشيء الوحيد الذي لم يفكر فيه هو الشجرة نفسها. فقد كان لا يفكر إلا في نفسه. فماذا كان هدفه حينما كان يسمن النعجة ومن ثم يذبحها؟ ليس له من هدف سوى مصلحته فقط. وكذلك الامر حينما كان يستعبد الآخرين ويستغل حقوقهم، حيث يقوم بذلك بداع من حالة النفعية التي لديه. اي ان حس النفعية هو الذي كان يدفعه لاستغلال الحريات الاجتماعية ومصادرتها وانتهاك ما للآخرين من حقوق اجتماعية. فكيف هو حس النفعية لدى الانسان في عصرنا الراهن؟ وهل لديه مثل هذا الحس أم لا؟ نعم لديه هذا الحس ولا يختلف عما كان لديه من قبل. واذا لم يكن فم الانسان

في هذا اليوم مفتوحاً بشكل اكبر من ذي قبل للابتلاء، فهو ليس بأقل. فلا العلم تكن من الوقوف بوجه الاطماع ولا تغيير القوانين. والشيء الوحيد الذي نجح العلم في انجازه هو انه غير شكل القضية واطارها، بينما ظل المحتوى على حاله دون تغيير. انه يغلّف المحتوى القديم بخلاف جديد ويعرضه مزخرفاً. كان الانسان القديم كائناً صريحاً لا يعرف النفاق والتويه. فقد استعبد فرعون الناس بشكل صريح وكان يقول بشكل رسمي: «وَقُومُهَا لَنَا عَابِدُون»<sup>(١)</sup>: فاذا تقول يا موسى؟ انهم عبيدنا. هكذا كان يتحدث بصرامة ولم يكن يغلف الاستعباد بخلاف ما. في حين يمارس الانسان في هذا اليوم وتحت ستار العالم الحر والدفاع عن السلام والحرية، كافة ممارسات استลاب الحرية والحقوق ويقوم بكل اشكال اشكال الاستعباد. لماذا؟ لأنه لا يتمتع بالحرية المعنوية، وأنه ليس حراً في روحه، ولا يتلك التقوى<sup>(٢)</sup>.

### التقوى والحرية

لا بد للمرء حينما يريد الخروج عن نطاق حياته الحيوانية والعيش في اطار الحياة الانسانية، ان يتحرك على ضوء بعض المبادئ المحددة. ولا بد له حينما ينطلق على أساس هذه المبادئ، ان يتحرك في اطارها وأن لا يخرج عن حدود هذا الاطار. ولا بد له أن يصرّ على البقاء ضمن الاطار ويحافظ على نفسه فيه حينما تحفذه بعض محفزات الهوى الآنية على كسر حاجز هذا الاطار. وهذه الحالة التي يحافظ من خلالها على حركته ضمن ذلك الاطار وعدم الانصياع لمحفزات الهوى، هي: «التقوى» ويجب أن لا نتصور ان التقوى هي من خصوصيات التدين والطقوس الدينية كالصلوة والصوم، وانما هي ضرورة انسانية، فالانسان إذا ما أراد الانفلات من قبضة الحياة الحيوانية ونقط حياة

(١) المؤمنون / ٤٧.

(٢) الحرية المعنوية، ص ٢١ و ٢٢.

الغالب، لا بد له من الاتسام بالتفوى. ونرى استخدام اصطلاح التقوى الاجتماعية والتقوى السياسية في يومنا هذا، إلا أن التقوى الدينية لها قدسيّة ورصانة ورفة من نوع آخر. ولا يمكن تحقيق تقوى راسخة وقوية إلا على اساس الدين، ولا يمكن تشييد بناء رصين واساسي يمكن الاعتماد عليه إلا على اساس الایان بالله تعالى ...

﴿أَفَنْ أَسْسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانَ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسْسٍ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَاعَ جَرْفِ هَارِ﴾<sup>(١)</sup>.

فالتفوى سواء كانت دينية الهمة أو غيرها، ضرورية للإنسانية، وتفرض بذاتها عليه التخلّي عن بعض الأمور وتجنبها.

وعلى هذا الضوء ولا سيما وقد عبر أمّة ديننا عن التقوى بالحصن والسور وغيرهما، فمن الممكن أن يتصور بعض من تطبيّع على اسم الحرية ويسمّئ من كل شيء يبعث رائحة المحدودية، ان التقوى هي أحد اعداء الحرية ونوع من الاغلال التي تكبل الإنسان.

### تحديد أُمّ وقاية

ولا بد من أن نوضح هنا ان التقوى ليست تحديداً للإنسان وإنما وقاية له، وهناك فرق بين التحديد والوقاية. وحتى لو أطلقنا على هذه الواقاية اسم التحديد أو المحدودية، فهو تحديد بثابة وقاية.

امثلة على ذلك: الإنسان يقبل على بناء البيوت والغرف والأبواب والنوافذ الحكمة، ويطوّقها بالجدران والأسوار. فلماذا يقوم بذلك؟ للوقاية من لسع برودة الشتاء وغضّ حرارة الصيف، وللاحتفاظ بما لديه من اسباب الحياة في محیط آمن لا يقع إلا تحت تصرفه لا تصرف غيره. وهذا يكشف لنا عن ان الإنسان يطوّق نفسه غالباً بأربعة جدران ويهدها بهذه الحدود. فإذا يكن أن

. ١٢٢ (١) التوبة/.

نسمى عمله هذا؟ فهل يُعد البيت تحديداً للانسان واماً يتعارض مع حريته أم انه وقاية له؟ وكذلك الامر بالنسبة للباسه، فهو يضع في قدميه الحذاء وعلى رأسه القبعة وعلى جسمه الشوب فيحفظ بها اجزاء بدنها من الاوساخ والبرد والحر. فأي اسم يمكن ان نسمى به هذا العمل؟ وهل يمكن تسمية مثل هذه الاعمال الوقائية سجناً وقيداً ونعرب عن الأسف لأن في قدمه حذاء وعلى رأسه قبعة وعلى جسده ثوباً، ونتمنى ان يتحرر منها؟! وهل بامكاننا أن نطلق على البيت تحديداً وتناقضاً مع الحرية؟!

والتفوى للروح مثل البيت للحياة والثوب للبدن. وقد عبر القرآن الكريم عن التقوى باللباس، فقال في الآية ٢٦ من سورة الاعراف: ﴿ولباس التقوى ذلك خيرا﴾.

ولا يمكن اطلاق اسم التحديد على شيء ما إلا اذا حرم هذا الشيء الانسان من موهبة أو سعادة. اما ذلك الامر الذي يدرأ المخطر عن الانسان ويقيه من كل ما يمكن أن يهدده فانما هو وقاية وصيانة، لا تحديد وتقيد. والتقوى هي هكذا بالضبط. وقد اضف الامام علي عليه السلام طابع الصيانة عليها حيناً قال: «الآلا فصونوها وتصوّنوا بها»<sup>(١)</sup>.

وللامام علي عليه السلام كلام اسمى من هذا ايضاً عَدْ فيه التقوى الاهمية عاملأً مهماً من عوامل الحرية وليس مجرد عامل لا يحدد الحرية ولا يجعل دونها. وقد ورد هذا الكلام في الخطبة ٢٢٨ من نهج البلاغة وقال فيه: «فإن تقوى الله مفتاح سداد، وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة، ونجاة من كل هلة، بها ينجح الطالب، وينجو المارد، وتنال الرغائب».

فالتفوى تحرر الانسان بالدرجة الاولى وبشكل مباشر على صعيد الاخلاق والمعنويات، فتحطم عنه اغلال العبودية والهوى والشهوات، وتكسر اصفاد

---

(١) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٩.

الجشع والطمع والحسد والشهوة. كما أنها تلهم الإنسان الحرية على صعيد الحياة الاجتماعية. فالعبوديات الاجتماعية إنما هي من نتائج العبودية المعنوية. فذلك الذي يعبد المنصب والمال والمقام لا يمكن أن يكون حرّاً على الصعيد الاجتماعي. وهذا ما أصدق وصف الإمام علي عليه السلام للتفوي بأنها «عтик من كل ملكة»، أي أنها تقنن الإنسان كافة أنواع الحرية. وهذا يعني أنها ليست قيدها أو عاملًا محدياً، وإنما هي ذات الحرية والتحرر<sup>(١)</sup>.

### برنامج الانبياء

الحرية المعنوية، تعد أعظم برامج الانبياء، وتزكية النفس تعني بالأساس الحرية المعنوية: «قد افلح من زكاها. وقد خاب من دسادها»<sup>(٢)</sup>. والخسارة الكبرى في عصرنا الراهن أن يتحذّلوا عن الحرية دائمًا، إلا أنهم لا يعنون سوى الحرية الاجتماعية. فهم يتلزمون الصمت إزاء الحرية المعنوية، وهذا لا يبلغون حتى الحرية الاجتماعية. وقد حدثت في عصرنا جريمة كبيرة في قالب الفلسفة والأنظمة الفلسفية، وتمثل في تجاهل الإنسان والشخصية الإنسانية وكرامته كإنسان معنوي. أنهم يتتجاهلون الحقيقة التي أشار إليها الله تعالى حول الإنسان بقوله «نفختُ فيه من روحِي». أنهم ينكرون هذه الحقيقة ويقولون أن الإنسان ليس موجوداً من طبقتين: علياً ودنيا، بل أنه لا يختلف بالأساس عن الحيوان، وإنما هو حيوان. والحياة ليست سوى تنازع على البقاء، ولا شيء آخر سوى هذا التنازع. أي أن الحياة ليست سوى سعي الفرد وصراعه من أجل نفسه ومصالحه، لا غير! أتعلمونكم الحق هذا الكلام من اضرار بالبشرية؟! أنهم يقولون أن الحياة ليست سوى حرب وميدان حرب! وهناك كلمة أخرى يتصور البعض أنها صحيحة ومعقولة، تقول: «الحق يؤخذ ولا

(١) عشرة أحاديث، ص ٢٧-٣٠.

(٢) الشمس / ٩ و ١٠.

يُعطى»، في حين ان الحق يؤخذ ويُعطى. فحينما يُقال أن الحق يجب أن يؤخذ ولا يُعطى من قبل أحد، انا يُقال لك من خلاله عليك أن تأخذ الحق لا أن تعطيه، وعلى صاحب الحق أن يأتي ليأخذ الحق منك بالقوة، فإن استطاع أن يأخذ أخذه، وإن لم يستطع، لم يستطع! بينما لم يأت الأنبياء للتحدث بمثل هذه الفكرة، انا قالوا: الحق يُؤخذ ويعطى على حد سواء؛ اي انهم اوصوا المظلوم وصاحب الحق المتهك بالانطلاق لاستعادة حقه، وحملوا الظالم على الانتفاض على نفسه وإعطاء الحق لصاحبها. وقد أفلح الأنبياء في مهمتهم هذه<sup>(١)</sup>.

وللامام علي عليه السلام كلمة قيمة في التقوى مثل سائر كلماته، ينظر إليها البعض على أنها قدية جداً! وهي: «إن تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد وعتق من كل ملكة ونجاة من كل هلكة»<sup>(٢)</sup>. فتقوى الله، مفتاح كل طريق قويم، ولا يمكن للمرء الانطلاق في الطريق القويم بدون أن يكون لديه مفتاح التقوى. انا سيسير بدونها في طريق الضلال. وليس لدى الانسان ما يحمله معه إلى الآخرة بدونها أيضاً، كما ليس لديه الحرية لأنها «عتق من كل ملكة»، اي أنها تعتق الإنسان من كل عبودية.

### الحر الحقيقي

لا بد للإنسان أن يكون حراً في وجوده وروحه كي يكون قادراً على إعطاء الحرية للآخرين. فمن هو الرجل الحر الحقيقي في العالم؟ انه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ومن هم من طرazine، وأولئك الذين تخرجوا من مدرسته، لأنهم تحرروا في بادئ الأمر من عبودية النفس.

وقد قال علي عليه السلام:

(١) الحرية المعنوية، ص ٤٠ و ٤١.

(٢) نهج البلاغة، تحقيق فيض الاسلام، الخطبة ٢٢١.

«أَقْنَعَنِنفسي بِأَنْ يُقالُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ؟»<sup>(١)</sup>.

«وَكَيْفَ أَظْلَمُ احْدَا لِنَفْسٍ يُسْرِعُ إِلَى الْبَلَى قَفُولَهَا وَيَطْوُلُ فِي التَّرَى حَلُولَهَا»<sup>(٢)</sup>.

فذلك الذي هو مثل علي أو يتابع علياً على الأقل، بامكانه ان يكون حرأً وملهماً للحرية. كان عليهما يحاسب نفسه وروحه، ويسمح بيده على لحيته الشريفة في محراب العبادة ويقول: «يا دنيا غري غيري»<sup>(٣)</sup>.

ويطلق هذه الدنيا ثلاثة، ويطرد عنه الصفراء والبيضاء، أي الذهب والفضة. وذلك الذي يحترم حقوق الناس وحربيتهم عن حقيقة لاعن نفاق، انا ينطلق في ضميره نداء سماوي يدعوه لذلك. ولا شك في ان شخصاً لديه مثل هذه التقوى وهذه المعنوية وهذا الخوف من الله، حينما يصبح حاكماً على الناس والناس محكومين له، فالشيء الوحيد الذي لا يشعر به هو: انه حاكم والناس محكومون.

فالناس وانطلاقاً من خلفياتهم الذهنية أخذوا يتحفظون منه، فقال لهم: «ولا تحفظوا مني بما يتحفظ به عند اهل البدرة». فحينها كان ذاهباً إلى حرب صفين أو حينما كان عائداً منها، مر بمدينة الانبار - وهي مدينة عراقية في الوقت الراهن وكانت مدينة ايرانية من قبل - فخرج الايرانيون الذين كانوا فيها لاستقباله وهم يعتقدون انه خليفة السلاطين الساسانيين، لهذا ما أن وصلوا اليه حتى أخذوا يهرون امام موكيه. فنادى عليهم الامام عليهما سلام عن سبب ذلك. فأخبروه ان هذا العمل تعبير عن الاحترام، وقد كانوا يقومون به لسلاطينهم وامراههم. فعندهم عليهما سلام من ذلك وأخبرهم ان هذا العمل يذلكم. فلماذا تذلون انفسكم امامي وانا خلبيتكم؟ فأنا واحد منكم لا اختلف عنكم.

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الكتاب ٤٥.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ٢١٥.

(٣) المصدر السابق، الحكمة ٧٤.

هذا فضلاً عن انكم تسيئون الى بهذا العمل ولا تحسنون، فقد يداخلي الغرور  
لا سمح الله فأتصور اني افضل منكم.

فالرجل الحر هو ذلك الذي يتمتع بالحرية المعنوية، وأقبل على النداء  
القرآنی «أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ»، فلم يعبد غير الله احداً. فعليينا ان لا نعبد احداً  
إِلَّا الله، ولا نعبد اي احد او قوة او شيء غيره، لا نعبد الانسان، ولا الحجر،  
ولا المدر، ولا السماء، ولا الارض، ولا هوى النفس، ولا الغضب، ولا  
الشهوة، ولا الطمع، ولا حب الرئاسة، انا نعبد الله فقط، وحييندز سيمنٌ علينا  
بالحرية المعنوية.

وللامام علي عليه السلام خطبة طويلة في حقوق الوالي على الرعية وحقوق الرعية  
على الوالي، في ودي أن اعرض عليكم مقاطع منها كي تعرفوا من هو الحر  
ال حقيقي وما هي الروح التي يحملها. وهل بامكانكم أن تجدوا شخصاً بمثل هذه  
الروح في العالم؟ إذا وجدتم فأخبروني من هو؟

بحث الامام في هذه الخطبة بعض القضايا وتحدث بعض الكلمات. فانظروا  
من هو الذي تحدث بهذه الكلمات؟ ان الوالي والحاكم هو الذي تحدث بها.  
ونحن نجد في عالمنا المعاصر ان اقصى ما يمكن أن يقوله الآخرون للناس: لا  
تكونوا مع حكامكم بهذا الشكل، كونوا احراراً. في حين يقول علي عليه السلام: «لا  
تكلموني بما تُكَلِّمُ به الجبارية». اي لا تستخدموا معي تلك المفردات  
والاصطلاحات التي كنتم تستخدمونها مع الجبارية والتي تذلون بها انفسكم  
وترفعونه إلى العرش.

وضع الفكر تسعة كراسی سماوية  
كي يقبل رکاب قزل ارسلان

لا تخاطبني بمثل هذه اللغة ابداً، فخاطبني بنفس الكلمات التي تخاطبون  
بها الآخرين. ويؤكد عليهم أيضاً: «ولا تتحفظوا مني بما يُتحفظ به عند اهل  
البادرة»، اذا ما رأيتمني غضباً في يوم ما أو مستاء وأطلقتك كلاماً فيه شيء

من الحدة، فلا يهزنكم ذلك، وانتقدوني انتقاد الرجال. وقال لهم ايضاً: «ولا تخاططوني بالمصانعة». اي لا تتعاملوا معي في اطار المداهنة فتقولوا لكل ما اقول نعم ولكل ما اعمل صحيح. «ولا تظنوا بي استشقلاً في حق قيل لي». اي لا تتصوروا اني أستاء او أزعج من كلمة الحق التي تفضون بها الي، وانتقدوني انتقاداً قائماً على الحق، فذلك لا يغطياني ابداً وانما سأفتح لسماعه صدري. «ولا الناس إعظام لنفسي»، اي لا تتصوروا اني احب أن أعظم انطلاقاً من كوني خليفة وكونكم رعية، ابداً، فأنا امكت التلقي والمدح.

ويعرض الامام علي عليه السلام في آخر المطاف قاعدة عامة يقول فيها: «فانه من استنزل الحق ان يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه».

### عدم رباطة جأش انوشیروان

يقول كريستان سان: استدعى انوشیروان بعض رجاله للتشاور معهم في قضية ما. وقد أبدى وجهة نظره في تلك القضية وسأل الآخرين أن يبدوا وجهات نظرهم ايضاً فقالوا: الرأي ما رأيت. غير ان احد الكتاب المؤسأ انطلق عليه الامر وتصور انهم قد دعوا للإشارة حقاً فقال: لو سمحتم لي بابداء وجهة نظري. ثم عبر عن وجهة نظره وأشار من خلالها إلى بعض مساوئ رأي انوشیروان. فغضب انوشیروان وقال له: ايهما الواقع! ايهما الصلف! ثم امر بعد ذلك بمعاقبته، فأخذوا يضربون رأسه بالمقاييس حتى مات.

وهنا يتبيّن لنا مدى صدق عبارة الامام علي عليه السلام السابقة والتي تؤكّد صعوبة وثقل العمل بالحق من قبل أولئك الذين يستنزلون سماع كلمة الحق. ويوصي الامام في آخر خطبته الناس: «فلا تكفووا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل»<sup>(١)</sup>.

فالامام علي عليه السلام غوج كامل للرجل الحر على الصعيد المعنوي، والذي

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الخطبة ٢٠٧، ص ٦٨٦.

ينح الحرية الاجتماعية للآخرين وهو يشغل منصب الحاكم<sup>(١)</sup>.

## الزهد ومقتضيات الزمان

هناك قضية أخرى لا بد من تناولها من وجهة النظر الإسلامية، وهي قضية الزهد من حيث الاقتضاء الزماني. أي ان الاذمنة مختلف وتتغير، وقد يعيش المرء في زمان حياة الزهد والتقشف، وفي زمان آخر حياة أخرى. فلو درسنا حياة الرسول ﷺ والامام علي عليهما السلام لوجدناها مختلف قليلاً عن حياة الامامين الباقي عليهما السلام والصادق عليهما السلام على سبيل المثال. اي ان حياة الرسول الراكم ﷺ والامام علي عليهما السلام كانت اكثر زهداً وبساطة من حياة الائمة الذين جاؤوا من بعدهما، كالباقر والصادق والكاظم والرضا، وحتى من حياة الامام الحسن المجتبى عليهما السلام.

فلم إذا هذا التفاوت؟ وقد اجاب الامام الصادق بشكل صريح على هذا السؤال.

في النصف الثاني من القرن الثاني دخل رجل متصوف على الامام الصادق عليهما السلام فرأه يرتدي ثوباً جميلاً وانياً فقال له: كيف ترتدي يابن رسول الله مثل هذا الثوب الانيق؟

فأمره أن يجلس ويسمع لما يقول. فقد يكون هذا المتصوف مخطئاً ولا بد في هذه الحالة من تفهيمه خطأه، وقد يريد بكلامه هذا ان يخدع الآخرين.

وتحدث الامام معه بهذا الشأن ولم يكن لديه جواب. ثم خرج الرجل وجاء ب أصحابه وهم يعبرون عن احتجاجهم على ارتداء الامام للثياب الفاخرة ايضاً. وتتلخص اجابة الامام لهم: ربما يراود اذهانكم سؤال هو اذا كان ارتداء الثوب الانيق امراً محسوماً، فلماذا لم يرتد الرسول ﷺ والامام علي عليهما السلام مثل هذا الثوب، واذا كان امراً مذموماً فلماذا ترتديه انت؟ فقالوا له: نعم، نحن نقول

(١) الحرية المعنوية، ص ٢٣-٢٥.

هذا. فقال: انتم لا تدركون مقتضيات الزمان. والاسلام لا يعد ارتداء اللباس الجيد ذنبًا. فالاسلام يرى ان الله قد خلق نعم الدنيا كي تستفيد منها ولم يخلقها كي تقصيها عنا. وقد تُلي بعض الظروف وانطلاقاً من فلسفة خاصة ان نصرف النظر عن هذه النعم. كأن يعيش الناس في ظل ظروف حياتية صعبة ووضع اقتصادي رديء وحيثئذ لا يجب علينا ان نظهر بمستوى حياتي جيد حتى لو سمحت لنا إمكانياتنا الشخصية بذلك. لانا لو ظهرنا بهذه المنسى لكان هذا جفاءً بحق اخوتنا والآخرين وعدم تعاطف معهم. اما اذا كان الوضع الاجتماعي العام جيداً، فليس هناك مبرر في الانصراف عن لبس اللباس الجيد.

وأكَدَ الامام الصادق خلال حديثه على ان الرسول ﷺ والامام علي عليهما السلام كانوا يعيشان في زمان إفتقار وافتقار. فكان الرسول يعيش في مدينة يسكنها اصحاب الصفة الذين كانوا في منتهى الفقر والفاقة، وتعيش في حالة حرب. فالبلد الذي يعيش حرباً مع بلد آخر والمدينة التي تخوض حرباً مع مدينة اخرى، من الطبيعي ان تعاني من ضائقه اقتصادية، سيا اذا رافق ذلك الجفاف والقحط. وكانت المدينة المنورة تمر بهذه الظروف احياناً، كانت الظروف من الصعوبة في ذلك الزمن بحيث لم يكن لدى اصحاب الصفة لباس يرتدونه كي يأتوا به إلى الصلاة في المسجد، وكانوا يتناوبون لباساً واحداً اثناء الصلاة، أي يلبسه احدهم فيصل اليه، ثم يعطيه للآخر فيصل اليه ايضاً وهكذا. وفي مثل هذه الظروف ليس من الصحيح للمؤمن ارتداء الثوب الانيق حتى ولو كان من ماله. واصحاب الصفة هم جماعة من صحابة الرسول ﷺ قدمو من بلاد الغربية فأسكنهم الرسول في المسجد بادئ ذي بدء ثم في جوار المسجد.

وفي مثل هذه الظروف دخل الرسول ﷺ يوماً بيت بنته فاطمة الزهراء عليها السلام فوجد في يدها سواراً من الفضة وعلى الباب ستاراً مرقاشاً. فكرّ الرسول راجعاً معرجاً عن اعتراضه على ذلك. وكانت الزهراء تعرف طبيعة

والدها الكريم، فانتزعت السوار من معصمه فوراً واقتلت السtar وبعثت بها إليه كي ينفقها فيما يراه. فأمر ان تخطأ عدة ثياب من ذلك الستار لأهل الصفة. وهذا يعني ان الظروف حينها تكون بهذا الشكل، تكون الممارسة شيئاً آخر.

ولهذا تلخصت اجابة الامام الصادق للمعتبرين في اني لا اعيش اليوم في نفس الظروف التي كان يعيش فيها الرسول ﷺ . فلو عشت في مثل هذه الظروف للبست مثل لباسه. ولو كان الرسول ﷺ يعيش في زمانــ وهو زمان تحسنت فيه اوضاع الناســ للبس كما ألبســ . ويعدــ هذا احد بواتــ الزهد<sup>(١)</sup>.

### الزهد والحرية

والباعث الآخر على الزهد هو الحرية والتحرر، فهناك علاقة قديمة ووثيقة بين الزهد والحرية.

فالحاجة معيار «الطبع التعليبي»، والاستغناء معيار «التحررية». فاحرار العالم تشكل الخفة والرشاقة وقابلية الحركة والتحليل اسمى تطلعاتهم، وهذا اختاروا الزهد والقناعة من اجل تقليل حاجاتهمــ . ولا شك في انهم كلما قلّصوا هذه الحاجات وقللوا منهاــ ، كلما ازداد تحررهم من اغلال عبودية الاشياء والاشخاصــ .

فحياة الانسانــ ومثل حياة اي كائن حي آخرــ خاضعة لسلسلة من العوامل الطبيعية والضرورية التي لا يمكن الانفلات منهاــ ، كالماء للتنفســ ، والارض للسكنــ ، والخبز لسد الجوعــ ، والماء للارتواءــ ، واللباس لستر الجسمــ . فليس بامكان الانسانــ أن يحرر نفسه من قيد هذه الامورــ وسلسلة من الامورــ الاخرى كالضوء والحرارةــ ، أو ان يكونــ «مكتفياً بذاتهــ » على حد تعبير الحكماءــ .

(١) الحق والباطل، ص ١٦٧-١٧١.

غير ان هناك سلسلة اخرى من الحاجات التي لا تُعد طبيعية ولا ضرورية، والتي تفرض عليه طوال حياته بواسطة انسان آخر أو عن طريق العوامل التاريخية والاجتماعية، فتعمل على تحديد حريته اكثر مما هي عليه.

فالامور الجبرية أو المفروضة كالمفروضات السياسية، ليست ذات خطورة كبيرة ما دامت لم تتحول إلى حاجة باطنية. في حين أن اخطرها، تلك التي تتحول إلى حاجة باطنية، حيث تكبل الانسان من باطنه بأغلالها.

وآلية هذه الحاجات التي تقود إلى ضعف الانسان وعجزه تتلخص في: الانسان ومن اجل ان يضفي طابع الانتعاش والصفاء على حياته، يقبل على التنعم والتجمل. ولكي يكون اكثر قوة وقدرة وذا وضع حياتي ممتاز، ينبغي لاملاك الاشياء. وهذا ما يدفعه للاعتياد على وسائل التنعم أو اسباب القوة هذه، وينجذب اليها من خلال خيوط غير مرئية فيصبح عاجزاً وذليلاً امامها. اي ان تلك الاشياء التي اراد ان يطبع بها حياته بطابع الجمال والانتعاش، قد انتزعت الجمال من شخصيته؛ وتلك الاشياء التي اراد بها اكتساب القوة، انتزعت القوة من نفسه وأصابته بالضعف، فأصبح عبداً لها واسيراً بيدها.

نزعـةـالـانـسـانـنـحـوـالـزـهـدـ،ـتـنـيـعـمـنـطـبـيـعـتـهـالتـحرـرـيـةـ.ـفـهـوـيـمـيلـفـطـرـيـاـنـحـوـالـامـتـلـاكـوـالـاسـتـفـادـةـمـنـالـاشـيـاءـ.ـإـلـاـانـهـحـيـنـاـيـرـىـانـهـهـذـاـاـشـيـاءـتـنـالـمـنـقـوـةـبـاـطـنـهـوـتـصـيـبـهـبـالـضـعـفـوـتـجـرـهـإـلـىـعـبـوـدـيـتـهـبـعـقـدـارـقـوـةـتـيـتـضـفـيـهـعـلـيـهـفـيـخـارـجـ،ـيـضـطـرـإـلـىـتـرـدـعـلـيـهـ.ـوـهـذـاـتـرـدـهـوـ«ـالـزـهـدـ»ـ.

وتتحدث العرفة والشعراء عن الحرية كثيراً. فحافظ يرى نفسه «عبدأً لذلك الذي تحرر تحت هذا الفلك الازرق من كل لون». كما لا يغبط من بين كافة الاشجار سوى شجرة السرو لأنها «تحررت من ثقل الأسى». ويريد العرفة والشعراء بالحرية، التحرر من قيد التعلق القلبي.

إلا ان الحرية بحاجة إلى شيء اكبر من عدم التعلق القلبي. فالخيوط التي تربط الانسان وتخلق منه كائناً ذليلاً وضعيفاً وعاجزاً، ليست صادرة عن

القلب وال العلاقات القلبية فحسب لأن التطبع الجسمي والنفسي على العوامل الاضافية والصناعية التي ظهرت في بادئ الامر لاضفاء الجمال على الحياة أو للحصول على مزيد من القوة، ثم تحولت إلى شكل من اشكال الادمان، تُعد خيوطاً أقوى لأسر الانسان واستعباده رغم انها ليست مما يتعلّق القلب بها بل وقد يتعرض منها، وهذا تصيب الانسان بالذلة والضعف اكثر من التعلقات القلبية<sup>(١)</sup>.

### فلسفة البساطة في حياة القادة

كانت حياة الانبياء العظام وكبار قادة المجتمع، حياة بسيطة دائمةً، لأنهم لو كانت لديهم حياة تنقلها الكماليات وال Zukrashat - وإن كانت حلالاً ومحبحة - لكان عليهم أن ينفضوا أيديهم عن القيادة. فلا انسجام بين مثل هذه الحياة وبين القيادة التي لا بد لها من أن تتسم باللطفة والحركة والحرية.

ونحن نقرأ في سيرة المصطفى محمد ﷺ: «كان رسول الله خفيف المؤونة»<sup>(٢)</sup>. فأول شيء يلفت الانتباه في سيرته اذاً هو انه كان بسيطاً في طعامه ولباسه وجلوسه ونهوضه وسفره.

### القيود والاغلال

هذه القيود والكماليات التي يصنعها الانسان لنفسه، تلعب دوراً كبيراً في عدم تطوره وتخلله. فالانسان الذي يصطعن لنفسه العظمة، فلا بد أن تسحقه تلك العظمة تحت وطأتها. وللتقرير الفكرة هذه اقول هب اني خطر بيالي يوماً زيارة مشهد المقدسة، إلا اني الذي اعاني من الحالة السابقة كيف يمكنني أن أزورها بهذه البساطة سيا وأنا - مثلاً - رجل الدين المعروف الكبير، أو حجة الاسلام، أو آية الله الفلاني. فلا بد لي أن افكر وقبل كل شيء كيف أرد هذه

(١) جولة في نهج البلاغة، ص ٢٣١-٢٣٣.

(٢) ارشاد القلوب، الديلمي، ج ١، ص ١١٥.

المدينة؟ وأين أذهب فيها؟ وكيف سيزورني الناس هناك؟ ثم اضيف إلى ذلك العديد من الشروط والمتطلبات، حتى أجد نفسي آخر المطاف عاجزاً عن القيام بمثل هذه الزيارة!

فقد يمر على اناس من هذا النوع عمر كامل دون ان يفلحوا في القيام بأسقط الاسفار وأوجبها، كحج البيت الحرام. ومثل هذا الانسان لا يمكنه ان يتحرك برشاقة وخفة. بينما كان يتمتع الرسول بحياة خفيفة للغاية. فلو لم تكن حياته خفيفة لما نجح في قيادة مجتمعه، كان يصوم، لكن هل كان يفطر مثلنا؟ وهل كان يحتم أن تكون إلى جانبه غلاية يغلي فيها الماء (الاعداد الشاي)؟ لم يكن أي فارق لديه بين اليوم الذي يصوم فيه واليوم الذي يفطر فيه. بل انه كان يأتي إلى داره بعد صلاة العشاء أو بعد مرور ساعة ونصف على الليل. ويقول خادمه أنس بن مالك غالباً ما كان طعامه صلوة العشاء جفنة لب وقرص خبز. وحينما كان يدخل البيت، كان يتناول مثل هذا الطعام البسيط ثم يزاول اعماله. كان يأكل القليل وهذا يشعر بالاستراحة بعد ساعتين من النوم فقط. وينصرف إلى العبادة بعد النهوض من النوم حتى ان القرآن اشار إلى انه قد يسهر ثلثي الليل احياناً.

وحياناً نزل القرآن، نزل في الموضع الذي كان الناس يشاهدون فيه الرسول صلوة العشاء عن كثب. ولو لم يكن الامر هكذا لرفع العدو عقيرته بالاعتراض وما كان بامكان حتى الصديق ان يصدق ولقال: نحن لم نشاهد الرسول يقظاً فلماذا يقول القرآن هكذا؟

فهذا الرسول الذي شهد له القرآن ادنى من ثلث الليل واحياناً نصفه واحياناً ثلثيه، والذي لا يعرف الاستراحة منذ الفجر وحتى آخر الليل، كان «خفيف المؤونة». وهناك بيت شعري لشاعر فارسي يدعى اثير الدين الاخسيكي، يقول:

إخلع لباسك في بحر الحوادث فالعربي هو الشرط الاول للسباحة فالانسان لا يستطيع بلباسه الثقيل - لا سيما اذا كان يرتدي القباء والعباء

والعَمَّامَةُ وَغَيْرُهَا - أَن يسبحُ فِي النَّهْرِ، وَمِنَ الْمُكْنَنِ أَن يدفعُ بِهِ هَذَا الْلِبَاسُ الثَّقِيلُ إِلَى الغَرقِ. وَالرَّجُلُ الَّذِي لَا يرِيدُ أَن يخوضُ بِهِ الْمَوَادِيثُ وَأَنَا يرِيدُ أَن يعيشَ عَلَى هَامِشِ الْجَمَعَةِ لَا فِي بَطْنِهِ، وَلَا يَسْعَى لِتَغْيِيرِ هَذَا الْجَمَعَةِ، بِاِمْكَانِهِ أَن يرْتديَ مَا يَحْلُوُ لَهُ مِن رِداءٍ. إِلَّا أَن ذَلِكَ الَّذِي يرِيدُ خَوْضَ اِمْوَاجِ الْبَحْرِ الْاجْتَمَاعِيِّ فَلَا بدَ لَهُ أَن يَخْلُعَ لِبَاسَهُ قَبْلَ أَن يَلْقَى بِنَفْسِهِ فِي الْبَحْرِ. فَلَا يَكُن دُخُولُ بَحْرِ الْجَمَعَةِ وَقِيَادَتِهِ بِالْعَلَاقَاتِ الْكَثِيرَةِ.

فَكِيفَ كَانَ عَلَيْهِ طَلَبَلًا يَعِيشُ؟ فَقَدْ وَصَفَ حَيَاةَ الْأَنْبِيَاءِ الْعَظَامَ بِالْبَسَاطَةِ فِي خَطْبَةِ مَعْرُوفَةٍ لَهُ، حَتَّى أَوْلَئِكَ الْأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ تَمَتَّعُوا بِالْمُلْكِ وَالْحُكْمِ مُثْلِ دَاؤِدَ وَسَلِيَّانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. فَكَانَ دَاؤِدَ يَصْنَعُ الدَّرُوْعَ وَيَبْيَعُهَا فِي السَّوقِ فَيَعِيشُ عَلَيْهَا. وَوَصَفَ عِيسَى طَلَبَلًا بِأَنَّهُ: «دَابَّتِهِ رَجَلَاهُ»<sup>(١)</sup>، أَيْ أَنْ حَيَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْبَسَاطَةِ بِحِيثُ لَمْ تَكُنْ لَدِيهِ دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا وَأَنَا كَانَ يَسْتَخْدِمُ قَدْمَيْهِ هَذَا الْغَرَضُ. كَمَا وَصَفَهُ: «سَرَاجُهُ بِاللَّيلِ الْقَمَرُ»<sup>(٢)</sup>. فَلَمْ يَكُنْ عِيسَى طَلَبَلًا إِذَا لَا أَسِيرُ الدَّابَّةَ وَلَا أَسِيرُ السَّرَاجَ. وَهَكُذا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ كَافَةً، عَاشُوا حَيَاتَهُمْ بِهَذِهِ الْبَسَاطَةِ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُتَاحَ لَهُمْ قِيَادَةُ مجَمِعِهِمْ وَهَدَايَتِهِ.

فَثُلِّ هَذَا الرَّزْهَدُ، زَهَدٌ يَقُومُ عَلَى فَلْسَفَةٍ وَيَنْطَلِقُ مِنْ بَوَاعِثٍ خَاصَّةٍ. أَمَا ذَلِكَ الرَّزْهَدُ الَّذِي يَقُومُ عَلَى اسْسَاسِ الْإِعْتِقَادِ بِوُجُودِ تَعَارُضٍ بَيْنَ لَذَّةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَوْ بَيْنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ فَهُوَ تَصُورٌ خَاطِئٌ وَزَهَدٌ مَيِّتٌ، فِي حِينَ أَنْ اِنْفَاطَ الرَّزْهَدُ الَّتِي اشْرَنَا إِلَيْهَا تَصْدِرُ عَنْ زَهَدٍ يَنْبَضُ بِالْحَيَاةِ<sup>(٣)</sup>.

#### حرية على (ع)

رجل العالم الحر علي بن أبي طالب طَلَبَلًا، كان حرًا بِتَامِ معنى الحرية لانه كان زاهداً بِتَامِ معنى الزهد. وقد اعتمد في «نهج البلاغة» شعار ترك الدنيا - اي

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الخطبة ١٥٩، ص ٥٠٧ و ٥٠٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الحق والباطل، ص ١٦٣ - ١٦٦.

ترك النزعة التلذذية - كمنحي تحرري.

فقال في احدى كلماته القصار:

«الطعم رق مؤبد»<sup>(١)</sup>.

ووصف الزهد الذي كان عليه عيسى بن مريم فقال:

«ولا طمع يذله»<sup>(٢)</sup>.

وقال في موضع آخر:

«الدنيا دار ممر لا دار مقر والناس فيها رجالن رجل باع فيها نفسه فأوبقها ورجل اشتري نفسه فأعتقها»<sup>(٣)</sup>.

ويُعد كتابه الذي بعثه إلى عثمان بن حنيف أكثر وضوحاً في موقفه من الدنيا ولذاتها. فقد خاطب في المقطع الأخير من هذا الكتاب الدنيا وكأنها كائن ذو شعور، فأماط لها اللثام عن الزهد وفلسفته ترك تلذذية الدنيا:

«إليكِ عني يا دنيا فحبلكِ على غاربكِ، قد انسليتُ من مخالبكِ، وافلتَ من حبائلكِ ...».

كما قال فيه مخاطباً الدنيا أيضاً:

«اعزبي عني فوالله لا أذل لكِ فستنزليني ولا اسلس لكِ فتقوديني ...». نعم، ان زهد علي، تمرد على الذلة امام اللذات، وثورة على الضعف امام جموح الرغبات، وانتفاضة على عبودية الدنيا ولذاتها<sup>(٤)</sup>.

### الزهد لادراك اللذات المعنوية

والفلسفة الاخرى للزهد هي ان الانسان اذا غرق في اللذات المادية (بما فيها

(١) الكلمات القصار، الكلمة ١٨٠.

(٢) الخطبة ١٥٨.

(٣) الكلمات القصار، الكلمة ١٣٣.

(٤) جولة في نهج البلاغة، ص ٢٣٧ و ٢٣٨.

اللذات الحلال)، حُرم من اللذات المعنوية في هذه الدنيا.

فهناك سلسلة من اللذات المعنوية التي ترتفع بالمعنويات وتسامي بها. فن هو من اهل التهجد وصلة الليل، ومن هو من الصادقين والصابرين والمستغرين بالاسحاق، يتلذذ بصلة الليل وتغمره بأدائها البهجة. فاللذة التي يستشعرها المصلي الحقيقي حين قيامه بصلة الليل، وحين يردد «استغفر الله واتوب اليه» و«الغفو» وحين يدعو ويستغفر لاربعين مؤمناً على الاقل، وحين يقول «يا رب يا رب»، لا تضاهيها اللذة التي يستشعرها ذلك الشهواي في الملهي ابداً. فلذة تلك الصلاة عند ذلك المصلي أعمق وأبعث على القوة والنشاط والبهجة. أما إذا أغرقنا انفسنا في اللذائذ المادية وأخذنا نجتمع إلى بعضنا ليلاً - على سبيل المثال - ونغرق في الحديث والضحك - مع افتراض عدم اغتيابنا لأحد لحرمة الغيبة - ونلاحق المزاح المباح، ثم غد الخوان ونشرع في الاكل بدون حساب، حتى اذا بلغ العادة - على حد تعبير بعض الطلبة - وضاق علينا النفس، شعرنا بالانهاك الفكري والجسمي، ولم يعد في مقدورنا سوى الارقاء على سرير النوم كالموتى، وهل سنفلح حينئذ في الاستيقاظ في السحر وقبل طلوع الصباح ساعتين كي نهتف من اعماق ارواحنا «يا رب يا رب»؟ اننا لن نستيقظ عادة، واذا استيقظنا فسنترنّح كالسكارى.

ولو اراد الانسان ادراك اللذات المعنوية والالهية في هذه الدنيا فليس امامه من سبيل سوى تقليل لذاته المادية والجسمية. فعلى حينما كان يهتّ مستيقظاً عند السحر، كان يبدو في حالة عجيبة. وحينما كان يسقط بصره على السماء المكتظة بالنجوم، يقرأ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّا وَلِي  
الْأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقَعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ  
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبُّنَا مَا خَلَقَ هَذَا بَاطِلٌ سَبَّحَنَكَ فَقَنَا عِذَابَ النَّارِ﴾<sup>(۱)</sup>.

(۱) آل عمران / ۱۹۰.

تاله ان اللذة التي يستشعرها المؤمن في ذلك الوقت من الليل الذي ينهض فيه، ويرمق بطرفه السماء، ويتوه هذه الآيات التي هي صوت الوجود وتنطلق من قلب الوجود، ويصبح صوتاً واحداً مع الوجود، لتساوي كل العمر المادي في هذه الدنيا. ولا ريب في ان مثل هذا الشخص ليس بامكانه أن يعيش كما نعيش نحن. فليس بامكانه الجلوس على مائدة العشاء مثنا ويتناول شيئاً من الحساء لتحریک اشتئانه بعد أن عب في بطنه ظهراً وجبة طعام ثقيلة تضم انواع اللحوم والسمن الحيواني والنباتي وأنواع الحلويات والمعجنات فضلاً عن الاغذيه الحفزة على الاشتئاء! فالنفس التي يتناول صاحبها كل هذه الاطعمة، تقوت شيئاً فشيئاً، وليس بامكان صاحب هذه النفس النهوض في انصاف الليالي، واذا نهض فليس بقدوره أن يتلذذ بعبادته.

فشل هؤلاء الذين تميزوا بهذه التوفيقات الالهية - ورأينا مثل هؤلاء - لا يعيرون اهتماماً للذات المادية التي تتشبث نحن بها. وهل هناك مانع أن أذكر أبي الجليل بخير؟ فإلى حد ما تسعفي ذاكرتي ومنذ اربعين عاماً على الأقل كنت أراه - ولا زلت - وهو يصر على الخلود إلى النوم بعد مرور ثلاث ساعات من الليل ولم يغير هذا الموعد أبداً. فكان يتناول طعام العشاء في مطلع الليل ثم يأوي إلى الفراش بعد مضي ثلاثة ساعات من الليل، ويستيقظ قبل ساعتين على الأقل من طلوع الفجر، في حين يستيقظ في أيام الجمع قبل ثلاثة ساعات من الطلوع. فيقرأ جزءاً من القرآن ويصلِّي صلاة الليل باطمئنان وسكون. والليوم وقد بلغ مائة عام من العمر، لم أجده وقد نام نوماً مضطرباً، بل لا زال بنفس تلك اللذة المعنوية التي حفظته بهذا الشكل. ولا تمر عليه ليلة إلا ويدعو فيها لأبيه وأمه. كما لا تمر عليه ليلة إلا ويدعو فيها لزوجة أبيه التي كان يكنّ لها الود ويقول بأنها كانت تحن عليه كثيراً. كما لا تمر عليه ليلة إلا ويدعو فيها لأقربائه وذوي الحق عليه وذوي الرحم البعيدين والقريبين. ففشل هذه الاعمال هي التي تحبب القلب. ومن أراد أن يحظى بمثل هذه اللذة، فلا بد له ان يقلص

من لذاته المادية كي يبلغ هذه اللذة الالهية المعنوية الاعمق<sup>(١)</sup>.

### زهد غاندي

غاندي هذا الرجل الهندوسي، حينما أراد قيادة الهند وانقاذ اربعين مليون هندي من مخالب الاستعمار، لم تكن لديه حيلة سوى سلوك طريق الأنبياء. فاختار لنفسه حياة بسيطة، فكان يضع على كتفه قطعة قماش متواضعة ويأثر بئزر بسيط ولم يكن لديه من الثروة سوى معزى واحدة، وكان يقول: أنا استطيع بهذه أن أعيش.

فما هي فلسفة زهده؟ كان يعيش في اعماق المجتمع ويتطلع إلى انقاذه من براثن الاستعمار من جهة، وكان يعيش حياة زاهدة متقشفة من جهة أخرى، ويحاطب الشعب الهندي انك اذا اردت التحرر من براثن الاستعمار فلا بد أن تكون زاهداً. اي أن عليك ان تتخذ البساطة في العيش كي تكون حراً. وإذا ما اردت ان تختر الحياة المرفهة فاختر، إلا انك لا تستطيع ان تكون حراً ما لم تحطم القيود التي صنعتها لنفسك. وهذا هو نوع آخر من الزهد الذي يهدف إلى الحرية والتحرر<sup>(٢)</sup>.

### شرط الحرية

هناك رباعي منسوب للإمام علي عليه السلام ورد في الديوان المعروف يقول:

كُدَّ كد العبد إن احببت ان تصبح حرا  
واقطع الآمال من مالبني آدم طررا  
لا تقل ذا مكسب يُزري فقد الناس ازري  
انت ما استغنيت عن غيرك، اعلى الناس قدرا

(١) الحق والباطل، ص ١٧٢-١٧٤.

(٢) الحق والباطل، ص ١٦٧.

انه يقول: اذا اردت ان تعيش حياة حرفة فاعمل بشقة كالعبد، وأغمض عينك عمّا في ايدي الناس مهما كانوا حتى ولو كان احدهم كريعاً كحاتم الطائي. فهو لم يقل اغمض عين الطمع عن ثروة الدنيا فقط، وانما حتى عن ثروة الكريم مهما كان كرمه. كما يقول ان البعض حينما تُقترح عليهم بعض الاعمال يتبررون منها بحجج انها دون شأنهم وانها اعمال وضعية. فإن قلت لاحدهم: اشتغل عاملاً، اعمل بالحرفة، اعمل حمالاً، يقول لك: كلا، انه عمل وضعية، في حين يقول الامام علي عليه السلام اذا كنت ترى مثل هذه الاعمال وضعية، فان مدّ يد الطمع إلى الآخرين أوضع منه، وليس هناك أزرى من أن تقصد غيرك كي تأخذ منه. في حين ان استغناءك عن الناس يجعلك أعلى منهم شأناً وأرفع منهم منزلة.

اعتقد ان للجاحظ او لغيره من علماء السنة ومن اهل الادب كلاماً في الامام علي عليه السلام . وكان الجاحظ رجلاً بلبيغاً إلى حد بعيد ورجل كلام حقاً، وكان يشمن كلام علي عليه السلام كثيراً ويحترمه بما يفوق الحد. وكلامه في الامام هو ان على تسع كلمات لا مثيل لها. وهناك ثلات كلمات من بين هذه الكلمات التسع، تتصل بموضوع بحثنا وهي:

«احتاج إلى من شئت تكن أسيره،

إستغن عن من شئت تكن نظيره،

أحسن إلى من شئت تكن أميره»<sup>(١)</sup>.

اي انك اذا اردت أن تحتاج لأي أحد فاحتاج اليه، لكن عليك أن تعلم لو احتجت إلى أحد ما فقد أصبحت عبداً له. أي ان الحاجة إلى الآخرين، نوع من العبودية والاسر. لكن أية عبودية؟ هل هي عبودية الجسم؟ كلا، بل عبودية الروح: عبودية معنوية.

---

(١) غر الحكم، طبعة جامعة طهران، ج ٢، ص ٥٨٤

وما اروع كلام الامام هذا. إلا أننا نرى وللاسف قلة تناول مثل هذه الموضوعات في هذا اليوم. وربما يكون تناول بعض القضايا الأخرى هو الذي ادى إلى قلة الحديث عن المواضيع الأخلاقية، في حين كان الأولى بذل اهتمام أكبر بها.

يقول الامام علي عليه السلام: «الطعم رق مؤبد»<sup>(١)</sup>، اي ان الطمع عبودية دائمة، وهذا يعني انه أسوأ من العبودية.

ومن هنا تدركون وجود عبودية اخرى غير عبودية الجسم، وهي عبودية الروح. فقد يكون جسم الانسان حراً وغير مستبعد إلا انه مستبعد في روحه وضميره. وقد صور لنا العارف سعدي هذا المعنى حينما تحدث عن اخوين احدهما ثري وذو امكانيات مادية فريدة، والآخر فقير معوز طبعت على جسمه الاعمال الشاقة بصماتها. غير ان روح هذا الاخير كانت اكثر حرية من روح الاول رغم تقيز جسم الاول بالقوة والحرية.

اذًا هناك نوع آخر من العبودية غير عبودية الجسد، وهناك نوع آخر من الحرية غير حرية الجسد.

### العبودية المال والثروة

ولو تقدمنا خطوة اخرى، لوجدنا نوعاً آخر من العبودية والحرية يتصل بالمال والثروة. وقد حذر كافة علماء الاخلاق الانسان من الارقاء في احضان عبودية المال. ولعلي عليه السلام كلام على هذا الصعيد ايضاً يدعو من خلاله الانسان أن لا يكون عبداً للمال والدنيا. انه يقول: «الدنيا دار ممر لا دار مقر والناس فيها رجالن: رجل باع نفسه فأويقها ورجل ابتاع نفسه فأعتقها»<sup>(٢)</sup>.  
وي يكن ان يكون الناس صنفين ايضاً ازاء مال الدنيا وحطامها: صنفاً اسير

(١) نهج البلاغة، فيض الاسلام، الحكمة ١٧١، ص. ١١٧.

(٢) المصدر السابق، الحكمة ١٢٨، ص. ١٥٠.

المال، وصنفاً حراً من قيوده:

حطم القيد وKen حراً ايهما الرجل

إلام تبقى عبد الفضة واسير الذهب<sup>(١)</sup>

ونعود إلى القصة التي أوردها سعدي في «غلستان» - أي الروضة - حيث يقول: كان هناك أخوان أحدهما غني والآخر فقير. وكان الغني يخدم في الجهاز الحكومي، في حين كان الثاني رجلاً عاملاً أو كان يأكل من كد يده على حد تعبير سعدي نفسه. وقد قال الاخ الاول للثاني يوماً: لماذا لا تخدم كي تتخلص من هذا العمل الشاق؟ تعال كي تخدم مثلي وتتقذ نفسك من هذا العناء والتعب، ومن هذا العمل الشاق، ومن هذه الخطابة. فأجابه: لماذا لا تعمل انت كي تتخلص من ذلة الخدمة؟ انت تقول لي لماذا لا تخدم كي تتخلص من هذا العناء والمشقة، وانا اقول لك: لماذا لا تعمل ولا تحمل العناء والمشقة كي تتخلص من ذلة الخدمة؟ فالخدمة ورغم ما فيها من مال وثروة وقوة، إلا أنها ذلة لأنها خدمة وسلب للحرية وطأطأة الرأس امام الغير. وقال له ايضاً: قال العقلاء الاكل من كد اليدين والجلوس، افضل من التمتطق بمنطقة الذهب والوقف في خدمة الآخرين:

عجن الحديد المنصر باليد

افضل من وضع اليد على الصدر عند الامير

وربما لديكم الكثير من المعلومات على هذا الصعيد. إلا أن ما أتوخاه منكم هو ان تدرسوا هذه القضية دراسة نفسية. فما هو هذا الشعور الذي يدفع بالانسان لترجح العمل والعناء والمشقة والاحتطاب والفقر والمسكنة، على خدمة شخص مثله؟ فمثل هذا الانسان غير مستعد كي يكون عبداً لغيره حتى وان كانت هذه العبودية غير مادية، اي لا يستخدم فيها جسمه وانما روحه،

---

(١) المحرية المعنية، ص ٢٩ - ٣٠.

وهي بالتالي عبودية للروح لا للجسد<sup>(١)</sup>.

### رمز المقاومة

تحققـتـ الكـثـيرـ منـ القـفـزـاتـ وـالـمـرـكـاتـ وـالـاعـمـالـ الـكـفـاحـيـةـ الشـاقـةـ وـالـمـسـمـرـةـ علىـ يـدـ شـخـصـيـاتـ قـيـزـتـ بـقـيـوـدـ أـقـلـ،ـ وـاتـسـمـتـ بـنـوـعـ مـنـ الزـهـدـ.ـ وـتـمـكـنـ غـانـديـ باـسـلـوـيـهـ الزـاهـدـ انـ يـرـكـ الـامـبـاطـورـيـةـ الـبـرـيـطـانـيـةـ.ـ كـمـاـ انـ الـلـيـثـ الصـفـارـ وـحـسـبـ قولـهـ - لمـ يـتـرـكـ الخـبـزـ وـالـبـصـلـ إـلـىـ أنـ أـدـخـلـ الرـعـبـ إـلـىـ قـلـبـ الـخـلـيـفـةـ.ـ وـفـيـ عـصـرـنـاـ الـراـهـنـ تـدـيـنـ الـمـقاـوـمـةـ الـمـدـهـشـةـ الـتـيـ اـبـداـهـاـ رـجـالـ الـفـيـتـكـونـغـ لـذـلـكـ الـذـيـ يـعـبرـ عـنـهـ فـيـ الـاسـلـامـ بـ«ـخـفـةـ الـمـؤـونـةـ»ـ.

فـقـدـ كـانـ الـفـيـتـكـونـغـ قـادـرـاـ عـلـىـ الـاحـتـاءـ بـالـمـلـاجـئـ وـمـحـارـبـةـ الـخـصـمـ لـعدـةـ اـيـامـ مـسـتـالـيـةـ بـالـاقـيـاتـ عـلـىـ حـفـنـةـ مـنـ الرـزـ.

فـهـلـ هـنـاكـ زـعـيمـ دـيـنـيـ أوـ سـيـاسـيـ أـحـدـ تـغـيـرـاـ فـيـ الـعـالـمـ مـنـ خـلـالـ حـيـاةـ الدـلـالـ؟ـ وـهـلـ هـنـاكـ رـئـيـسـ سـلـالـةـ أـفـلـحـ فـيـ اـنـتـزـاعـ الـمـلـكـ مـنـ سـلـالـةـ اـخـرـىـ،ـ وـكـانـ مـنـ النـازـعـينـ نـحـوـ اللـذـةـ؟ـ<sup>(٢)</sup>

نـحـنـ حـيـنـاـ نـؤـمـنـ بـأـنـ عـلـيـاـ طـلـيلـاـ أـسـدـ اللهـ وـرـجـلـ اللهـ،ـ لـانـهـ كـانـ رـجـلاـ بـعـنـيـ الكلـمـةـ عـلـىـ الجـهـتـيـنـ:ـ الجـهـةـ الـخـارـجـيـةـ،ـ ايـ الجـهـةـ الـاجـتـاعـيـةـ وـمـيـادـيـنـ الـقـتـالـ الـتـيـ كـانـ يـصـرـعـ فـيـهاـ الـابـطـالـ،ـ وـالـجـهـةـ الـبـاطـنـيـةــ الـتـيـ هـيـ الجـهـةـ الـاـهـمــ الـتـيـ كـانـ يـسـيـطـرـ فـيـهاـ عـلـىـ نـفـسـهـ،ـ وـكـانـتـ تـهـيـمـنـ فـيـهاـ اـرـادـتـهـ عـلـىـ كـلـ رـغـبـةـ وـشـهـوـةـ وـفـكـرـةــ.ـ وـتـلـكـ الـقـصـةـ الـشـعـرـيـةـ الـتـيـ اوـرـدـهـاـ الـمـولـوـيـ فـيـ «ـالـمـشـنـوـيـ»ـ كـمـ هـيـ فـذـةـ فـيـ التـعـبـيرـ عـنـ الرـجـولـةـ وـقـوـةـ الـاـرـادـةـ!ـ وـماـ اـرـوعـهـاـ مـنـ لـوـحةـ وـمـاـ اـسـهـاـهـاـ:ـ يـصـرـعـ شـابـ فـيـ الـرـابـعـةـ اوـ الـخـامـسـةـ وـالـعـشـرـينـ مـنـ عـمـرـهـ (ـعـلـيـ)ـ خـصـمـهـ الـقـويـ جـداـ،ـ ثـمـ يـجـلسـ عـلـىـ صـدـرـهـ كـيـ يـحـتـرـ رـأـسـهـ،ـ فـيـصـقـ بـوـجـهـ عـلـىـ طـلـيلـاـ،ـ فـيـسـتـاءـ عـلـىـ مـنـ

(١) الحرية المعنوية، ص ٢٩-٣٠.

(٢) جولة في نهج البلاغة، ص ٢٣٦.

ذلك. فينصرف عن قطع رأسه بعض الوقت ويشاغل نفسه بالخطو قبل أن يعود اليه ثانية. فيسأله خصمه: لماذا ذهبت؟ فيقول له: لو كنت قد ذجتاك في تلك الحالة لكنت قد فعلت ذلك من أجل غضبي لا من أجل الله والهدف والعمل بالتكليف. هكذا كان علي مسيطرًا على نفسه وارادته وغضبه ورضاه<sup>(١)</sup>.

### تفسير البعض للحرية المادية

يتصور البعض أنهم أحرار لأنهم ليسوا عبیداً لغيرهم، ناسين ان هناك الكثير من الامور الدقيقة الاخرى، وان العبودية لها الف شكل وصورة، ولا يعلمون ان الطمع والجشع جزء من العبودية، والخاضوع للعادات الجاهلية وحب المال نوع آخر من انواع الرق:

هناك بيت لعنكري لم اجد اجمل منه واروع يقول: يستحيل جعل العلم والحرية والدين والمرءة في خدمة المال.

كان يوسف الصديق عليه السلام يحمل اسم العبودية لسنوات عديدة، اي انه كان يُباع ويُشتري في السوق وينتقل من يد لآخر ومن دار لآخر كالبضاعة الجامدة. ولم يكن يملأ اي شيء حتى الطعام الذي يأكله والثوب الذي يلبسه. وحتى الاعمال التي كان يمارسها والاجور التي كان يتتقاضاها، لم تكن من نصيبه ايضاً، لأنه عبد، وكل ما يكسبه العبد لسيده.

كان يوسف عبداً من حيث الجسم، لكنه اثبت انه سيد من حيث الروح، ولا يوجد من هو اكثر حرية منه في مصر بأسرها. وقد فتنت به إحدى اجمل نساء مصر، إلا أن يوسف الغلام رفض دعوة تلك المرأة وقال لها: صحيح ان جسمي ملك لك من الناحية القانونية، إلا أن روحي حرة، ولست عبد الشهوة والهوى. ابني عبد لحقيقة واحدة، وروحي خاضعة لأمر واحد، إلا وهو أمر

(١) الحرية المعنوية، ص ٢٤٢.

الله الخالق. فأنا على استعداد واضافة إلى العبودية أن أقبع بين جدران السجن الاربعة على أن لا أكون عبداً للشهوة والهوى، وأن أفتح صدري لقبول هذا الحرمان. التحديد الظاهري على أن أضع نير عبودية الشهوة في عنقي. وهذا أقبل على الله تعالى وخاطبه بلسان العفاف: **«رب السجن احب الي ما يدعوني اليه»**<sup>(١)</sup>.

وتوجد في التاريخ غاذج كثيرة لا ولئك الذين كانوا غلمناً وعيدياً من حيث القانون، إلا انهم كانوا أحراراً من حيث الروح والعقل والفكر وفي منتهى الحرية. ألم يكن لقمان الحكيم - الذي تحمل احدى سور القرآن الكريم اسمه - عبداً؟ لكنه كان في منتهى التحريرية من حيث العقل والروح والأخلاق. وهناك غاذج عديدة تتحرك امام عيني لأناس كانوا أحراراً من حيث قانون الملكية، لكنهم أرقاء وأسرى من حيث العقل والنط الفكري. أي أنّ أرواحهم وقلوبهم وشهامتهم وأخلاقهم كانت أسرى. القرآن الكريم يقول: **«قل انّ الخاسرين الذين خسروا انفسهم...»**<sup>(٢)</sup>. فالذي يخسر في الميدان الاجتماعي لباسه، أو بيته ومسكنه، أو ثروته وماله، أو مكانته الاجتماعية، لا يصل إلى مستوى خسارته لهويته الإنسانية وشخصيته المعنية، فقدانه لحرি�ته وشجاعته ونبليه واستقلاله وشهامته وصفائه وجميبيته، ووجوداته، وقلبه الحساس، وعقله، وایمانه، وروح قناعته وفتوته.

فالناس وكما قال علي عليه السلام صنفان: صنف يبيعون أنفسهم في سوق هذا العالم بالمال، والمنصب، والهوى، والشهوة، والكماليات، والموضة، والتقليد، وصنف يشترون أنفسهم وهو يتم الحقيقة والانسانية من هذه السوق. ويذخرون لأنفسهم الفضل وعزّة النفس، والشرف، والصدق، والاستقامة، والعدل، والتقوى، وطلب الحقيقة، والإيمان، والمعنية. ولا يعرفون في هذه

(١) يوسف / ٣٣.

(٢) الزمر / ١٥.

السوق سوى تلك القيمة التي حددتها القرآن وهي: ليس هناك شيء ثمين كي  
يبيع الإنسان نفسه به.

ويشير الإمام الصادق علیه السلام ضمن بعض الآيات الشعرية إلى أنَّ هذه النفس  
الثمينة لا أجد لها سوى قيمة واحدة في سوق الوجود، وهذه القيمة عبارة عن  
جوهرة تليق أن تكون ثمناً لهذا المتع الفيس، وتقع هذه الجوهرة خارج  
صدفة الكون والمكان. فأنا لا أجد بين المخلوقات كافة من هو ثمن لهذه النفس.  
فلو بعت متع الروح الثمين ببضاعة دنيوية، فسأفقد هذه البضاعة لأنَّ البضاعة  
الدينية فانية ، وأخسر متع روحي لأنِّي بعثها. وسابق صفر اليدين لا متع  
في يدي ولا ثمنه .

انا غلام ذلك الذي تحت الفلك الازرق  
قد خلا من كل لون قابل للتعلق<sup>(١)</sup>

### الانسان شخصية مزدوجة

كان المرحوم السيد حسين كوه كمري من كبار علماء عصره ومراجع  
التقليد آنذاك، كما كان من أهالي محافظة آذربایجان. وتحدث لنا عمه المرحوم  
آية الله حجة كوه كمري - الذي كان استاذنا آنذاك وكان رجلاً فاضلاً - عن  
حدث عجيب يتصل بالسيد حسين والشيخ الانصاري (اعلى الله مقامه)  
صاحب الجوواهر. ولم يكن الشيخ الانصاري قد اشتهر بعد سيراً وانه لم يكتب في  
النجف سوى فترة قصيرة، ثم غادرها متوجهاً إلى ايران حيث جاب مدنهما.  
فكان كلما وجد عالماً بارزاً لازمه مدة من الزمن وأخذ عنه. فأقام في مشهد،  
ثم فترة اطول في اصفهان وفترة اطول من ذلك في کاشان، حيث كان فيها  
المرحوم النراقي. مكث ثلاث سنوات في کاشان قبل أن يعود. ويقال انَّ  
المرحوم الشيخ الانصاري كان صغير الجسم وفي عينيه شيء من الخلل

(١) الحكم والتصانع، ص ٢٧ - ٣٠

(مصابتان بالتراخوما، مثل الكثرين من اهالي خوزستان، لأنه كان خوزستانياً). وكان شديد الزهد ويرتدي اللباس البالي والعمامة القديمة، ولم يكن لديه سوى عدد قليل من الطلبة يعودون بالأصابع. وكان يدرس في المسجد الذي كان يدرس فيه السيد حسين، إلا انه كان يدرس قبله. وقد عاد السيد حسين يوماً في زيارة ما ولم يكن لديه الوقت الكافي كي يذهب إلى البيت ثم يعود إلى المسجد. فدخل إلى المسجد رغم أنّ وقت تدریسه لم يحن بعد، فوجد شيخاً رثّ الثياب قد جلس في زاوية من زوايا المسجد وحوله بعض التلاميذ. فجلس جانباً وهو يصغي إلى ما كان ينفوه به الشيخ. فأعجب بمحبيه وشعر أنه مفيد له. وكان السيد حسين عالماً متبرحاً معروفاً وعلى أبواب المرجعية، بينما كان الشيخ الانصاري حتى تلك الفترة رجلاً مجهولاً ولا يعرفه السيد حسين بالأساس. وقرر السيد حسين أن يذهب في اليوم التالي قبل موعد تدریسه ايضاً ليكتشف حقيقة هذا الرجل، وجلس جانباً ايضاً واذناه تلقطان ما كان يقوله الشيخ فأدرك انه رجل فاضل، بل افضل منه. وقرر أن يعيid الامتحان في اليوم الثالث، فثبت له بما لا يقبل الشك انّ هذا الرجل المجهول أعلم منه وبإمكانه أن يستفيد من علمه. وأقبل عليه تلامذته والشيخ لم ينته من تدریسه بعد فقال لهم: ايها الطلبة! انّ عندي لديكم كلاماً جديداً. فذلك الشيخ الذي يجلس في تلك الزاوية، هو أعلم مني وأفضل. جربت هذا بنفسي، وقد انتفعت به. ولا بد لي ولكم من الذهاب اليه والتلتمذ على يديه معاً. فنهض متوجهًا نحو حلقة الشيخ الانصاري وتبعه تلامذته ايضاً. ما هذا الانصاف الذي لدى الانسان؟ ثورة على مصلحة الذات بكاملها.

فالسيد حسين بانضمامه إلى حلقة تلامذة الشيخ الانصاري، قد انتزع عن نفسه المرجعية وفوّضها إلى غيره. ولو نظر الانسان إلى المرجعية من الزاوية الدينية لوجدها منصبًا كبيراً. فهل مثل هذا الانسان لا يدرك معنى الرئاسة والتدریس والاحترام؟ لا شك وأنه يدرك مثلنا معنى الاحترام ويستحسن، كما

يستحسن السيادة والرئاسة والمرجعية ولا يستاء منها، إلا أنه كان يتمتع بروح سامية حرّة استطاع من خلالها أن يحكم بين نفسه وغیرها، وأصدر الحكم ضدّها ولصالح غيره. وهذا معنى أنَّ للإنسان شخصية مزدوجة.

### تأنيب الضمير

قد يرتكب الإنسان ذنباً في بعض الأحيان ثم يؤتّم ضميره على ذلك. فما هو تأنيب الضمير؟ فالدول الاستعمارية تنشئ الأفراد بطريقة تعمل على قتل الضمير عندهم. ورغم هذا قد ينبعث بصيص من الحياة في هذا الضمير الذي تصوروه قد مات تماماً في بعض الأحيان. فطيار هيروشيمَا قد أُعدَ للقيام بتلك الجريمة، إلا أنه حينما ألقى قبلته على المدينة شاهدتها تحرق مع الآبراء من أهلها الذين لم يدخلوا ميدان الحرب بما فيهم الشيوخ رجالاً ونساءً والأطفال، شعر بالاضطراب. ورغم الاستقبال الذي جرى له في أمريكا والحفاوة التي لقيها، إلا أنه لم يتمكن من الحيلولة دون تأنيب الضمير، حتى جُنَّ آخر المطاف وحمل إلى مستشفى المجانين.

ويتحدث القرآن الكريم عن النفس اللوامة فيقول: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْلَّوَامَة﴾<sup>(١)</sup>. فالله قد خلق في الإنسان نفساً لوامة، وواعظاً ينبعق من ضميره. ويقول الإمام علي عليه السلام: «من لم يجعل الله له واعظاً من نفسه، لم تنفعه موعظة غيره». فما معنى هذا؟ معناه إنكم مخطئون لم تصورتم أنَّ بامكان الواعظ الخارجي أن يؤثر فيكم. بل لا بد لكن أن تجعلو في باطنكم واعظاً اولاً وتحيوا ضميركم، فإذا فعلتم ذلك، نفع الواعظ الخارجي<sup>(٢)</sup>.

### حقيقة عبودية الدنيا

يقول الإنسان مثلما يجب أن لا تكون عبداً لأمثالي، يجب أن لا تكون

(١) القيامة / ٢.

(٢) الحرية المعنوية، ص ٣٦-٣٨.

روحى أسيرة لحطام الدنيا ايضاً . وقد يتسائل البعض : ما هو حطام الدنيا؟ وهل لديه القوة لاستعباد الانسان؟! فهل حطام الدنيا شيء غير الفضة، والذهب، والدار، والملك، والارض وغيرها؟ فهل هذه الاشياء القابلية على الاستعباد؟ فأنا انسان وكائن حي ، وهذه الاشياء جهادات و موجودات ميتة، فكيف يكون بامكانها استعبادي انا الكائن الحي؟ اذن ما هي حقيقة الامر؟ والحقيقة هي انَّ الانسان لا يتحول إلى عبد للدنيا أو عبد لحطامها وماها. وانما يقع في فخ عبودية خصائصه النفسية وحيوانيته وطمعه . اي انه يستعبد نفسه . وإلا فليس بقدور الثروة والارض ، والماشية ، والماكنة أن تسترقَّ الانسان . فالجihad لا يمتلك القدرة على التصرف في وجود الانسان . وحياناً ينظر المرء إلى القضية بعمق وينعم النظر فيها يجد انه يستعبد نفسه بنفسه ، ويشاهد قوة في اعماقه باسم الطمع ، واخرى باسم الشهوة ، وثالثة باسم الغضب . فقوى الطمع والشهوة والغضب وغيرها من القوى التي تدور في فلك هوى النفس هي التي تستعبده وتأسره . وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم ابلغ تعبير حينما قال : «أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَهُ هُوَاهُ»<sup>(١)</sup> .

انَّ حطام الدنيا بحد ذاته غير مذموم . و اذا ما قيل يوماً : إحذر أن يستعبدك حطام الدنيا و ثروتها ، فحقيقة الامر هي انَّ حطام الدنيا لا يمكنه استعبادي ، وانما انا الذي استعبد نفسي بنفسي وأسترقها ، فلابد لي من تحرير نفسي من قيود الصفات الانسانية القبيحة ، وسأرى حينئذ انَّ مال الدنيا في خدمتي وليس انا في خدمته .

وحينئذ سأدرك مكانتي الوجودية ، وسأدرك معنى هذه الآية القرآنية الكريمة التي تقول : «هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً»<sup>(٢)</sup> ، وأفقه انَّ مال الدنيا و ثروتها وكل ما فيها انا هو في خدمتي ، لا انا في خدمته . و اذا كان الامر

(١) الجاثية / ٢٣ .

(٢) البقرة / ٢٩ .

كذلك، فما معنى البخل؟ وما معنى الطمع؟ فالإنسان اذاً هو الذي يوقع نفسه في شراك العبودية، لأنه لديه درجتان: درجة دنيا حيوانية، ودرجة عليا إنسانية. والأنبياء قد جاؤوا للحفاظ على درجته الإنسانية وحررتها المعنوية. كيف؟ من خلال الحيلولة دون وقوع شرفه الإنساني وانسانيته وعقله وضميره الإنساني في إسار شهوته، وغضبه، ونفعيته. وهذا هو معنى الحرية المعنوية. فأنت احرار ما دمتم متغلبين على شهوتكم وعييد اذا تغلبت الشهوة عليكم. فإذا ما رأيتم ثروة غير شرعية وتاقت افسركم لأخذها في حين هناك قناعة لدى ايامكم وضميركم وعقلكم بأنها غير شرعية، فلا تقدوا أيديكم لها، وانتصرتوا على ميلكم النفسي. فإذا انتصرتم فاعلموا انكم احرار على الصعيد المعنوي.

وإذا ما رأيتم امرأة أجنبية وحفزكم عامل الشهوة على ملاحتتها بعيونكم، في حين منعكم ضمير مهيمن عليكم من ذلك، وأطعتم أمره، فاعلموا انكم احرار. أما اذا لاحقتم كل ما تطلبه العين، والاذن، والشهوة، والبطن، وركضتم خلفه، فاعلموا انكم اسرى وعييد.

فالإنسان كائن مزدوج، وهذه حقيقة يجب أن لا تغيب عن البال، اي انه مؤلف من ذاتين: ذات حيوانية، وذات إنسانية. والذات الإنسانية هي الذات الحقيقة للإنسان. وما اروع ما عبر المولوي (جلال الدين الرومي) عن التضاد الباطني للإنسان بلغة الشعر في القصة الشهيرة «مجنون والناقة». فالإنسان في الحقيقة مظهر لمبدأ التضاد. ولا يبلغ حجم التضاد الباطني في أي كائن آخر حجم التضاد الذي لدى الإنسان. وخلاصة هذه القصة هي ان «مجنون ليلي» قد امتنى ناقة للذهاب إلى بيت ليلي. وكان لهذه الناقة فصيل يرضع. فما كان من مجنون ليلي وقبل أن ينطلق بالناقة سوى أن يحبس فصيلها في البيت كي لا يعيق حركته أو يؤخره عن الوصول إذا ما لحق به. وكان حب ليلي قد شغل باله تماماً ولم يفكر خلال الطريق إلا بها. كما كانت الناقة منهكة بالتفكير

بصغيرها فقط . فكان الفضيل في بيت وليلي في بيت آخر . اي انّ هذا في المبدأ ، وتلك في المقصد . وحينما انصرف مجانون ليلي بمشاعره نحو حبيبه ، تراحت يداه عن زمام الناقة . وحينما شعرت الناقة انّ زمامها قد استرخي ، عادت بهدوء نحو الدار . ولم يشعر مجانون إلا وقد رأى نفسه قد عاد من حيث أتي . فأمسك بزمام الناقة وانطلق بها ثانية نحو دار الحبيبة . وتكرر الذهاب والاياب بتلك الطريقة . ولم يجد مجانون في نهاية المطاف بدأً من أن يرمي بنفسه على الأرض ويحاطب الناقة قائلاً: انا وانت عاشقان ، وانا وأنت ضدان ، فلا يليق بنا أن يكون أحدهنا إلى جانب الآخر .

فالإنسان توجد لديه نزعاتان: نزعة الروح ، ونزعة الجسد . وبؤكد المولوي:

تنزع الروح نحو الترقى والشرف  
وينزع الجسد نحو كسب الأسباب والعلف

فإذا أردت أن تكون لديك روح حرة ونفس غير مستعبدة ، فليس بوعلك أن تعبد البطن والشهوة والمال والغضب . وإذا ما شئت أن تكون حراً بمعنى الكلمة فلا بد أن تحرر نفسك أولاً .

وما اروع ما لدينا من أحاديث مأثورة على هذا الصعيد! فنقرأ في شرح «نهج البلاغة» لابن أبي الحديد انّ رسول الله ﷺ قد زار اصحاب الصفة يوماً فقال أحدهم له كلاماً اكد من خلاله على انّ شعوراً بات ينتابه في تفاهة الدنيا وما فيها . فأخذ يشعر انّ الذهب لا يختلف عن الحجر ، أي انّ أياً منها لا يجذبه اليه . لم ينشأ أن يقول بأنّ استخدامي للذهب والحجر شيء واحد ، وإنما قال انّ قابلية الذهب والحجر على جذبي نحوهما ، واحدة . فنظر اليه الرسول ﷺ وقال له: «إذاً أنت صرت حراً». وهذا يعني انّ الحرية المعنوية ، حقيقة قائمة بنفسها .

وهناك سلسلة أخرى من الأدلة الوجданية التي تؤكد على انّ شخصية الإنسان شخصية مزدوجة وبإمكانه على الصعيد المعنوي اما أن يكون حراً

وإما أن يكون عبداً. وقد أفضى الله تعالى على الإنسان قابلية التحكيم في نفسه والقضاء لها أو عليها. في المحاكم لابد من توفر ثلاثة أشخاص عادة عند التحكيم أو القضاء في قضية معينة وهم القاضي والمدعى والمدعى عليه. ولابد للقاضي أن يحكم بين الاثنين الآخرين بالعدل. إذاً كيف يمكن للإنسان أن يمارس دور هؤلاء الثلاثة معاً خلال محاكمته لنفسه؟ أي كيف يمكن أن يكون مدعياً ومدعى عليه وقاضياً في وقت واحد؟ فما هو الانصاف؟ فحينما يقال إن الشخص الفلاحي منصف، فما معنى هذا الانصاف؟ والحقيقة هي أنَّ الإنسان المنصف هو الذي بامكانه أن يقضي دون تحيز في القضايا المتصلة به، ويصدر الحكم ضد نفسه حينما يكون مقصراً حقاً. كيف يمكن تفسير ذلك؟ لا يمكن تفسيره إلا من خلال الاعتراف بازدواج شخصية الإنسان الحقيقة. فكم هي حالات الانصاف التي تشاهدونها في هذا العالم. والتي تجدون فيها إنساناً ينصف آخر من نفسه ويفضله عليه ويقر بأنَّ الحق مع غيره لا معه، والفضل للآخر لا له<sup>(١)</sup>.

**نقد الوجودية ودراستها على صعيد حرية الإنسان**

الوجودية مذهب يعتقد أنَّ الحرية هي معيار الكمال الإنساني، وهي في الحقيقة جوهر الإنسان وقيمة القيم الإنسانية. ويرى أنَّ الإنسان هو الكائن الوحيد الذي خلق حراً في هذا الكون، أي أنه غير محكوم لا بالجبر ولا بالضرورة، أو كائن مختار على حد تعبير القدماء وليس مجبراً. فالبعض يرى أنَّ كل شيء - عدا الإنسان - مجبر وخاضع بالجبر لسلسلة من العلل والمعلولات، في حين أنَّ الإنسان كائن غير مجبر أو مكره ولا يُدار من قبل أي جبر على<sup>(٢)</sup> أو معلولي...

(١) الحرية المعنوية، ص ٢٢-٣٦.

(٢) الإنسان الكامل، ص ٣٣٠ و ٣٣١.

هذا المذهب يتحدث عن الحرية كحرية فلسفية: الانسان خلق حراً ومحترماً، بل لابد له أن ينح حتى طبيعته لنفسه بنفسه. ويؤمن بأن كل ما يتعارض مع حرية الانسان ويناقضها، يخرج به عن الانسانية و يجعله غريباً عليها.

فالانسان قد خلق حراً بالذات. ومن الممكن أن تنتزع بعض العوامل هذه الحرية كالاتصالات. فلو تعلق بشيء ما والتصل به وسلم له - منها كان هذا الشيء - فإنه قد خرج من الانسانية وفق وجهة نظر هذا المذهب، لأن الحرية قد انتزعت منه. فالانسان كائن حر، يفقد حريته بمجرد الاتصال بشيء ما<sup>(١)</sup> ...

دور الاعيان بالله في انتزاع الحرية وفق هذا المذهب

فالحرية والاختيار يمثلان في الحقيقة جوهر الانسان وحقيقة وقيمة القيم أو أم القيم على تعبير آخر. والانسان إذا ما أراد أن يحافظ على انسانيته من الذوبان أو المنسخ، فلا بد له أن يحافظ على حريته، وإذا ما أراد أن يحافظ على هذه الحرية فعلية أن لا ينتمي إلى أي شيء.

يكفيانا ورد العذاري في بستان العالم

ويكفيانا ظل هذا السرو المتحرك في هذا العشب

ولابد من التخلص وفق منطق هذا المذهب عن «ورد العذاري» و«ظل السرو المتحرك»، و«الجنة» وغيرها، ولابد للانسان أن يكون مطلق الحرية. ورغم أن هذا المذهب يتناقض في الكثير من مبادئه مع المدرسة المادية الديالكتيكية إلا أنها يتقيان معاً في عدم الاعيان بالله من ناحيتين: الأولى أن الاعيان بالله يستلزم الاعيان بالقضاء والقدر، والاعيان بالقضاء والقدر يستلزم الاعيان بالجبر من جهة والاعيان بالطبيعة البشرية الثابتة من جهة أخرى. لانه اذا كان هناك

---

(١) الانسان الكامل، ص ٣٣٤.

إله، فلابد أن يكون للانسان في معرفة ذلك الاله طبيعة معينة لا غير معينة. كما انه اذا كان هناك الله فلابد أن يهيمن القضاء والقدر وبالنهاية الجبر على الانسان مما يفقده الاختيار والحرية. وهذا لابد من رفض الله بقبول الحرية! والناحية الثانية هي ان الاعيان بإله يستلزم الاعيان بالله، والاعيان بالله يعني التعلق بالله والانشداد اليه، في حين ان الانشداد إلى آية جهة منها كانت يعده متناقضًا مع حرية الانسان، سببا اذا كان هذا الانشداد ايماناً بالله، لأن الانشداد إلى الله فوق الانشادات كافة.

وي يكن الحديث عن هذا المذهب على صعيدين: الاول، من الخطأ الاعتقاد بأن الاعيان بالله مغایر للحرية والاختيار. وقد تناولت بالتفصيل هذا الموضوع في كتابي «عوامل النزعة نحو المادية» و«الانسان والمصير» وقلت بأن مستوى تفكيرهم على صعيد الاعتقاد بالقضاء والقدر لا يختلف عن مستوى تفكير العجائز. فهم لا يعرفون ما هو القضاء والقدر كما جاء في المعارف الاسلامية. فالقضاء والقدر في هذه المعارف لا يتعارض مع حرية الانسان و اختياره ابداً. ولسنا في معرض تناول هذا الموضوع هنا.

هل التعلق بكل شيء، مضاد للحرية؟  
والمؤاخذة الثانية التي يثيرها هذا المذهب قوله ان الانشداد والتعلق بأي شيء - منها كان - مضاد للحرية ومتناقض معها، حتى ولو كان انشداداً إلى الله ...

ان تعلق الكائن بغايته وكماله النهائي وعلى العكس مما ذهب اليه سارتر لا يعده تغرياً عن الذات، وانما الغوص فيها، اي الاقتراب من الذات اكثر فأكثر. واذا بلغت الحرية مستوى تحرر فيه الانسان حتى من غايتها وكماله - أي حتى من ذاته - فهذا النوع من الحرية لابد وأن يجعل الانسلاخ عن الذات، في نفس الوقت الذي يعبر عن مناهضته للكمال الانساني. وإذا ما اردنا للحرية أن

تستوعب كمال الكائن ومرحلة تكامله - اي التحرر حتى من مرحلة التكامل - فهذا يعني أنه اكمل من «ذاته»، و«ذاته» الانقضى متحررة من «ذاته» الأكمل . وهذه الحرية تقصي الانسان ولاشك عن نفسه، على العكس من التعلق بالكمال والذات الاكمل .

ولم يفصل هذا المذهب بين الاتصال والتعلق بالغير والأجنبي وبين الاتصال بالذات، اي بمرحلة تكامل الذات . فنحن نؤمن ايضاً بأنّ الاتصال بالذات الأجنبية يؤدي إلى مسخ ماهية الانسان . فلماذا رفضت الاديان كل هذه الانشادات إلى ماديات الدنيا؟ لأنها ماديات أجنبية وغريبة وتعمل على هبوط القيمة الإنسانية . في حين لا يعد الاتصال بالكمال النهائي للانسان، اتصالاً بالغير، وانما هو اتصال بالذات وانشداد إليها . واتصال الانسان بذاته لا يؤدي إلى تغربه عنها ولا إلى نسيانه لقيمه أو تعثر حركته . فحيثما يرتبط الشيء بغايته فلا بد أن ينطلق نحوها بسرعة .

خطأ هذا المذهب على صعيد علاقة الانسان بالله أيها السيد سارتر! الله ليس غريباً على الانسان عن طريقين: الاول انّ تعلق الانسان بالله ليس تعلقاً مغايراً للذات او متبيناً معها بحيث ينسى الانسان ذاته من خلال تعلقه به . فالعلة الفاعلية والموجدة والمبدعة لكل شيء والمقومة لذات كل شيء - اي العلة الموجدة لكل شيء به قوام ذلك الشيء - هي اقرب إلى الشيء من الشيء نفسه . وهذا امر قد ثبت في الفلسفة الاسلامية ببرهان في غاية الوضوح .

القرآن الكريم يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، اي اننا أقرب اليكم منكم ، فليست معرفتنا بكم اكثر من معرفتكم بأنفسكم فحسب ، وانما ذاتنا اقرب اليكم منكم ايضاً . وهو تعبير قرآني عجيب ولاشك: فليست من المدهش

٨٥) الواقعه /

أن يقول أحد اني اقرب إلى نفسي من أي شيء آخر، إلا ان القرآن الكريم يقول بأن الله اقرب إلى الشيء - أي شيء - من الشيء نفسه، لأنه أكثر ذاتية إلى الشيء من ذاته. وهذا كلام ذو مستوى رفيع جداً<sup>(١)</sup>.

ويقول الامام علي عليه السلام في وصف الله تعالى: «داخل في الاشياء لا بالمازجة، خارج عن الاشياء لا بالمبينة». كما يقول ايضاً: «ليس في الاشياء بواجل وما منها بخارج»<sup>(٢)</sup>.

والطريق الثاني هو ان القرآن يتحدث عن ضرورة اتصال الانسان بالله وتعلقه به لانه كال ونهاية حركة الانسان المتوجه نحو الله. وهذا يعني أن اتجاه الانسان نحو الله، اتجاه نحو غاية كماله، مثل اتجاه الحبة نحو غاية كمالها. فحركة الانسان نحو الله، حركة نحو نفسه وذاته، وحركته من الذات الانقص نحو الذات الاكمel.

اذاً قد أخطأ ذلك الذي يقيس الله بالأشياء الأخرى ويتصور أن الانسان حينما يتوجه إلى الله ينسى ذاته ويتوقف عن الحركة...<sup>(٣)</sup>.

## رأي علماء الغرب

هناك رأي جديد عمّ أوساط علماء الغرب في الحقل التربوي يتلخص في ان التربية يجب أن تكون تربية صرفة. فبما ان دراستهم كانت تدور حول محور التربية الخلقية مع الأخذ بنظر الاعتبار جانب العقل والارادة دون الحسن والدين والحس الجمالي، فقد قالوا بأن التربية ليست سوى تربية قوة العقل والارادة الأخلاقية. ولا يجب تعويد الانسان على اي شيء - سواء كان حسناً أم قبيحاً - لأن العادة شيء قبيح بشكل مطلق، ولأن الشيء ما أن يتحول إلى

(١) المعارف التي جاء بها الاسلام لن يلحق بها الانسان حتى بعدآلاف السنين.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٨٤.

(٣) الانسان الكامل، ص ٣٣٦ - ٣٤١.

عادة حتى يستولي على الانسان، فيأنس به ولا يكنته التخلی عنه. وعندما يمارس الانسان حينئذ عملاً ما لا يمارسه عن عقل ولا عن ارادة اخلاقية ولا عن كون تلك الممارسة صحيحة أو خاطئة، وانما لأنه تعود عليها، ولأنه يشعر بالانزعاج إن لم يقم بها. وقد وردت هذه الفكرة في حديث نبوي وصادي أيضاً.

قال الرسول الراکم(ص):

«لا تنتظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم وكثرة الحج والمعروف وطنطتهم بالليل، ولكن انتظروا إلى صدق الحديث وأداء الامانة»<sup>(١)</sup>.

وقال الامام الصادق ع عليه السلام حديثاً بثابة تفسير للحديث النبوى:

«لا تنتظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فان ذلك شيء اعتاده فلو تركه استووحش لذلك، ولكن انتظروا إلى صدق حديثه وأداء امانته»<sup>(٢)</sup>.

ويدل هذا الحديث على أن العادة تذهب بالقيمة الاخلاقية للعمل، ولا يمكن أن تكون معياراً للانسانية والايام.

ويقول علماء الغرب ايضاً ان أي شيء حتى ولو كان افضل الاعمال وأسمى الفضائل الانسانية، ما أن يتحول إلى عادة حتى يفقد قيمته، لأن الملكة هي التي تستولي على الانسان حينئذ. والعادة التي هي طبيعة ثانوية تسير الانسان وتفرض نفسها عليه سواء استحسن العقل ذلك أم لم يستحسن. وبعد «كانت» و«رسوها» من رواد هذا المذهب. ويقول روسو في كتاب «اميل»: «لابد من تعويد أميل على عدم التعود على أي شيء»، على العكس تماماً من رأي القدماء الذين كانوا يعتقدون ان التربية فن تشكيل العادة. فما هي التربية اذاً، إذا لم تكن تعويد الروح؟ هي تعزيز الروح والإرادة في كل عمل يمكن للعقل فيه أن يفكر بحرية وللإرادة أن تتخذ قراراتها بحرية، لاسيما مكافحة العادات.

(١) بحار الانوار، ج ٧١، ص ٩.

(٢) اصول الكافي، ج ٢، ص ١٠٥.

ولذلك نرى أنّ مثل هؤلاء الاشخاص قد يسمحون بعمل احياناً نتصور انه قبيح لأنّ العمل الحسن قد تحول إلى عادة، ولا بد من الترد على العادة.

العلاقة بين الحرية الأخلاقية والتربية والتعليم من منظار علماء الغرب وهذا تُطرح قضية الحرية الأخلاقية في التربية. فهؤلاء يدافعون عن الحرية في الاخلاق، ويعتبرون الحرية جوهر روح الانسان ولا يوافقون على انتزاع حريته بأية وسيلة كانت. فلا بد للانسان أن يكون حراً، اي أن يعمل بما ي عليه العقل والارادة، وليس بامكان اي قوة أن تهيمن عليه بما فيها قوة العادة. ويمكن أن نقول بأنّ كلام «روسو» في كتاب «أميل» يدور في اغلبه حول محور مقارعة العادة. ويقول في انتقاد الاسلوب التربوي القديم: «يدخل الطفل إلى الدنيا أسيراً ويخرج منها أسيراً». ويريد انّ الطفل ما أن يولد حتى توثق يداه بالقطاط وما أن يموت حتى تشدان بالكفن، ويعيش هذا الطفل أسيراً العادة منذ الولادة وحتى الوفاة.

### نقد هذا الرأي

هل صحيح هذا الرأي؟ لا يجب أن يتعود الانسان حتى على العمل الصالح والممارسة الحسنة؟ نحن نعتقد انّ هذا الرأي خاطئ مئة بالمائة. فهم يقولون انّ العادة تحول الانسان إلى ماكينة، وتقتل فيه روح الابداع، وتنزع اختياره وحريته وارادته. ويقول «كانت»: «كلما ازدادت عادة الانسان، قل استقلاله وحريته»، ويقصد بالحرية، حرية العقل. فهؤلاء يرون انّ العادة أمر قبيح لأنها تصيب الارادة بالوهن بحيث يعجز الانسان عن الترد على ما أنس به جسمه أو روحه. و هذا ما دفعهم ايضاً لرفض تعريف القدماء للتربية بأنها «فن تشكيل العادة» فقالوا بأنها «فن تقويض العادة». وما ذهبوا اليه - في ضرورة أن لا يفعل الانسان شيئاً يتحول إلى عادة لديه وينأس به بحيث يعجز عن تركه، حتى يغدو يؤدي هذا العمل لا بفعل العقل والارادة بل بفعل العادة - يعدّ

كلاماً صحيحاً بشكل عام، إلا انه لا يمكن أن يكون مبرراً لاعتبار كل عادة، عادة سيئة. فالعادات نوعان: عادات فعلية ، وعادات انفعالية. والعادات الفعلية تلك التي لا يكون فيها الانسان تحت تأثير عامل خارجي وانما ينجز من خلالها العمل بشكل أفضل بفعل التكرار والمارسة، كالفنون. بل تعد الكتابة التي نكتبها هي الآخر عادة لا علمًا . فليس بامكاننا أن نكتب أو نخط فجأة، بل لابد من الترن والمارسة قبل أن نتعود على الكتابة. ونعد الكثير من الملوكات النفسية، عادات فعلية ايضاً كالشجاعة، والشهامة، وقوة القلب. وقد يبتليك المرء شيئاً من هذه الخصال بشكل طبيعي، إلا ان العادة هي التي تبلغ به مرحلة مجاهدة الخطر دون الشعور بالوجل والاضطراب والهزيمة الذاتية. فحينما تمر به ظروف عديدة يواجهه فيها المخاطر والمهالك، فلا بد أن تتواجد عنده حالة الشجاعة بشكل تدريجي حتى تصبح عادة لديه. وينطبق هذا الامر على السخاء، والعلقة، وغيرهما.

لكن لماذا لا تصح مؤاخذة «كانت» وأمثاله على هذا النوع من العادات؟ ذلك أولاً لأنّ الانسان إذا لم يتعود على هذه العادات، تظل ارادته في مجاهدة المحفزات المضادة ضعيفة، إلا انه يكتسب قوة المقاومة حينما يعتاد عليها، بالضبط مثل ذلك الشيء الذي يتحدث عنه الفقهاء في حقل مملكة التقوى والعدل. فهذه الملكة لابد وأن تكون بهذا المستوى، لا بذلك المستوى الذي يصبح فيه الانسان اسيراً.

والارادة الاخلاقية عند «روسو» و«كانت» ارادة لا تنسّاك إلا لإيعاز العقل ولا تستاء من ترك هذه الصفات، انها قوة فحسب، قوة ولا شيء آخر. ثانياً - وهو متمم للأول - يولي علماء الاخلاق أهمية كبيرة للعادة ويقولون: العادة تسهل العمل الصعب بطبيعة على الانسان. فقد يروم المرء القيام بعمل خلافاً لطبيعته، ومن الطبيعي أن يصعب عليه ذلك، إلا ان هذه الصعوبة تزول من خلال تحولها إلى عادة وملكة لا إلى أنس.

هب انّ شخصاً اعتاد الاستيقاظ مبكراً، إلا انه كان قبل الاعتياد على الاستيقاظ المبكر، ينهض بصعوبة بالغة من النوم. غير انّ سعيه المستمر للاستيقاظ حواله إلى عادة وأخرجه من إطار الصعوبة. بتعير آخر انه كان اسير الطبيعة قبل ذلك إلا انه اكتسب من خلال العادة قوة معادلة لقوة الطبيعة ساعدته على التحرر، ثم حكم عقله في مصلحته، فقرر هل ينام ام يستيقظ. وعادة كهذه لا يمكن أن تعدّ سيئة. فلا يمكن القول انّ الانسان يبكر باستمرار تحت ضغط الطبيعة، بارادته واعز العقل، وانه حينما يتعود، ينبرى لتقويض هذه العادة كي تأخذ الطبيعة مجرها ثانية.

ثالثاً، قضية انّ الارادة الاخلاقية لابد من هيمنتها على الانسان، لا يبحثونها من وجة النظر الدينية، إلا انّ علينا أن نبحثها على هذا الصعيد ونقول أن هذه الارادة الاخلاقية لابد وأن تتبع عقل الانسان وایمانه. لكن ومن أجل أن نقيم في وجودنا حكومة العقل والایمان، فهل يتم ذلك من خلال إضعاف القوى الأخرى في نفوسنا، سواء كانت قوى طبيعية، أو تربوية، اي العادة؟ نحن ومن أجل تعزيز قوة العقل والارادة لدينا، هناك طريقان امامنا: الاول، إضعاف الجسم والطبيعة. وهذا الطريق اشبه بعمل الشخص الذي يريد أن يكون بطلاً على حساب شخص آخر فيقترح إضعافه وحفظه ضعيفاً ونحيفاً من أجل أن يحقق الانتصار عليه.

والانتصار على الضعيف ليس بالأمر المهم، واغا المهم التغلب على القوى. وكان العديد من صحابة الرسول ﷺ يفدون عليه ويسألونه السماح لهم بإخفاء انفسهم، فلم يكن الرسول ﷺ يسمح لهم بذلك ويقول انه غير جائز في ديننا. فليست من الفضل ولا من الفخر أن يخفي المرء نفسه كي يحافظ بهذه الطريقة على دينه بعد تخلصه من المحفزات الجنسية. واما الفضل والفخر أن تكون لديه محفزات جنسية، إلا انه يجد من تأثيرها بقوة العقل والایمان ويسسيطر عليها بها.

وينطبق هذا الكلام على العلاقة بين العقل والطبيعة أيضاً. فاذا يقول السيدان «كانت» و«رسو»؟ هل يقولان بضعف الطبيعة من أجل تعزيز قوة العقل والارادة؟ انها لا يقولان ذلك، وانما يقولان: عززوا كفة الارادة كي تتغلب على قوة الجسم والطبيعة، ونحن نقول ان هذا يصدق على العادات، لأن العادة طبيعة ثانية. فعلينا أن نرى هل بامكان قوة العادة أن تفعل شيئاً؟ ونرى انها تفعل شيئاً، لأنها تسهل الاعمال علينا. لكن علينا أن نقوم في ذات الوقت بالحفظ على قوة العقل والارادة أو العقل والايام بحيث لا تخضع لقوة العادة مثل عدم خضوعها لقوة الطبيعة. فالشيء حينما يتتحول إلى عادة لدى المرء، يأنس اليه. ويarse بشكل تلقائي وألي وقد لا تتصل هذه الممارسة بالعقل والايام في بعض الأحيان، اي لو قال العقل والايام للمرء إعمل خلافاً لهذه العادة، لا يعمل.

ويقال ان المرحوم الشيخ عبد الكريم الحائرى كان يصوم في شهر رمضان رغم انه كان بامكانه أن لا يصوم لشيخوخته. وقد قيل له يوماً: انت تقولون ان الشيخ والشيخة بامكانهما أن لا يصوما، ويدفعوا كفارة بدلاً من ذلك، فلماذا تصومون؟ فقال: العرق العامي لا يسمح لي.

وما أكثر من يتسمون بهذه الحالة. فقد يقول البعض: لن افتر حتى ولو اموت، متصوراً أن هذا ايان. أي انه لا يفتر حتى ولو قال له الله والرسول: افتر! فهذا نوع من العادة. في حين أن عليه أن يكون تابعاً لايامه لا لعادته. فلو قال له الايان: افتر! فعليه أن يفتر. ورغم ذلك لا يجب أن نرفض الملوكات بشكل مطلق لأن نرفض العدل أو الاستيقاظ المبكر بحججه انها قد تحولا إلى عادة أو ملكرة، وانما لا بد من رفض الشيء حينما يستعبد الانسان بحيث لا يعود ينصاع حتى لا يعز العقل والايام.

قيل أن شخصاً كان مع الامام الصادق عليه السلام في بستان ما، فأشار ذلك الشخص إلى تفاحة متسلية وقال للامام: لو قلت لي أن نصف هذه التفاحة

حرام ونصفها حلال لصدقه. وهذا ما يفسر بشكل واضح ضرورة عدم الاعتياد على شيء بجحث لأنصر عن العقل والآيمان خلال تلك العادة.

ويتضح مما سبق صحة كلام علماء الغرب ضمن هذه المحدود. ويوضح عن هذا المعنى حديث الإمام الصادق عليهما السلام الذي ذكرناه والذي يقول «لا تتظروا إلى طول ركوع الرجل وسجوده فان ذلك شيء إعتاده، فلو تركه استوحوش ذلك»، اي أن العادة قد تتحول إلى صورة بجحث تبدد قيمة العمل الحسن<sup>(١)</sup>.

## العلاقة بين العبادة والحرية

ما هي فلسفة العبادة؟ فلسفة العبادة هي أن يجد الإنسان الله كي يجد نفسه؛ وهي «معرفة الذات» معرفة حقيقة بالمعنى الذي ورد في القرآن ولم يستطع أن يدركه الإنسان حتى اليوم، عدا أولئك الذين يستوحون أفكارهم من العقيدة الإسلامية. فقد ظهرت شخصيات كمحبي الدين ابن العربي ومن ثم تلامذته كالمولوي الرومي، تحدثت عن معرفة الذات والوعي الذاتي، واستوحيت هذا المفهوم القرآني بعد ستائة عام من نزول القرآن، مفتخرة أنها سبقت الفلاسفة المعاصرین على هذا الصعيد بسبعينة عام.

ولا يفصل جلال الدين المولوي (الروماني) بين معرفة الذات ومعرفة الله تعالى، فيقول بأن النفس تعني المعرفة وكلما كان المرء أكثر معرفة، كانت نفسه أقوى. وحينما نرى أن نفس الإنسان أقوى من نفس الحيوان، فلأنه أكثر معرفة منه. وينتهي المولوي في آخر المطاف إلى القول: الإنسان متى ما عرف ربـه، عـرف نفسهـ.

ولا بد أن نقول تعليقاً على ما يقال بأن كل ارتباط وتعلق، متعارض مع الحرية: نعم، كل تعلق متعارض مع الحرية عدا التعلق بالله الذي هو تعلق بالذات وتعلق بالذات الأكمل. ولا يمكن أن تتحقق الحرية إلا من خلال التعلق

(١) التعليم والتربية في الإسلام، ص ٨١-٨٨.

بالله والارتباط به. وهذا يعني أن معرفة الله تستوجب المزيد من معرفة الذات. وكلما انصرف المرء نحو العبادة وأقبل على ذكر الله وازداد تقرباً إليه، ازدادت معرفته بنفسه.

وتوصل بعض الناس العظام إلى معرفةٍ عرفانية للنفس عن هذا الطريق، كان يعيش قبل خمسين عاماً تقريباً رجل عظيم ومن كبار المجتهدin والمتأرخين من مدرسة النجف العلمية، ومن تلامذة المرحوم حسين قلي الهمداني. وكان عارفاً في منتهى العرفان ومتشرعاً أيضاً، ألا وهو المرحوم ميرزا جواد الملكي التبريزi. كان يسكن في مدينة قم وخلف العديد من الكتب. وقد تحدث عن معرفته لنفسه واستعرضها مع بعض المقدمات وقال: اعرف أحداً<sup>(١)</sup> قد تحققت له معرفة النفس هذه عن طريق الرؤيا لأول مرة ولم تفارقـه عند اليقظة. وقال: أن «معرفة الذات» بمعناها الحقيقـي فرع عن «معرفة الله»، ولا يمكن أن تحصل سـوى عن طريق العبادة الحقيقـية. ولو مارس عالم

نفسـاني علم النفس لمدة ألف عام، فلن يبلغ معرفة الذات الحقيقـية.

وللامام علي عليه السلام عبارة عجيبة في هذا المجال يقول فيها: «عجبتُ لمن يُنسـدـضـالـهـ وـقدـ اـضـلـ نـفـسـهـ فـلاـ يـطـلـبـهاـ»<sup>(٢)</sup>، فيما أهـمـهاـ الـإـنـسـانـ أـتـلـعـمـ إـنـكـ قدـ ضـيـعـتـ نفسـكـ؟ فـأـنـطـلـقـ وـابـحـثـ عـنـهاـ، لـأـنـهـ أـكـثـرـ قـيـمـةـ منـ أـيـةـ ضـالـةـ أـخـرىـ<sup>(٣)</sup>.

## الوجودية ليست ملزمة

تحتـلـفـ الرـؤـيـ نـحـوـ الـعـالـمـ عـلـىـ صـعـيـدـ آـخـرـ يـتـمـثـلـ فـيـ أـنـ بـعـضـهـ مـلـزـمـ وـالـبـعـضـ الآـخـرـ غـيرـ مـلـزـمـ. ايـ أـنـ بـعـضـهـ يـحـمـلـ الـإـنـسـانـ الـمـسـؤـلـيـةـ وـالـبـعـضـ لـأـيـ يـحـمـلـ. وـالـرـؤـيـةـ التـوـحـيدـيـةـ لـلـكـونـ، هـيـ مـنـ النـوـعـ الـمـلـزـمـ. وـمـهـمـاـ فـكـرـنـاـ فـيـ الطـرـيقـةـ الـتـيـ

(١) انه لم يقل أن ذلك الشخص كان هو.

(٢) الفر والدرر، الأيدي، الحكمة ٦٢٦٦.

(٣) الإنسان الكامل، ص ٣٤٣-٣٤٥.

يُكَلِّلُ لِلْوُجُودِيَّةَ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُلْزَمَةً، فَلَنْ نَصُلْ إِلَى نَتْيَاجَةٍ، لَأَنَّهَا لَا قَاعِدَةٌ لَهَا وَلَا اسْسَاسٌ. وَلَا نَدْرِي مَا هِيَ الْقَاعِدَةُ الَّتِي تَعْتَدِدُ عَلَيْهَا فِي تَحْدِيثِهَا عَنِ الْالْتِزَامِ وَالْمَسْؤُلِيَّةِ. الْوُجُودِيُّ يَقُولُ: «أَنِّي مَسْؤُلٌ عَنِ النَّفْسِيِّ لِأَنِّي حُرٌّ». فَهَذِهِ الْحُرِّيَّةُ لَا مَعْنَى لَهَا سُوَى أَنَّ الْآخَرَ لَيْسَ مَسْؤُلًا عَنِ شَقَائِيِّ. إِنَّمَا إِذَا كَنْتُ مُجْبَرًا، فَلَسْتُ مَسْؤُلًا عَنِ شَقَائِيِّ، وَإِنَّمَا غَيْرِيُّ هُوَ الْمَسْؤُلُ. لَكِنَّ مَاذَا لَوْ كَنْتُ حَرًّا مَائِهَةً بِالْمَائِهَةِ؟ وَلَا شَكٌ فِي أَنَّ الْحُرِّيَّةَ الَّتِي يَتَحْدِثُ عَنْهَا هُؤُلَاءِ لَا مَفْهُومٌ لَهَا وَخَاطِئَةٌ مَائِهَةً بِالْمَائِهَةِ، لَأَنَّهَا تَسَاوِي الْحُرِّيَّةَ الَّتِي كَانَ يَتَحْدِثُ عَنْهَا اشْعُرُتُنَا وَالَّذِينَ حَاوَلُوا الْبَرْهَنَةَ عَلَى حُرِّيَّةِ ارْادَةِ الْإِنْسَانِ بِشَكْلِ كَامِلٍ وَغَيْرِهِ ارْتِبَاطُهَا بِأَيِّ شَيْءٍ، وَهُوَ كَلَامٌ تَتَارُ حَوْلَهُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَاخِذَاتِ الْكَبْرِيَّةِ. لَكِنَّ لَوْ فَرَضْنَا أَنِّي حُرٌّ وَلَا وُجُودٌ لِأَيِّ نُوعٍ مِنَ الْجُبْرِ عَلَيِّ، سَوَاءَ كَانَ جُبْرًا طَبِيعِيًّا أَوْ مُحِيطِيًّا وَبِيَّنِيًّا أَوْ الْهَيَّاً، إِيَّيِّي مُطْلَقُ الْحُرِّيَّةِ، فَهَذَا يَعْنِي أَنِّي مَسْؤُلٌ عَنِ النَّفْسِيِّ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِهِمْ. وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْأَكْثَرِ عَدَمِ وُجُودِ أَيِّ عَامِلٍ مَسْؤُلٍ عَنِ شَقَائِيِّ، وَإِنَّا الْمَسْؤُلُ الْوَحِيدُ عَنِ هَذَا الشَّقَاءِ لَوْ قُدْرٌ لِي أَنْ أَكُونْ شَقِيقًا. لَكِنَّ هَلْ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ أَنَّ لَدِيَّ مَسْؤُلِيَّةَ إِمَامِ الْآخَرِيْنِ كَيْ أَقُولُ إِنَّا مَسْؤُلُونَ فِي انتِخَابِ مَا هُوَ فِي صَالِحِ الْآخَرِيْنِ؟ إِنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَلْقَوْا مَسْؤُلِيَّةَ الْآخَرِيْنَ عَلَى عَاتِقِيِّ إِيَّاً. فَنَّ اِنِّي أَتَانِي هَذَا الشَّعُورُ بِالْمَسْؤُلِيَّةِ؟ فَإِذَا قِيلَ أَنَّ لِي تَأثِيرًا عَلَى الْآخَرِيْنَ - وَهُبَّ أَنَّ الْأَمْرَ هَكَذَا - غَيْرُ أَنَّ الْمَسْؤُلِيَّةَ شَيْءٌ آخَرُ، وَذَلِكُ: أَوَّلًا، الْآخَرُونَ احْرَارٌ إِيَّاً، وَلَا تَنْسَجِمُ هَذِهِ الْحُرِّيَّةُ الْمُطْلَقَةُ مَعَ الشَّعُورِ بِالْمَسْؤُلِيَّةِ إِزَاءِ الْآخَرِيْنَ، وَلَا مَعْنَى فِيهَا حَتَّى اللِّتَّائِيُّ وَالْإِقْتِدَاءُ. الْوُجُودِيُّ يَقُولُ: مَا دَمْتُ حُرًّا فَأَنَا مَسْؤُلٌ عَنِ النَّفْسِيِّ. وَلَمَا كَانَ كُلُّ طَرِيقٍ اخْتَارَهُ اعْتِقَادًا مَنِيَّ بِأَنَّهُ طَرِيقًا جَيِّدًا - إِيَّ بَدْلَةِ التَّزَامِيَّةِ عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ طَلَبَةِ الْعِلُومِ الْدِينِيَّةِ - فَأَقُولُ لِلْآخَرِيْنَ اتَّخِبُوا طَرِيقَهُمْ إِيَّاً إِيَّاً. إِيَّيِّي أَضْفِيَ الْكُلِّيَّةَ عَلَى طَرِيقِيِّ وَأَقُولُ أَنَّهُ طَرِيقًا جَيِّدًا لِي فَحَسِبٌ وَإِنَّمَا لِلْجَمِيعِ إِيَّاً. فَأَنَا ادْعُو الْآخَرِيْنَ إِذَا إِلَى هَذَا الطَّرِيقِ إِيَّاً، وَالْآخَرِيْنَ - كَمَا قَلَّنَا - احْرَارٌ إِيَّاً، وَلَيْسَ

هناك شيء مؤثر على ارادة الناس مثل التأثير على انتخابهم . ثانياً - مع افتراض قبولنا بهذا الكلام - وهو صحيح ضمن هذا المد ، ولدينا حديث يقول : «كونوا دعاة الناس بغير المستنكر» ، يعبر عن هذا المضمون - وهو أن العمل الذي اقوم به عمل صحيح من وجهة نظري ، وأحضر الآخرين عملياً على القيام به ، وهذا يعني انني مؤثر في انتخاب الآخرين و اختيارهم . غير أن هذا التأثير في انتخاب الآخرين مختلف عن الشعور الباطني بالمسؤولية . فيجب أن تكون هذه المسؤولية منبثقة عن ضميري . فـ «انا مؤثر» ، ليست أسمى من ادرارك انني عامل شقاء الآخرين ، لكن من هو الذي يخلق عندي التزام أن لا اعمل واقول انني لا اعمل لاني مسؤول ؟ ومن الذي سيسألني ؟ وهل هناك رب يسأل ؟ فاذا قلت لا ، فهل هو الضمير ؟ و اذا قلت لا ، فمن هو إذأ ؟<sup>(١)</sup> .

### نسيان القيم الانسانية

قالوا أن الاعيان بالله يعمل على نسيان القيم الانسانية ، وتقول أن الاستغراق في الاجنبي يؤدي بالانسان إلى نسيان قيمه الذاتية ، بينما الاستغراق في عين «الذات» وعين الكمال ، يؤدي إلى مزيد من الاحياء لهذه القيم . وهذا تقوى القيم الانسانية عند أولئك الذين يتسامون في مقام العبودية ، فيقوى لديهم العقل ، والحب ، والقدرة ، والمعشرة ، والعزة ، والكرامة ، لأن هذه المفردات كافية ، مظاهر الذات الالهية .

وقالوا : أن الارتباط بالله تعالى يعمد على توقف الانسان و خمود حركته ، ولا بد أن تقول بأنهم يتصورون الله وكأنه شجرة ، فإذا ما ارتبط به احد ، تحدد ولم يعد بإمكانه أن يتحرك وينطلق . ايها السيد الوجودي ! الله حقيقة لا متناهية . فحيثما يعيش الانسان أو يُسجن في دائرة محدودة كأن يكون محيطها

(١) تكامل الانسان الاجتماعي ، ص ١٢٠-١٢٢ .

مائة فرسخ، فهو تحديد له حقاً وتقيد. أما إذا وضع هذا الإنسان في أجواء غير متناهية، فليس هذا تحديداً له، لانه لا توقف في الالاتاهي. أي ايهما الانسان! لو انك تتحرك نحو ما لا يتناهى، فاغا تتحرك نحو الكمال. فالله موجود غير محدود، ولو تحرك نحوه حتى اكمل الناس - أي الرسول ﷺ - لظل يتحرك نحو الامام ولا يصل إلى النهاية ابداً، لأن الله موجود لا نهاية له، وهذا هو الميدان الوحيد الالاتاهي للانسان.

هناك نقاش يدور بين العلماء حول قضية الصلوات وما معنى الصلاة على الرسول ﷺ وما هو تأثير أن نطلب من الله تعالى الرحمة والخير للنبي؟ ويقول البعض أن الرسول انسان كامل، فما معنى إذاً أن نسأل الله الرحمة له؟ ويقال في الاجابة أن الرسول محمدًا ﷺ هو الآخر يتحرك «آنأً فآنأً» اي في حالة حركة وانطلاقه دائمة ابدية، وليس هناك من نهاية لهذا الطريق. فالارتباط بذات الله اذاً لا يؤدي إلى تحول «صيروحة» الانسان إلى «كينونة».

### الكمال الهدفي والكمال الوسيلي

هناك موضوع آخر وهو أن هؤلاء السادة الوجوديين يخلطون بين الهدف والوسيلة. فالحرية كمال للانسان، لكنها «كمال وسيلي» لا «كمال هدفي». فهدف الانسان ليس أن يكون حراً، وإنما يجب أن يكون حراً كي يصل إلى كمالاته، لأن الحرية تعني الاختيار، والانسان هو الموجود الوحيد بين الموجودات الذي يجب عليه أن يختار طريقه، أو بتعبير أدق أن يختار ذاته.

فالانسان حر ومحتر، لكن هل «انه يصل إلى كماله لانه حر» ام «انه مختار في انتخاب كماله»؟ فمن الممكن أن يبلغ الانسان بالحرية اسمى الكمالات وارفع المقامات، ومن الممكن أن يهبط بها إلى اسفل السافلين.

فالكائن المختار هو الكائن الذي وضع زمامه في عنقه وقيل له أيهما الانسان! أنت كائن هذه الطبيعة البالغ العالم. فكل الموجودات الاخرى، غير بالغة ولا

بدأن تُدار أمورها إلا أنت، لأنك مختار وحر: «إنا هدينناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً»<sup>(١)</sup>. أي إننا قد هدیناك وما عليك سوى الانتخاب.

فالحرية بذاتها ليست الكمال الإنساني، وإنما وسيلة إلى الكمال، أي لو لا الحرية لما كان بمقدمة الإنسان أن يحصل على الكمال. فالمحظوظ ليس بإمكانه الوصول إلى مرحلة الكمال. فالحرية اذاً «كمال وسيلي»، لا «كمال هدفي».

والتمرد هو هكذا أيضاً. فهم يقولون أن الإنسان لما كان حراً، فبإمكانه أن يتمرد ويثور؛ أي بإمكانه أن يقف بوجه كل شيء فيرفضه ولا يقبله، كما تصوروا أن التمرد نفسه كمال للإنسان؛ والإنسان الحر إنسان لا يستسلم لأي شيء، ويتمرد على كل شيء.

وبما انهم يولون أهمية ذاتية للتتمرد، فلا بد أن تكون الفوضى ضرورة حتمية لهذا المذهب. فالمذهب الذي يحظى فيه التمرد بقيمة ذاتية، يستلزم الفوضى والهرج. وحاول سارتر كثيراً لإقصاء هذه التهمة عنه وعن مذهبه، إلا أنه لم يفلح في ذلك، فالمذهب الذي يقول بقيمة ذاتية للتتمرد لا يمكن أن يكون بمنأى عن الفوضى والاضطراب. في النظام الإسلامي يُعد «إمكان التمرد»، قيمة للإنسان، أي أن في إمكان الإنسان أن يتمرد وفي إمكانه أن يطيع؛ في إمكانه أن يسمو، وفي إمكانه أن يهبط. فهل الذي لا يتمرد، أسمى من الإنسان؟ كلا، إنه لا يتمرد لانه لا يستطيع التمرد. فالقابلية على الطاعة تساوي القابلية على التمرد، وهذا تعدد كمالاً للإنسان. ولا تملك الموجودات الأخرى مثل هذه القابلية، وهذا فانها ليست مكلفة ولا حرة ولا مختارة.

نعم، هناك رجوع بعد التمرد يدعى «التوبة» يُعد كمالاً للإنسان أيضاً. فالرجوع عن التمرد، يتحقق اسم من أسماء الله تعالى، أي اسم «الغفور». فاذا لم

---

(١) الدهر / ٣.

يُكَنْ هُنَاكَ تَرَدْ وَتَوْبَةً، لَمْ يُكَنْ هُنَاكَ غَفَرَانًا إِيَّاً، كَمَا لَمْ يُكَنْ هُنَاكَ رَبَّ غَفُورًا. أَيْ لَا تَتَحَقَّقُ هَذِهِ الْمَغْفِرَةُ بِالْتَّرَدِ وَحْدَهُ، وَأَيْمًا بِالْتَّرَدِ وَالتَّوْبَةِ. فَالْتَّرَدُ سَقْوَطٌ وَالتَّوْبَةُ عُودَةٌ. وَتَتَحَقَّقُ مَغْفِرَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِهَذَا السَّقْوَطِ وَالْعُودَةِ.

وَرَدَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ مَا مَعْنَاهُ لَوْلَمْ يَعْصِي النَّاسُ الَّذِينَ خَلَقْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ، لَخَلَقْتَ مُوْجَدَاتٍ غَيْرَهُمْ تَعْصِي ثُمَّ تَتَوَبُ حَتَّى أَغْفِرَ لَهُمْ. وَمِنْ هَذَا نَفْهَمُ أَنَّ الْعُصَيْانَ أَوَ التَّرَدَ لَيْسَ قِيمَةً بِذَاتِهِ.

فَالْحُرْيَةُ تَعْنِي إِذَاً عَدْمُ وُجُودٍ حَاجِزٌ أَوْ عَائِقٌ أَوْ جَبْرٌ أَوْ قِيدٌ فِي طَرِيقِ وَحْرَكَتِي؛ فَإِنَّا حُرٌّ وَبِامْكَانِي أَنْ اطْوَى طَرِيقَ كَمَالِي. وَلَيْسَ الْحُرْيَةُ بِعْنِي أَنِّي بَلَغْتُ كَمَالِي بِحُرْيَتِي. فَالْحُرْيَةُ مُقْدَمَةُ الْكَمَالِ وَلَيْسَتْ كَمَالًا. فَالْمُوْجَدُ الَّذِي لَا بُدُّ لَهُ أَنْ يَقْطَعَ طَرِيقًا مَا وَخَلَقَ حَرًّا وَمُخْتَارًا وَأَزْيَحَتْ كَافَةَ الْعَقَبَاتِ وَالْعَرَقِيلِ عَنْ طَرِيقِهِ، قَدْ بَلَغَ مَرْحَلَةَ الْحُرْيَةِ وَلَا شَكٌ، إِلَّا أَنْ بَلَوغَ مَرْحَلَةَ الْحُرْيَةِ يَعْنِي بَلَوغَ مُقْدَمَةِ الْكَمَالِ، إِيَّاهُ حُرٌّ فِي قَطْعِ طَرِيقِ الْكَمَالِ.

إِذَاً فَالْخَطَأُ الْأَوَّلُ الَّذِي ارْتَكَبَهُ هَذَا الْمَذَهَبُ هُوَ تَصْوِيرُهُ بِوُجُودِ تَعَارُضٍ بَيْنَ حُرْيَةِ الْإِنْسَانِ وَاخْتِيَارِهِ وَبَيْنَ وُجُودِ اللَّهِ. وَالْخَطَأُ الثَّانِي تَصْوِيرُهُ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَالْأَرْتِبَاطَ بِهِ، عَلَى غَرَارِ الْأَرْتِبَاطِ بِالشَّيْءَاءِ يَؤْدِي إِلَى الْجَمْودِ وَالتَّقْوَعِ وَالضَّلَالِ وَانْهِيَارِ القيَمِ. وَالْخَطَأُ الثَّالِثُ اعْتِقَادُهُ أَنَّ الْحُرْيَةَ تَمَثِّلُ الْكَمَالَ النَّهَائِي لِلْإِنْسَانِ، فِي حِينَ أَنَّهَا مُقْدَمَةُ الْكَمَالِ الْإِنْسَانيِّ.

فَهَلْ الْحُرْيَةُ كَمَالٌ؟ لَا شَكٌ فِي أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يُتَاحُ لَهُ بَلَوغُ الْكَمَالِ بِدُونِ وُجُودِ الْحُرْيَةِ. فَاللهُ تَعَالَى قَدْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لِلَّوْصُولِ إِلَى كَمَالِهِ عَنْ طَرِيقِ الْحُرْيَةِ وَالْأَخْتِيَارِ. وَطَرِيقُ الْكَمَالِ لَا يَكُنْ أَنْ يَطْوِي إِلَّا أَنْ يَضْعِفَ الْإِنْسَانَ قَدْمَهُ فِيهِ بِالْأَخْتِيَارِ وَالْحُرْيَةِ. وَحِينَما يَحْلِّ الْجَبْرُ يَتَعَذَّرُ طَرِيقُ (١).

(١) الْإِنْسَانُ الْكَامِلُ، ص ٣٤٥ - ٣٤٩



## **الفصل الرابع**

### **الحرية الاجتماعية**



الانسان بحاجة إلى حيزين منفتحين وبدون عراقيل<sup>(١)</sup>: حيز المجتمع والخارج، وحيز الروح والباطن<sup>(٢)</sup>... وهو بحاجة في الحيز الاجتماعي إلى الحياة الاجتماعية والبيئة الاجتماعية. ويجب أن يكون الحيز الاجتماعي مشجعاً على التربية والتضييق والتكامل، وأن يكون حالياً من العارقين والعقبات التي تحول دون نمو الافراد وتكاملهم أو دون استخدامهم لحقوقهم الطبيعية والاجتماعية. فالافراد يتمتعون في المجتمع عادة بسلسلة من الحقوق التي يعتمد نوهم وتكاملهم على استحسانها وتحقق الواجبات التي تتصل بها. ولا بد لافراد المجتمع أن يحترم بعضهم حقوق البعض الآخر، وحرفيتهم في استخدام هذه الحقوق.

وقد اثبتت التاريخ دائماً تعرض الحرية الفردية والامن الفردي للخطر من قبل الآخرين. وطالما تعرض تعليم الافراد وتراثهم للخطر ايضاً من قبل الآخرين، لأنهم وبدلاً من التعليم الصحيح والتربية الصحيحة يلتجأون إلى تقديم ما هو غير صحيح أو غير سليم من التربية والتعليم، كما أن استبعاد

(١) تراجع نهاية «الطريق المطوي» والمحدث عن وجود حيائين وشخصيتين للانسان: فسلبية ونفسية.

(٢) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٨٣.

(٣) تم استعراض مثل هذا الموضوع في الحديث عن الثورة الاسلامية، ص ٧.

الافراد واستغلاهم واسرهم على يد افراد آخرين وامم اخرى، مظهر آخر من مظاهر انتزاع الحرية.

وقد اكد القرآن الكريم وببلغة في منتهى البلاغة على ضرورة الحرية الاجتماعية: «قل يا أهل الكتاب تعالوا... ولا يتخذ بعضاً ارباباً من دون الله»؛ «اتخذوا احبارهم ورهبانهم ارباباً من دون الله»؟ «يعبدونني ولا يشركون بي شيئاً»؛ وعن لسان موسى عليه السلام: «وتلك نعمة تمنها عليّ أن عبّدت بنبي إسرائيل»؛ وعن لسان فرعون: «وقومهما لنا عابدون».

وتحدث علي عليه السلام في الخطبة القاسعة عن قوم موسى قائلاً: «اتخذتهم الفراعنة عبیداً»، وعن عرب الجاهلية: «كانت الاكاسرة والقياصرة ارباباً لهم يحتذونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق، وخضرة الدنيا، إلى منابت الشيخ» (يبدو المراد بها شواطئ الخليج الفارسي).

فالحرية الاجتماعية إذاً ذات مكانة مقدسة جداً في الاسلام. فقد قال علي عليه السلام: «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرراً». فالنظام الاجتماعي والسياسي في الاسلام يقوم على اساس احترام الحريات الاجتماعية.

فحكم الخلفاء الراشدين، كان حكماً ديمقراطياً ينأى عن كل نوع من انواع الاستبداد وقع الحرية وتهديد الامن، فالديمقراطية بشكل عام اما هي من أجل تأمين الحرية. وتشهد خلافة الامام علي عليه السلام على ما اشرنا اليه لانه ليس لم يكم الافواه ولم ينتزع حق الانتقاد بذرية الاخلاق بالامن فحسب، واما كان يدعوه إلى الانتقاد ايضاً<sup>(١)</sup>. فالامام علي عليه السلام لم يقطع عن الخوارج سهمهم في

(١) قال في الخطبة ٢١٤: «فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تحفظوا مني بما يتحفظ به عند اهل البادرة، ولا تغالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استقالاً في حق قيل لي ولا القاس اعظم لنفسي، فإنه من استقل الحق أن يقال له والعدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما اقل عليه. فلا تكفو عن مقالة بحق أو مشورة بعدل».

وقال في كتاب له إلى اهل الكوفة عند مسيره من المدينة إلى البصرة (الكتاب ٥٧، نهج البلاغة): اما

←

بيت المال ولم يهدد حياتهم بذرية عدم مبaitته، أو الترد عليه والخروج عن طاعته، أو إهانتهم له وقولهم بخروجه عن الدين. ولم يقف بوجههم ويتصدى لهم إلا حيناً تطاولوا على أموال المسلمين وأرواهم. بل انه لم يبادئهم الحرب واغروا وقف ناصحاً واعظاً في بداية الامر<sup>(١)</sup>.

### الأنبياء والحرية الاجتماعية

من اهداف الانبياء التي تحدث عنها القرآن الجيد هي منح الحرية الاجتماعية للانسان، اي اقاذة من الاسر والعبودية. فالقرآن كتاب عجيب! بعض معاني هذا الكتاب ومفاهيمه تبرز وتتجلى وتسامى في عصر دون عصر آخر. فلو راجعناه لوجدنا كم هي عظيمة الكلمة التي قالها على صعيد الحرية الاجتماعية، والتي تعد ملحمة من الملحمات القرآنية. ولا اعتقاد أن بامكانكم أن تعثروا في اي زمان على عبارة اكثراً حيوية وتسامياً من عبارة القرآن في هذا المجال، لا في القرن الثامن عشر، ولا في القرن التاسع عشر، ولا في القرن العشرين، هذه القرون التي رفع الفلسفه فيها شعار الحرية الانسانية والتي راح خلالها الناس يتحدثون واكثر من اي عصر آخر عن الحرية. هل هناك عبارة اكثراً حيوية وابلغ من العبارة القرآنية التالية:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلْمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالآلية تدعى الرسول أن يقول لكافة أولئك الذين يدعون الاقتداء بكتاب سماوي كاليهود والنصارى والمجوس وربما حتى الصابئة الذين ورد اسمهم في

→ بعد فاني خرجت من حبي هذا إما ظالماً، وإما مظلوماً، وإما باغياً، وإما مبغياً عليه، واني اذكر الله من بلげ كتابي هذا لما نفر اليه، فإن كنت محسناً اعاني وإن كنت مسيئاً استعذني (اي طلب مني أن ارضيه بالخروج عن إسلامي).

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٩٦ و ٩٧.

(٢) آل عمران / ٦٤.

القرآن، وكافة الامم التي لها كتاب سماوي قديم: تعالوا لنجتمع جميعاً حول كلمة واحدة وتحت لواء واحد. ماذا يحمل ذلك اللواء؟ انه يحمل عبارتين: الاولى: ﴿إِنَّا لَا نُعْبُدُ إِلَّا اللَّهُ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً﴾، اي لا نعبد سوى الله الواحد الاحد، فلا نعبد المسيح ولا غير المسيح، ولا نعبد الشيطان، ولا نعبد اي موجود آخر سوى الله.

والثانية: ﴿وَلَا يَتَخَذُ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾. اي أن لا ينظر احدنا إلى الآخر عبداً له، كما لا ينظر اي احد إلى شخص ما سيداً له، اي الغاء نظام السيادة والعبودية، والغاء نظام الاستعباد والاستغلال، والغاء نظام اللامساواة، ولا حق لأي احد أن يستعبد غيره أو يستغله.

وليس هذه الآية، هي الوحيدة التي تتحدث على هذا الصعيد، فهناك العديد من الآيات القرآنية التي تتناول هذه الموضوع، منها تلك الآية التي تتحدث عن لسان موسى عليه السلام خلال محااججته لفرعون. فقد قال له فرعون: ﴿أَلَمْ نَرِبْكُ فِينَا وَلِيَدَا وَلَبِثْتُ فِينَا مِنْ عُمْرِكَ سَنِينَ وَفَعَلْتُ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>. فأجابه موسى: ﴿وَتَلِكَ نِعْمَةٌ مَّنْهَا عَلَيْهِ أَنْ عَبَدَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾<sup>(٢)</sup>. اي أن فرعون قد قال لموسى عليه السلام: أسلست ذلك الذي نشأت في بيتك وكبرت على مائدتنا، ثم ارتكبت تلك الجريمة (على حد تعبير فرعون) وقتلت ذلك الرجل؟ أراد فرعون بهذه الكلمات أن يعن عليه. فقال له موسى: وهل هذا كلام؟! فهل تريد مني أن اسكت عن اتخاذك لقومي عبيداً لك، لأنني نشأت في بيتك؟ اني اغا جئت لتحريرهم من هذه العبودية.

ويقول المرحوم آية الله النائيني في كتاب «تنزية الامة»: الجميع يعلم بأن قوم موسى - اولاد يعقوب - لم يعبدوا فرعون كالاقباط، لكن لما كان فرعون قد استخدمهم كالعبيد، فقد اشار القرآن إلى ذلك بـ«التعبيد»، عن لسان

(١) الشعراء/١٩ و١٨.

(٢) الشعراء/٢٢.

موسى.

ولا شك في أن تأمين الحرية الاجتماعية يُعدّ من اهداف الانبياء، وأنهم قد قارعوا انواع العبوديات الاجتماعية وانتراع الحريات. ويعتبر العالم المعاصر، الحرية الاجتماعية مقدسة من مقدساته، ويمكن أن ندرك ذلك من اللائحة العالمية لحقوق الإنسان التي ورد فيها: أن السبب الأساس الذي يقف خلف كافة الحروب، واراقة الدماء، والنكبات في العالم، هو عدم احترام حرية الإنسان من قبل الآخرين.

فهل يتفق منطق الانبياء هنا مع المنطق الراهن؟ وهل الحرية مقدسة؟ نعم الحرية مقدسة، ومقدسة جداً. وللسoul الاكرم كلام متواتر يقول: «اذا بلغ بنو ابي العاص ثلاثة، اتخذوا عباد الله خولاً ومال الله دولاً ودين الله دخلاً»<sup>(١)</sup>. فكان الرسول ﷺ يتوجس خيفة من الامويين ويشعر بالقلق منهم على مستقبل الامة. وهذا الحديث يكشف عن القدسية التي تتمتع بها الحرية الاجتماعية<sup>(٢)</sup>.

علاقة الفرد بالمجتمع، لا بد أن تقوم على اساس حرية الافراد إلى اقصى حد ممكن. ومن البديهي أن الحرية المطلقة امر غير ممكن في المجتمع، فالطبيعة الاجتماعية تقتضي تحديد الحريات، اي أن تتحدّد حرية كل فرد بحرية الفرد الآخر، وأن توزع الامكانيات الاجتماعية بشكل عادل بين الافراد، وأن لا تكون الانظمة الاجتماعية أنظمة معرقلة، وأن يحصل الافراد على اكثـر ما يمكن أن يساعدـهم على التطور والتكمـل، اي أن تُتاح الامكـانيات لكـافة افراد المجتمع بشكل متساوـي في اقصـى ما يمكنـ.

ومن هنا ليس باستطاعتنا القول بأن المجتمع الراهن قد بلغ الكمال. فـما اكـثر الامـكـانيـاتـ التيـ كانتـ لدىـ البعضـ أوـ الكـثيرـ منـ المـجـتمـعـاتـ قبلـ ٢٠٠ـ عامـ أوـ

(١) مجـمـعـ الـبـرـيـنـ،ـ الطـرـيجـيـ.

(٢) الحرية المعنوية، ص ٢٠ - ١٨.

٣٠٠ عام أو الف عام، والتي تفوق بكثير ما لدى مجتمعنا في هذا العصر. اي أن التحديات الاجتماعية التي ظهرت إلى الوجود في عصرنا الراهن، لم تكن موجودة قديماً لا سيما على صعيد قضية الحرية الفكرية، وهي قضية في غاية الاهمية: حرية الانتخاب والحرية الفكرية. ومن الحقوق التي يجب أن يتمتع بها الانسان هي أن توفر له الامكانيات والظروف ولكن من دون أن يفرض عليه امر ما. فقد يفرض عليه في بعض الاحيان حتى الفكر، والذوق، والعاطفة؛ وهذه هي مأساة الحضارة الجديدة. فانظروا إلى وسائل الاعلام كيف تعمل على مسخ الناس في عصرنا الراهن. اي انهم طفقوا في صنع الناس بالطريقة التي يرغبون فيها لا كما تقتضي مصالح الناس الحقيقية، ولا طبقاً لما يختاره هؤلاء الناس لأنفسهم. فحينما يريدون شيئاً ما، ينطلقون دائماً ملء اسماع الناس به وتحريكه امام عيونهم، فيفرضونه عليه بهذه الطريقة من خلال مسخ روح الانسان وانتزاع كل قدرة له على التفكير.

والطريقة التي يتم بها مسخ الانسان في الحضارة الحديثة، لا نجد لها نظيراً في اي عصر آخر. فهي في هذا اليوم تجري وفق اسلوب لا يسمح لأي انسان أن يكون حراً في انتخاب اي شيء، رغم ارتفاع مستوى هذا الانسان على صعيد العلم والمعرفة. فإذا ما أراد أن يتنقّل بسألاً له، فانهم يتخذون الف اسلوب واسلوب من أجل أن يليسو نتاج المعلم الفلاحي. انهم يفتعلون زوبعة إعلامية، وعاصفة من الدعايات التلفزيونية لبضاعة ما كالملابس، بحيث لو لمحها احد المارة وهي معروضة على المنكين في احد المتاجر بألف سحر وسحر لجذب اليها هذا البائس من حيث لا يدري واقبل على شرائها. فلربما لم يكن لدى احدهم نية لشراء هذه البضاعة إلا انه يقع آخر الامر في قبضة الاستغفال والتخدیر، وحينما يعود إلى نفسه يجد انه يحمل عدة قطع من اللباس تحت ابطه وهو يخرج من ذلكabant. فهو مجر اذاً على ارتداء هذا اللباس، وهو مفروض عليه في حقيقة الامر. الواقع أن هذا النوع من الاجبار

يُعد من الانواع البسيطة، حيث هناك اجبار يفرض من خلاله الفكر والذوق والعاطفة وكل شيء.

فأي كمال هذا للانسان؟ واما هو ذات الشيء الذي أسموه انفسهم: «الاغتراب عن الذات»، إلا انه اغتراب عن الذات في الحضارة الحديثة. فالانسان اليوم وفي ذات الوقت الذي تحرر من اسر الطبيعة بشكل نهائى، إلا انه اصبح اسيراً لانسان آخر وبشكل آخر، فبرز بذلك نوع آخر من انواع العبودية.

وعلى هذا الاساس ليس بامكانتنا أن نقول بأن المجتمع الانساني قد تكامل، حتى اذا قلنا أن الكمال في المساواة، حيث لا وجود للمساواة في اي مكان من العالم<sup>(١)</sup>. ولو قلنا أن الكمال في الحرية، فلا وجود للحرية في العالم. واذا اخذنا تلك الكلمات التي تحدث عنها الحكماء والعرفاء بنظر الاعتبار - أي أن كمال الانسان في المحكمة وفي الوصول إلى الحق - فلم يعد الانسان يعبأ بمثل هذه القضايا<sup>(٢)</sup>.

### أهمية الحرية في التفكير

تعد الحرية الفكرية والعقائدية احد انواع الحريات الاجتماعية. فالانسان لا بد له أن يكون حرّاً في كافة شؤونه الحياتية، وأن لا يقف أي سد أو عائق في وجه تقدمه وحركته. فالحرية الفكرية من اكثرا المواهب قدسية عند الانسان والتي يحتاج إليها حاجة ماسة - وسأتحدث فيما بعد على الفرق بين الفكر والعقيدة -، فالتفكير هو من أهم عناصر الانسان التي لا بد من تربيتها، ولابد من وجود الحرية الفكرية عند الانسان لأن التربية الفكرية بحاجة إلى حرية، اي إلى عدم وجود عوائق وعمرقلات تعرقل التفكير. وتُطرح اليوم في عالمنا

(١) اللامساواة في هذا اليوم اكبر مما هي عليه في الماضي.

(٢) فلسفة التاريخ، ص ٢٥٩ - ٢٦١.

المعاصر قضية بالغة الاهمية باسم «حرية العقيدة»، لا سيما بعد الاعلان العالمي لحقوق الانسان. وقد جاء في مقدمة هذا الاعلان: «علن عن ظهور عالم الناس فيه احرار في التعبير عن عقائدهم ولا مجال فيه للخوف والفقر، وهو ما يمثل اسماً الاهداف البشرية». والعقيدة هنا عامة بما فيها العقيدة الاجتماعية، والسياسية، والدينية. وهذا يعني أن المطمح الانساني الكبير هو ظهور عالم حر يُتاح فيه لكل أحد التعبير عن عقيدته ورأيه بحرية، ولكل أحد الحق في انتخاب العقيدة التي تروق له، والتعبير عنها بحرية، ولا بد في عالم كهذا أن يزول الخوف، والقلق، ويستتب الامن بشكل كامل، ويعم الرخاء الاقتصادي. وهذا هو العالم الذي أُعلن عنه كهدف انساني. وجاء في المادة (١٩) من ذلك الاعلان: «لابد لكل أحد من المتع بحق حرية العقيدة والبيان، ويشمل هذا الحق عدم شعوره بالخوف والاضطراب لما لديه من عقائد. وأن يكون حراً في اكتساب المعلومات والافكار ونشرها بكلفة الوسائل الممكنة وبدون اية اعتبارات حدودية».

ونريد أن ندرس هذه القضية من وجهة النظر الاسلامية ونرى هل يقر الاسلام حرية الفكر والعقيدة، اي هل أن الاسلام يتبنى هذه الحرية ام لا يتبنّاها؟ ولا بد لنا على هذا الصعيد أن نفرق بين الفكر وبين ما يُسمى اليوم غالباً بالعقيدة. فهناك تفاوت بين الفكر والتفكير وبين العقيدة. فالتفكير قوة لدى الانسان ناشئة عن التعقل<sup>(١)</sup>.

الحرية الفكرية نابعة عن الموهبة الانسانية التي تتيح له التفكير في القضايا، ولا بد أن تكون هذه الموهبة حرة باستمرار لأن التطور والتكامل الانساني رهين بها<sup>(٢)</sup>.

فالتفكير منطق، والانسان لديه قوة باسم قوة التفكير، وبإمكانه أن يحسب

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٩١ و ٩٢.

(٢) حول الثورة الاسلامية، ص ٢٧.

ويختار في القضايا على أساس الفكر والمنطق والاستدلال<sup>(١)</sup>.

وبما أن الإنسان موجود عاقل وتفكير، لهذا يتميز بالقابلية على التفكير في القضايا، مما يتتيح له اكتشاف الحقائق إلى حد ما وبما تسمح له به طاقاته، منها كان نوع ذلك التفكير، سواء كان تفكيراً استدللاً واستنتاجياً وعقولياً أو تفكيراً تجريبياً. فالله قد وهب الإنسان مثل هذه القوة، ومنحه العقل كي يفكر به ويكتشف الجهولات، لأنه يرد على هذا العالم جاهلاً: ﴿وَاللَّهُ أَخْرُجَكُمْ مِّنْ بَطْوَنِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾.

فالإنسان يطلّ جاهلاً على الدنيا ولا بد له أن يعلم. فكيف يعلم؟ يجب أن يعلم عن طريق التفكير والدراسة، والتفكير هو أن يفكر الإنسان في كل قضية بما لديه من استعداد وموهبة و يصل إلى النتيجة عن طريق علمي، وهل بإمكان الإسلام أو آية قوة أخرى أن تقول بأن الإنسان لا حق له في التفكير؟ كلا، فالتفكير عمل ضروري لا غنى عنه، ولا بد للبشرية منه. والإسلام ليس قد منح حرية التفكير فحسب وإنما عدّها كأحدى الواجبات، وإحدى العبادات. وقلما ندرك أهمية تأكيد القرآن على التفكير لأننا نقتصر مطالعتنا عليه ولا نطالع كتاباً آخر غير القرآن - سواء كان دينياً أو غير ديني - يؤكّد كل هذا التأكيد على التفكير ويدعو الإنسان إليه إلى هذا الحد. انه يبحث على التفكير وباستمرار وفي كافة الحالات: في التاريخ، والخلقية، والأخلاق، والأنبياء، والنبوة، والمعاد، وتعاليم الانبياء. وهو يحفل بالحدث على التفكير في مثل هذه القضايا. وقد عد الإسلام التفكير عبادة. وهناك العديد من الأحاديث التي تدور حول هذا المضمون: «تفكير ساعة خير من عبادة سنة»، و«تفكير ساعة خير من عبادة ستين سنة» و«تفكير ساعة خير من عبادة سبعين سنة». وهذا التغيير في التعابير وكما ذهب إلى ذلك الكثير من العلماء يعود إلى الاختلاف في نوع التفكير وموضوعه. وهناك تفكير يقود

(١) المهد، ص ٥٥.

الانسان لما يعادل عاماً من العبادة، وهناك تفكير آخر يقوده لما يعادل ستين عاماً من العبادة وآخر لما يعادل سبعين عاماً. وقد ورد في الاحاديث: «كان اكثرا عبادة ابي ذر، التفكير». فأبو ذر الذي يلي سليمان أو يقف معه في مستوى ايقاني واحد. ويمكن القول بأنه لم يأت احد نظيراً لها في الاعيان بعد المعصومين - كان كثير العبادة لله، إلا أن التفكير كان اكبر عبادته<sup>(١)</sup>.

### ضرورة الحرية الفكرية في استنباط اصول الدين

اضف إلى ذلك، يوجد في الاسلام مبدأ يتعلّق باصول الدين يمثل وجه امتيازنا عن الاديان الاخرى، لا سيما المسيحية. فالاسلام يؤكّد على عدم قبول الاصول العقائدية إلا عن طريق الفكر والاجتهداد الفكري. فأنت يجب أن تكون موحداً، عارفاً بالله. أما لماذا يجب أن اعرف الله؟ وما هو الدليل؟ يقول انت الذي يجب أن تعرف الدليل. وهذه قضية علمية وفكرية وعقلية على غرار ما يقول المعلم للتلميذ: اذهب أنت وجد حلاً لهذه المسألة الحسابية بنفسك، اذ لا فائدة ترجى لو فعلتُ هذا لك، وانها ستفيض لك لو كنت انت الحال لها. فالاسلام يقول بصراحة «لا اله إلا الله»، وهذه مسألة، لا بد لك أن تحملها انت بفكرك، فلا يكفيك أن تؤمن بها أو تدركها، بل لا بد لك أن تحملها بنفسك وتقيم البرهان عليها.

والاصل الاسلامي الثاني بعد «لا اله إلا الله» - أو التوحيد - هو «محمد رسول الله». ويقول الاسلام بأن هذا الاصل، مسألة اخرى لا بد لك أن تحملها كالتلميذ، أي أن تفكّر كي تصل إلى الحل. كذلك المعاد، فلا بد لك أن تحمله كي تحمل المسألة، فلا بد لك أن تفكّر ولا بد لك أن تؤمن. وكذلك الامر بالنسبة للاصول الاسلامية الاخرى، وإن كان حل المسألتين الاوليتين يساعد على حل المسائل اللاحقة، إلا أن الاصول العقائدية ليست تقليدية وانما هي

---

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٩٣ و ٩٤

اجتهادية، اي لا بد لكل احد أن يحملها بفكرةه.

إذاً هذا أول دليل على أن التفكير في اصول الدين ليس جائزأً ولا مانع فيه فحسب في الاسلام، وانما هو واجب ايضاً، اي أن تفهم على الاقل أن لك رباً وانه واحد، وأن لكنبياً جاء بالقرآن من الله. ولا يقبل الاسلام مجرد تلفظ هذه الاصول وانما يجب أن يكون ذلك عن تفكير.

وهنا يتضح التفاوت بين الاسلام والمسيحية بشكل خاص وسائر الاديان بشكل عام. فنجد في المسيحية عكس هذا الامر تماماً، اي انها تعد اصولها ما وراء العقل والفكر. وقد وضعوا اصطلاحاً من عندهم يقول: هنا دائرة الایمان لا دائرة العقل، اي أن للایمان منطقة خاصة به وللتفكير منطقة اخرى. وقالوا بأن العقل والفكر شيء، والایمان والتسليم شيء آخر. فأنت لا حق لك في التفكير في دائرة الایمان، لأن هذه الدائرة دائرة المخصوص والتسليم. فانظر مدى التفاوت بين الدينين! فأحدهما يعلن أن اصوله منطقة محظمة على العقل والفكر، والثاني ليست دائرة اصوله غير محظمة فحسب، وانما لا بد للعقل أن يدخل إليها ايضاً، لانه لا قبول بدون هذا الدخول. وهذا هو معنى الحرية الفكرية.

اذًا هل للانسان الحق في التفكير في هذه القضايا من وجهة النظر الاسلامية؟ نعم، بل لا بد له من التفكير. ولو خطر في ذهن احد ما خاطر منطق فيما يتعلق بالله، أو بالقيامة، أو بالنبوة، أو دار في فكره إشكال ما على صعيد هذه القضايا، فهل له الحق أن يعرض هذا الإشكال على الآخرين ويطلب منهم حللاً له؟ نعم، انه حر في ذلك ولا بد من حل إشكاله أو شبهته، بل أن السؤال على صعيد قضايا اصول الدين، امر واجب ولازم. فقد كان المسلمون يسألون الرسول ﷺ، وعليها طليلاً وسائر الآئمة الاطهار، وكانت استئلتهم كثيرة، وكان الآئمة يجيبون عليها. وكثُب الاحتجاج التي لدينا وغيرها من الكتب، تكشف عن الحجم الهائل من الاستئلة على صعيد اصول الدين

ومدى حرية السؤال وحرية التعبير في هذا المجال. فما دام الانسان يتمتع بروح البحث والتحقيق، وما دام دافعه الاستقصاء والبحث والدراسة، فالاسلام يدعوه نحو التفكير ويقول له تعال فكر، فهـما كثـر لديك التـفكـير والـسـؤـال وـمـهـما كـثـر عندك الشـكـ، فـستـقـتـرـبـ فيـنـهاـيـةـ المـطـافـ اـكـثـرـ فـأـكـثـرـ منـ الحـقـيقـةـ. وـهـذـهـ القضيةـ، نـسـمـهـاـ قضـيـةـ الفـكـرـ<sup>(١)</sup>.

فحرية التفكير، شرط لا بد منه في رقي الافكار وتبورها. وعلى الناس أن لا يخشوا من التفكير حتى بالصورة المعنوية الدينية، لأن ذلك نوع من عدم الحرية<sup>(٢)</sup>.

احتتجاجات الائمة (ع)

تشكل الاحتجاجات جانبًا من كتب احاديثنا. فأحد اجزاء «بحار الانوار» يختص على سبيل المثال بالاحتجاجات، وللطبرسي كتاب يحمل عنوان «الاحتجاج». ولا بد من قراءة هذه الاحتجاجات، لانها عبارة عن مناظرات ونقاشات دارت بين علماء الاديان الاخرى ومفكريهم بشكل عام كالدهرين، والماديين، واليهود، والنصارى، والجوس، والصابئة، والوثنيين، وبين الأئمة علياً<sup>عليهم السلام</sup>. وكان هؤلاء يفتون على الأئمة ويعرضون اسئلتهم وافكارهم، ويسمعون إجابات الأئمة وردودهم، دون أن ينبري أحد للتصدي لهم أو الاعتراض عليهم بأن لا حق لكم في إطلاق مثل هذه الكلمات والافكار في عصر الدولة الاسلامية المقددة. وللامام الرضا عليه احتجاجات رائعة أوردتها كتب التاريخ والحديث. وكان عهد هارون الرشيد والمؤمنون من اقوى العهود التي شهدتها العالم. ولو كان في نيتهم التصدي لحرية العقيدة والفكر، كان يمكنهم ذلك ودون أن يجرؤ اي احد على المعارضة. وقد سمح هارون

(١) حول الجمهورية الإسلامية، ص ٩٤-٩٦.

(٢) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٩٦.

للمتكلمين بمختلف فرقهم - ولم تكن هذه الفرق قد تطورت بعد - بعقد مجالس المناظرة والبحث، فكان يحضر الاشاعرة والمعزلة وحتى الشيعة إلى حد ما رغم انهم كانوا العدو الاول للشيعة. والمأمون هو الآخر ورغم انه كان سنيناً متعصباً، اي أن سياسته كانت تقوم على احترام الشييخين والتتنن، ورغم الاذى الذي ألحقه بالشيعة على صعيد السياسة حتى انه دس السم للامام الرضا عليه السلام ، إلا انه كان يسمح - إلى الحد الذي لا يصطدم بسياساته - بالحرية في القضايا الدينية. وللمأمون نفسه مناظرة مع علماء أهل السنة تصب في صالح المذهب الشيعي وقد اوردها قاض تركي في كتاب عنوانه «تشريح ومحاكمة في تاريخ آل محمد»، وقد ترجم إلى الفارسية. وحينما طالعت هذا الكتاب رأيت انه يضم افضل الاحتجاجات والنقاشات التي تنتهي لصالح المذهب الشيعي وتأيد إماماً على عليه السلام . كان المأمون ورغم ما فيه من عيوب، محباً للعلم وطالباً عجيباً له.

فأين نجد نظير هذه الحرية الفكرية؟ لماذا هذه الحرية؟ لأن الاسلام يشق بعنقه. وانطلاقاً من هذه الثقة، لم يأت الاسلام في يوم ما ليخيف الناس ويقول لهم لا تفكروا في مثل هذه الامور، أو لا تفكروا في الله. وإنما كان يقول لهم: فكروا ما شئتم، إلا أن تفكيركم هذا يجب أن يكون اساسياً ومنطقياً وفي حدود ما يمكن للإنسان أن يفكر. فقد تقول يوماً: أريد أن أبلغ حقيقة الله. فيقال لك: وهل بلغت حقيقة إحدى مخلوقات الله حتى تريد أن تبلغ حقيقة الله؟ وهل افلحت في معرفة حقيقة هذا النور الحسي؟ واليوم ورغم ما قطعه العلم من اشواط إلا أن العلماء يتبنون الخوض في حقيقة الأشياء، إلا انهم يقولون أن عدم بلوغ كنه الأشياء وحقيقة لا يمكن أن يكون دليلاً على عدم وجودها، فلو سئلنا عن حقيقة الكهرباء، والمادة، والطاقة، والنور، لأجبنا: لا ندري، إلا اننا لا ننكر وجودها. ما هي حقيقة الحياة؟ لا يوجد انسان إلى اليوم بامكانه أن يدّعي انه يعرف حقيقة الحياة، إلا اننا لا ننكر هذه الحقيقة،

لأننا نشاهد آثار الحياة. وبإمكان الناس أن يعرفوا الله ضمن هذه الحدود: موجود، وذات لا تزال، وأزلية، وأبدية، وذات غنية عن كل شيء، ومبدأ كافة الأشياء، وعالمة بخلوقاتها، وقدرة على كل شيء. أما إذا لو فرضنا أن أي أحد لم يدرك سر القضاء والقدر أو أن بامكان البعض أن يدركه وليس بامكان البعض الآخر ادراكه، فهذا ما لا ضير فيه إذ أن الإسلام ليس يحizin التفكير في مثل هذه القضايا فحسب، وإنما يأمر به أيضاً. فيطالب بالتفكير في المعاد مع تقديم نموذج مثل هذا التفكير، والتفكير في النبوة وسائر القضايا الأساسية الأخرى. لماذا؟ انطلاقاً من الثقة التي لديه بمنطقه. وعلى هذا الأساس قام هذا الدين على المنطق والفكر والتفكير.

وطالما ذكرت في كتاباتي إنني لا أتأثر أبداً حينما يظهر في المجتمع افراد شكاكون يجاهضون أو يكتبون ضد الإسلام، بل واعشر بالسرور ايضاً، لأنني أعلم أن ظهورهم سيعمل على تحلي وجه الإسلام أكثر فأكثر. ولا يشكل وجود مثل هؤلاء الأفراد خطورة على الدين إلا إذا كان حماة الدين موتى لا روح لهم وليس بقدورهم مجابتهم والرد عليهم؛ اي إلا إذا كانت ردة الفعل قد ماتت في نفوسهم. أما إذا كانت الحياة تسري في أوصال الأمة الإسلامية وتتمتع بالقدرة على إبداء ردود الفعل ازاء الضربات التي يوجهها العدو، فاعلموا أن القضية ستُحسم لصالح الإسلام في نهاية المطاف. وفي خلال العقود الثلاثة أو الاربعة الماضية ظهر «كسرامي» الذي اخذ يكتب ضد الإسلام بشكل عام ضد المذهب الشيعي بشكل خاص، كما ظهر الشيوعيون وكتبوا على صعيد القضايا المادية وأثاروا الشبهات حول أساس الإسلام، كما ظهر آخرون غيرهم عبروا عن مناهضتهم للإسلام باسم الدفاع عن القومية الإيرانية، وقد خدم هؤلاء جميعاً الإسلام بشكل غير مباشر من حيث لا يريدون؛ فحينما نشر «كسرامي» تلك الكتابات ووَقَعَت بين يدي العلماء، شمر هؤلاء العلماء عن سواعد الجد للرد عليها، وانبروا لتوضيح القضايا التي

انسدلت عليها ستائر الغموض والاهام خلال قرون طويلة، نظراً لعدم إثارة الاعتراضات والشبهات عليها طيلة هذه الفترة، مما احاطها بالخرافات والاوهم يواماً بعد آخر. فالناس كانوا يجهلون قبل ذلك ماذا يجب أن يقولوا على صعيد الامامة، والتسيع، والتقية، والبداء. لكن ما أن شرع العلماء بتسليط الاشواء على هذه القضايا وغيرها، واستخراجها من تحت حجب الاوهام والغموض التي تراكمت عليها خلال قرون عديدة لعدم وجود الشكاكين وهؤلاء الاعداء الخادمين، حتى أصبحت واضحة للجميع واكثر من اي وقت مضى. وقد خدم الشيوعيون بمجيئهم، المنطق الفلسفي والاجتماعي الاسلامي بشكل غير مباشر ومن حيث لا يشعرون. اي انهم كانوا السبب وراء تشير علماء الاسلام عن سواعد الجد وكتابة الآثار القيمة في هذا المجال.

فالدين الحي لا يخشى مثل هذه الكلمات ابداً، إلا اذا دبّ الموت في اوصال الامة بحيث لم تعد قادرة على ابداء ردود الفعل المناسبة، وقد مررنا بمثل هذه الحالة من قبل وللاسف؛ في مطلع الثورة الدستورية، انبىء البعض للقول بأن القوانين الجزائية الاسلامية لا تنسجم مع العصر الحديث. ولم نجد ولو شخصاً واحداً ينبري لكتابة كتاب يدافع فيه عن المنطق الاسلامي في هذا المجال. واندفع البعض عن عداء والبعض عن جهل لاقصاء هذه القوانين دفعة واحدة، وترجموا قوانين الجزاء الاجنبية، الامر الذي يدعو إلى الاسف. ونرى في هذا اليوم نشاطاً بين المسلمين على صعيد تبيين القوانين والمواقف الاسلامية في شتى المجالات كحقوق المرأة، والقضايا الاقتصادية، وليس هناك اي قلق على مصير الاسلام ابداً ولا بد أن يكون النصر حليفه في النهاية.

والدين الذي تقوم رسالته على الفكر، والعقل، والمنطق، والفلسفة، وسلسلة من المصالح، لا يخشى عليه. وهذا فالحرية الفكرية التي اعطتها الاسلام للمسلمين والامم الاخرى منذ صدر الاسلام وحتى يومنا هذا، لم يعطها اي

مذهب أو نظام آخر، وهذا من مفاسخ الاسلام<sup>(١)</sup>.

## مواقع الحرية

ما هي المواقع التي يجب على الانسان أن يكون حراً وما هي الموضع التي لا يمكنه أن يكون حراً فيها، بل ومن الخطأ أن يكون حراً فيها؟ فن الاشياء ما لا يمكن أن تفرض أو لا يمكن إجبار الانسان عليها. وهي ما لا يمكن أن تتحقق حتى لو اجتمعت القوى المادية في العالم بأسرها وسعت لفرضها بالقوة، مثل الحب. فإذا لم يحب احد احداً ما، فهل يمكن أن يفرض عليه حبه بالقوة والاكراه؟ من المستحيل أن يتحقق ذلك. فلو اجتمعت كافة القوى في العالم وحاولت أن تفرض على احد ما حب شخص لا يحبه، لما افلحت في ذلك أبداً. لأن هذه الدائرة خارجة عن نطاق القوة والاكراه. كما لا يمكن اجبار احد ما على إخراج حب احد آخر من قلبه<sup>(٢)</sup>.

## الاعياد والحرية

يُعد الاعياد، من القضايا التي لا تحمل القوة بطبعتها، ولهذا ينتفي فيها موضوع الإكراه. فالإسلام يريد من الناس الاعياد لا الطاعة المطلقة، فالطاعة المطلقة لا تفيد ولا يمكن أن تستمر، لأنها باقية ببقاء القوة، وتزول بمجرد زوالها. والقرآن الكريم يتحدث عن الاعياد دائمًا، حتى خاطب الرسول ﷺ في فئة من المسلمين قالت إنها آمنت قائلًا: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَلْمَ تَؤْمِنُوا وَلَكُنْ قَوْلَنَا وَلَا يَدْخُلُ الْأَعْيَانَ فِي قُلُوبِكُم﴾<sup>(٣)</sup>. اي أن بامكانكم أن تقولوا بأننا مسلمون - أي الاسلام الظاهري - وليس بامكانكم أن تقولوا أنا مؤمنون. فالرسول يريد الاعياد من الناس. فالشخص بمجرد أن يظهر الاسلام،

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٣٢-١٣٦.

(٢) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١١٧ و ١١٨.

(٣) الحجرات / ١٤.

وب مجرد أن يقول الشهادتين، بامكان المسلمين أن يعتبروه جزءاً منهم على الصعيد الاجتماعي ومساوياً لهم في الحقوق الاجتماعية، اي أن يزوجوه اذا كان رجلاً، ويتزوجوها اذا كانت امرأة ضمن شروط، كما تطبق عليه سائر الاحكام الحقوقية الجارية بين المسلمين. لكن هل جاء الاسلام فقط كي ينشئ المجتمع الاسلامي الخاضع للقوانين الاسلامية؟ لا، فهذه خطوة واحدة. الاسلام جاء من أجل أن يزرع الایان والحب والعاطفة في القلوب. فالايان لا يمكن أن يفرض بالقوة. وربما تشير الآية التالية في جانب منها إلى هذا المعنى: ﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾<sup>(١)</sup> اي انك تريد من الناس الایان، إلا انه لا يمكن فرضه على الناس وإكراه الناس عليه، وهذا قال القرآن ايضاً: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾. اي ادع الناس بالدليل والمنطق كي تستولي على قلوبهم وتترعرع فيها الحب. وهناك آية اخرى تقول: ﴿فخذل إما انت مذکر لست عليهم بمسيطر﴾. فيما ايها الرسول! مهمتك هي القول والإبلاغ والتذكير. فأنت لست مهميناً على الناس حتى تفرض عليهم الاسلام والايان. وهذا لا بد أن يكون الناس احراراً في بعض الشؤون التي لا تقبل الاكره والاجبار، اي ليس هناك إمكان، غير الحرية<sup>(٢)</sup>.

### لا يتحقق الكمال الخلقي بالاكراه

هناك سلسلة من القضايا الأخرى التي يمكن فيها إجبار الناس، إلا أن هذا الاجبار لا يُعد كمالاً للناس، ولا يتحقق ذلك الكمال المتوازن، عن طريق الاكره. في القضايا الاخلاقية، يجب على الناس أن يكونوا صادقين، وامناء، وعادلين، وأن لا يخونوا بعضهم البعض الآخر. ويمكن إجبارهم على أن لا يكذبوا ولا يخونوا ولا يسرقوا، ولو سرقوا لقطعت يدهم، غير أن هذا يمثل

(١) سيرد الحديث عن هذه الآية بشكل مفصل لاحقاً.

(٢) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١١٩.

## الجانب القانوني للقضية.

وهناك جانب آخر ايضاً وهو الجانب الاخلاقي، اي أن الاخلاق تزيد من الانسان أن يكون صادقاً واميناً ايضاً. فالاخلاق لا تزيد منه أن يقول الصدق وإنما تريده أن يكون صادقاً، اي يكون الصدق ملكرة نفسية لديه وعنصراً تربوياً عنده. وأن تحمل روحه التقوى بحيث يصدر الصدق والامانة والفضائل الخلقية عن روحه بالطبع الثانوي. اي انه حينما يصدق، لا يصدق خوفاً من القانون والعقوبة؛ أو انه حينما يكون اميناً، لا عن خوف من العقوبة القانونية التي تطال الخائن، بل لأنها تعتبر الامانة فضيلة وانسانية. ويقول الصدق لأنها يراه كمالاً وشرفاً له، ولأنه يقتلكذب ويسمّى منه ويُعد امراً قبيحاً. فالصدق والامانة والاخلاص، لا تعد فضيلة للانسان إلا اذا كانت عناصر تربوية لا مجرد اعمال تُنفذ. ومثل هذه الامور غير قابلة للاجبار والاكراه ايضاً حينما يُراد منها ايجاد الكمال المنشود في الانسان<sup>(١)</sup>.

## تربيـة الاطفال

تربيـة الاطفال، من القضايا التي يجب أن يكون فيها الانسان حراً، لا من حيث أنها غير قابلة للاجبار اساساً، وإنما من حيث الجوانب الأخرى التي تتصل بالنضج البشري. فالانسان إذا ما شاء أن ينمو فعليه أن يكون حراً في عمله وفي انتخابه، فأنتم ترغبون في تربية اطفالكم كما تشاءون، لكنكم وانطلاقاً من حبكم له وحرصكم عليه لو توليت امره في الامور كافة، اي توجهونه دائماً وتصدرون الاوامر باستمرار: افعل هذا! إذهب من هنا! واذا ما رغب في شراء شيء ما تصحّبونه وتواصلون إصدار الاوامر: اشتري هذا! لا تشتري ذاك! لو تعاملتم معه بهذه الصورة، فمن الحال أن ينشأ انساناً ذا شخصية. من الضروري إرشاد الطفل ضمن حدود معينة، ومن الضروري أن يترك حرراً

---

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٢٠.

ضمن حدود معينة ايضاً. اي لا بد من التوجيه والحرية معاً. فلو كان هذان الغنران متألزمان في التعامل مع الطفل وكان لدى هذا الطفل شيء من القابلية والاستعداد، فمن الممكن أن يكون ذا تربية كاملة. قرأنا في أحد كتب علم الحيوان كيف تعلم بعض الطيور صغارها طريقة الطيران بأسلوبها الخاص. وتحدث هنا الكتاب عن النسر وطريقة تعليمها لصغاره الطيران بعد أن ينبت له الريش وتصبح له القدرة على الطيران. انه يتقطط صغيره بعنقاره ثم يضعه على جناحه ويطير به. وما أن يرتفع به في الجو حتى يلقيه من على جسمه، فيضطر لتحرريك جناحيه في طيران مضطرب: مرة إلى الأعلى، ومرة إلى الأسفل، وأخرى بشكل افقي، والأم تراقبه عن كثب. وحينما ترى أن الاعياء قد استولى عليه وأنه على وشك السقوط، تلتقطه من الجو مرة أخرى وتحمله على جناحها، وتطير به محمولاً إلى أن يذهب عنه التعب، ثم تقذفه إلى الجو مرة أخرى فيرفرج بجناحيه ايضاً، وتستمر الأم في تربيتها لصغيرها بهذا الشكل لفترة من الزمن حتى يتعلم الطيران. وهنا نلاحظ اقتران التوجيه مع الاعتماد على النفس<sup>(١)</sup>.

### النحو الاجتماعي يتوقف على الحرية

لو لم تنهض الزعامات الاجتماعية بمهمة توجيه الناس في الكثير من القضايا الاجتماعية، لأدى ذلك إلى انحرافهم. لكنها إذا سعت ولو عن نية حسنة إلى انتزاع حريةهم بذريعة عدم نضجهم وعدم كفاءتهم، فانهم سيبقون غير ناضجين وغير أكفاء إلى الأبد. فلو كانت الامة على ابواب عملية اقتراع برلمانية أو غيرها، وكانت انت على رأس هذه الامة وكان لديك حسن النية وكانت ترى أن الشخص الفلاني هو الأفضل - ولو افترضنا انه الأفضل حقاً - لكنك لو اردت أن تفرضه عليها بحجة أنها لا تفهم وتصر على انتخابه، فلن

(١) حول الجمهورية الإسلامية، ص ١٢١.

تضجع هذه الامة ولن تنمو اجتماعياً إلى يوم القيمة. فلا بد من تركها حرية كي تفكير، وتسعى. فذلك الذي يريد أن يكون عضواً برلمانياً، يقوم بالدعایات الانتخابية، وذلك الذي يريد أن ينتخب، يعيش حالة التردد فترة من الزمن: هل ينتخب هذا المرشح أم ذاك، فهذا لديه هذه المخالب، وذاك لديه هذه المخالفات. وقد يحيط في الانتخابات في المرة الأولى، إلا أنه يزداد تجربة وخبرة في المرة الثانية والثالثة، حتى تحول تلك الامة بعموم افرادها امة ناضجة اجتماعياً. أما اذا فرضت الامور على هذه الامة بذریعة انها غير ناضجة وانزعزت منها الحرية، فستظل غير ناضجة إلى الأبد. فالامة نضجها وغواها، في تركها حرية حتى وإن اخطأ في بداية الامر، بل لا بد أن تبقى حرية حتى وإن اخطأ مائة مرة. فقتل الامة في هذه الحالة مثل الاب الذي يريد أن يعلم ابنه السباحة. فالطفل الذي يريد تعلم السباحة، هل يمكن أن يتعلمها بالدرس والكلام؟ لو اكتفيت بالتعليم النظري حتى لمن بلغ مائة عام من عمره وقللت له اذا أردت أن تلقي بنفسك بالماء فألقها بهذا الشكل، ولتكن يداك هكذا وقدماك هكذا، ثم حرك يديك بهذه الصورة وقدميك بهذه الصورة، فمن المستحيل أن يتعلم السباحة. فعليك وفي ذات الوقت الذي تعلمه قواعد السباح، أن تتركه داخل الماء، ومن الطبيعي أن يغطس مراراً تحت الماء ويدخل الماء إلى بلعومه، وقد ينزعج أيضاً إلا انه سيتعلم السباحة في آخر المطاف. ولا يمكن له أن يتعلم بالأوامر أو التعليم النظري، ولا يمكن أن يتعلم بدون العمل الحر. اي انك حتى اذا ادخلته إلى الماء لكنك لم تدعه حرراً فيه وانما تمسك به اثناء حركته، فإنه لن يتعلم السباحة ايضاً.

فهذه مجموعة من القضايا يجب أن يترك فيها الانسان حرراً، من أجل أن يبلغ مستوى النمو والبلوغ الاجتماعي. والنحو الفكري، جزء من هذه المجموعة، حيث يجب السماح للناس بالنحو فكريأً بحرية، كالحرية التي تُعطى لمن يريد تعلم السباحة. فإذا منعنا الحرية الفكرية عن الناس في القضايا التي يجب أن يفكروا

فيها خشية الوقوع في الخطأ، ولو ارعبناهم نفسياً من مغبة التفكير في الموضوع الديني الفلاني، وقلنا لهم: انكم لو فكرتم فيه وخطرت وسوسه ولو صغيرة في اذهانكم حوله، فستهونون في النار على رؤوسكم! لو فعلنا ذلك فلن ينمو فكرهم في القضايا الدينية ولا يمكن أن يتتطور. فالدين الذي يطالب الناس بالتحقيق في اصوله (والتحقيق يعني الحصول على الشيء عن طريق الفكر والعقل)، من الطبيعي أن يعترف لهم بالحرية الفكرية، انه يقول لهم: انا لا اريد منكم «لا اله إلا الله» التي لم تفكروا فيها ولم تحرکوا اذهانكم في حقيقتها. كما لا اقبل منكم النبوة والمعاد اللذين لم تصلا اليهما عن طريق النمو الفكري. وهذا كان لا بد له من أن ينبع الناس حرية التفكير وأن لا يفزعهم نفسياً أبداً ولا يحذرهم من التفكير في هذه المسألة أو تلك بذرية أن مثل هذا التفكير، وسوسه شيطانية، والوسوسه الشيطانية تلقي بصاحبيها في الجحيم! وهناك العديد من الاحاديث في هذا المجال ومنها حديث نبوي يقول أن تسعه اشياء قد رُفعت عن هذه الامة ومنها: «وسوسة التفكير في الخلق»، اي أن من الاشياء التي لن تعذب الامة الاسلامية من أجلها هي التفكير في الخلقة، والخلق، والعالم، والوساوس التي تنطلق في القلب حول مثل هذه الامور. فالله لا يعذب المسلم من أجل الشكوك التي تثار في قلبه ولا يعتبره ذنباً ما دام في حالة التحقيق والبحث. وفي حديث معروف (ورد هذا الحديث في فرائد الشيخ، وهو كتاب اصوالي دراسي) أن اعرابياً قدم على الرسول ﷺ وقال له: يا رسول الله! هلكت. فأدرك الرسول ما عنده وقال له: لا بد أن الشيطان قال لك: من خلقك؟ فقلت له: الله فقال لك: من خلقه؟ فلم تجب. فأكدر الاعرابي ان ذلك قد وقع له بالضبط. فقال له الرسول ﷺ: «ذلك محض الایمان». ما اروعها من إجابة! اي لماذا تتصور انك قد هلكت؟! ان هذا هو عين الایمان. اي ان هذا الشك هو الذي سيبلغ بك الایمان الحقيق. فهذه هي الخطوة الاولى، فحينما تظهر فيك مثل هذه الروح ويزد لديك هذا الشك، فلا

بد لك أن تسعى لتبييده. الشك دار قبيحة، إلا انه ممر حسن ولا بد منه. والشك سبئ حينما تتخذ منه مزلاً تقيم فيه. فالشيطان قد قال لك: من خلقك؟ قلت: الله. فقال: من خلق الله؟ فقلت: لا اعلم. انك إن بقيت جالساً عند هذه «اللا أعلم» فسيكون الشك الذي لديك، شك الكسالى، وهو هلاك ولا شك. غير انك حيناً ظهر لديك مثل هذا الشك والوسوسة، لم تجلس في البيت ولم تحدر الناس ولم تقل اني اذا قلت ان لدى مثل هذا الشك لقدحوا في إيماني، وانا قدمت إلى الرسول فوراً وسألته عن العلاج: فهل بإمكانى ازاحة هذا الشك بعمل ام بفكراً ما؟ فأجابك الرسول: «ذلك محض الايمان»، اي عين الايمان، فلماذا تخشى مثل هذه الامور؟!

هذه هي الحرية في التفكير. اذاً فالاسلام الذي مزق خيوط التقليد من الاساس ولم يقبل من احد اصول الدين اذا لم يكن قد وعها عن حرية، هل يمكن أن يجبر الناس على قبول الاسلام؟ ولم يفعل الاسلام ذلك على الصعيد العملي ابداً. وما فعله لم يكن إجباراً على الانتهاء للإسلام، وانا التصدي للعقائد والافكار الخرافية التي لم تسجم حتى بمقدار ضئيل مع العقل والتفكير الانسانيين، وانا كانت اغلالاً تكبل العقل والتفكير، فحطمت هذه الاغلال، وقال للانسان: الآن فكر بحرية كي تدرك الحقيقة، وحينما قاتل الاسلام، قاتل البلدان ولم يقاتل الامم، وقاتل الحكومات ولم يقاتل الشعوب، اي انه قاتل أولئك الذين كبلوا ايدي الناس وارجلهم بهذه الاغلال والقيود الاجتماعية<sup>(١)</sup>.

### نماذج الحرية في التاريخ الاسلامي

تُعد الحرية العقائدية التي منحها المسلمون للامم بعد الاستيلاء على زمام امور بلدانها، من الصفحات المتألقة جداً في تاريخ الاسلام، في حين نجد صفحات تاريخ الاديان الأخرى، سوداء ومظلمة على هذا الصعيد. ونحن

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٢٥ - ١٢٦.

وللاسف لم ندقق في مثل هذه الامور ولم نفكّر فيها كما ينبغي. وليس امامي سوى أن ارشدكم لطالعة التاريخ والوقوف على الحقيقة بأنفسكم حيث لا يتسع الوقت للاستعراض. فطالعوا الجزء الثالث من تاريخ البرت ماليت الذي يتحدث عن تاريخ القرون الوسطى لتجدوا اية جرائم اقترفها النصارى - هؤلاء الذين يبئون في اوساطنا أن الاسلام قد زحف بالقوة - من أجل فرض المسيحية سواء بحق المسيحيين انفسهم - اي اهل البدعة من المسيحيين حسب تعبيرهم - او بحق المسلمين وغيرهم. اقرأوا تاريخ المحسوبة لا سيما تاريخ العصر السياسي لايران ما قبل الاسلام، واطلعوا على علاقة المحسوبين الذين كانوا يسكنون بزمام السلطة والطبقة الدينية ذات النفوذ في البلاط، بسيحيين تلك الفترة - ناهيك عن علاقتهم بالمانية والمزدكية - لتجدوا مدى الاذى الذين كانوا يلحقونه بهؤلاء المسيحيين واليهود. طالعوا الجزء ١٣ من «تاريخ الحضارة» تأليف «ويل دبورانت» الذي يتحدث عن مظالم المسيحيين. وطالعوا ايضاً الجزء ١١ من نفس هذا الكتاب الذي يتحدث عن الاسلام لا سيما ذلك الجانب الذي يستعرض الحريات التي كان يسمح بها الاسلام وال المسلمين للشعوب التي كانت تحت نفوذهم ومدى الاحترام الذي كانوا يكتونه لحرياتها، وهو امر لا نظير له في تاريخ العالم. وفي الجزء الثاني من كتاب «محمد خاتم الانبياء»، هناك مقال رائع جداً يحمل عنوان «سجل الاسلام» وبامكانكم قراءة الصفحات الاولى منه على الاقل التي تتحدث عن دوافع الحضارة الاسلامية، رغم انها جاءت على سبيل الايجاز، إلا انها تقدم الفكرة بصورة واضحة، ولاتسام البحث بطابع الحرية. وناقش العلماء كثيراً عوامل نشوء ونمو الحضارة الاسلامية وتحدثوا عن عاملين اساسيين: الاول التشجيع الذي لا حد له الذي كان يبديه الاسلام نحو التفكير والتعليم والتعلم، وهذا ما تحدث عنه القرآن بشكل صريح؛ والثاني الاحترام الذي ابداه الاسلام نحو عقائد الامم والشعوب، أو ما يُعرف بالتسامح الذي اتخذه الاسلام في التعامل معها، مما خلق

منها امة واحدة بعد أن كانت امماً متباعدة ومتضاربة. فكان عرب الحجاز يؤلفون نواة المسلمين الاولى في بداية الدعوة الاسلامية ولم يكن لدى هؤلاء حضارة من قبل، ثم اخذت الامم الاخرى تتضوی تحت لواء الاسلام بشكل تدريجي. وكان عدد المسلمين قليلاً في بداية الامر، فيما كان الباقون إما يهوداً أو مجوساً أو نصارى أو صابئة، لا سيما الصابئة فقد كان عددهم كبيراً جداً فيما كان عدد المحوس قليلاً جداً. غير ان المسلمين اتخذوا سياسة احترام اتباع هذه الاديان بشكل لم يسبق له مثيل، ولم يتعاملوا معهم على اساس التمييز والعنصرية بما دفعهم للذوبان في الاسلام واعتناقهم للعقائد الاسلامية.

### تعامل الامام علي (ع) مع الاسئلة

هناك خاتمة كثيرة على هذا الصعيد، إلا انني أبدأ بعهد الامام علي عليه السلام. فنحن نقرأ في التاريخ انه عليه السلام طالما كان يردد في ايام خلافته عبارة «سلوني قبل أن تفقدوني».

وقد هبّ أحد الاشخاص واقفاً في يوم ما وقال للامام بوقاحة: «إيه المدعى ما لا يعلم، والمقلد ما لا يفهم، أنا السائل فأجب»! وحينما نظر المسلمون اليه، رأوه لا يشبه في شكله المسلمين، وقد وصفوه بأنه كان نحيفاً ذا شعر مجعد وطويل، وقد علق كتاباً في عنقه، وقيل «كأنه من مهودة العرب» اي كان شيئاً بالعرب الذين تهودوا. وقد شعر اصحاب امير المؤمنين عليه السلام بالاستياء من تجرئه على الامام وهبوا لتأديبه، غير أن علياً عليه امرهم أن يجلسوا وقال لهم: «إن الطيش لا تقوم به حجج الله ولا تظهر به براهين الله». ثم التفت إلى ذلك الرجل وقال له: «إسأل بكل لسانك وما في جوانحك». وكان كلام الامام هذا كافياً لتهديه هذا الرجل. فأخذ يطرح على الامام ما كان لديه من اسئلة، فأجاب عليها الامام بأسرها. إلا أن الذي يبعث على الاسف ان التاريخ لم يذكر لنا تلك الاسئلة ولا الاجوبة، وإنما اكتفى بذكر ان ذلك الشخص

قد هتف عند سماعه اجابات الامام: اشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

والاسلام لا يعرف لغة كم الافواه في مثل هذه القضايا. وكان الكثيرون يفدون على الرسول ﷺ ويسألونه ما يشاؤن من الاسئلة. وكان علي عليه السلام يتردد كثيراً على المسجد لا سيما في عهد الشيفيين، معللاً ذلك بأن الاسلام قد ذاع صيته في ارجاء العالم، وأن اهل العلم اخذوا يفدون من كل مكان حاملين ما لديهم من اسئلة لا بد من أن يجيب عليها احد. وكان يبعث الصحابة كسلمان وأبي ذر في بعض الاحيان إلى المسجد ويوصيهم بمراقبة الاوضاع فيه فلعل هناك من لديه سؤال ولا يجد من لا يستطيع الاجابة، أو قد ينبري جاهل من المسلمين لنهره. وكان يؤكّد عليهم لورأيتم عالماً قدم من بلد ما ولديه تساؤلات حول الاسلام، فأخبروني على وجه السرعة كي انطلق للإجابة عليها.

ولو قارنا الحكم الاموي - ورغم ما عليه من دعایات والتي هي صحيحة في أغلبها أو حوالي ٩٠٪ منها - بالكثير من الحكومات الأخرى التي كانت في العالم آنذاك لوجدناه افضل منها جميعاً. واتسع في ايام العباسين المجال لحرية العقيدة ما دامت لا تصطدم بالسياسة العباسية<sup>(١)</sup>.

### توحيد المفضل

انها قصة اوردها في كتاب «قصة الصلحاء» تحت عنوان «توحيد المفضل». وكان المفضل بن عمر، من اصحاب الامام الصادق عليه السلام، وقد دخل يوماً إلى مسجد المدينة للصلاوة، وكان خالياً من المصلين، فأخذ يفكّر بعد الصلاة في الرسول ﷺ وعظمته. وفيما كان على تلك الحالة دخل إلى المسجد ابن أبي العوجاء وكان من الزنادقة ولم يكن لديه ايمان بالله، وجلس قريباً منه. ثم

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٢٦-١٢٩.

دخل أحد اتباع ابن أبي العوجاء وجلس إلى جانب صاحبه وبدأ يتجاذبان أطراف الحديث. وقال ابن أبي العوجاء خلال ذلك: ابني كلما فكرت في عظمة هذا الرجل المدفون هنا، تستبد بي الحيرة! انظر إليه ماذا فعل؟! وكيف وضع اللجام في أفواه الناس؟! فها هي الشهادة بنبوته ترتفع خمس مرات في اليوم... واستمر يكفر بالله والرسول والقيامة، الامر الذي اجج نار الغضب في قلب المفضل ولم يطق ما سمع، فأقبل عليه وقال له بحقن: يا عدو الله! تتحدث بمثل هذا الكلام في مسجد رسول الله؟! فسأله: من أنت، ومن أي نحلة من نحل المسلمين؟ وراح يعدد له الفرق والنحل الإسلامية، ثم قال له: اذا كنت من اصحاب جعفر بن محمد، فطالما تحدثنا بمثل هذا الكلام وأشد منه بين يديه، فكان يسمع كل ما نقوله بهدوء حتى تتصور في بعض الاحيان انه قد صدق كلامنا، ثم يبدأ في الرد على شبّهاتنا كلها بسرعة صدر، ولم نجد فيه ولو نزراً يسيرًا من الغضب الذي نشاهد عليه، بل انه لا يغضب إطلاقاً. فنهض المفضل وانطلق إلى الامام الصادق وعرض عليه الامر، فتبسم الامام وقال له: تعال في الغد إذا شئت كي املي عليك درساً في التوحيد، حتى اذا واجهت انساناً مثل هؤلاء، تعرف كيف تجبيهم. وكتاب «توحيد المفضل» الموجود حالياً، اغا هو وليد هذه الحركة<sup>(١)</sup>.

وكان ابن أبي العوجاء هذا، قد اجتمع مع رفاقه من الزنادقة في المسجد الحرام في موسم الحج، ويبدو ان ابن المقفع كان معهم ايضاً. فأخذ ابن المقفع يصف الناس الذين كانوا يطوفون، بالبقر التي تحوم حول البيدر، وأن ليس فيهم أحد يمكن التحدث معه، عدا شيئاً كان جالساً هناك، ويريد به الامام الصادق عليه السلام، إلا ان ابن أبي العوجاء رفض كلام ابن المقفع وأصر على انه لا يختلف عنهم. ودار بينهما نقاش طويل إلا ان ابن المقفع قال له اذا لم تصدق ما اقول فاذهب اليه واسأله منه. فتقدم من الامام وقدم لسؤاله الوجه مقدمة على

(١) ورد ما يشبه ذلك، في الانسان الكامل، ص ٣٥٠-٣٥١.

شكل سؤالين؛ الاول: لابد لكل من به سعال أن يسعل، أتأنذن لي في الكلام؟ فقال له الامام: تكلم، والثاني: هل لابد من يظهر لديه الشك أن يفضي به؟ فقال الامام: نعم. فقال بعد ذلك: «إلام تدوسون هذا البيدر وتحومون حوله حوم البقر؟». ثم اخذ يسأل حول الله تعالى، وقد أجابه الامام الصادق أجوبة شافية، اوردتها كتب الحديث. وكان سؤال ابن ابي العوجاء يدور حول: اذا كان الله حقاً، فلماذا لم يظهر؟ وتلخصت اجابة الامام عثيل<sup>(١)</sup> في: وهل يمكن أن يظهر نفسه افضل مما اظهرها. وهل أظهر الصانع نفسه في صنته أفضل مما اظهر الله نفسه في مخلوقاته؟ الم يكشف الله عن نفسه في خلقك؟ الم يكشف عن نفسه في خلق السماوات والارض؟ الم يكشف عن نفسه في عينك ويدك ورجلك وجهازك الهضمي ورئيتك؟ الم يكشف عن نفسه في النبات الفلاني؟ ويقول ابن ابي العوجاء نفسه أن الامام قد تحدث في ذلك حتى ظننت ان الله سيخرج ويكشف لي عن نفسه<sup>(١)</sup>.

### التفاوت بين حرية الفكر وحرية العقيدة

المعتقدات البشرية يمكن أن تقوم على أحد أساسين، إما على اساس الفكر الحر، حيث يستطيع الانسان أن يختار لنفسه عقيدة ما من خلال الفكر الحر والتفكير والتأمل الحقيقيين. وإما عن طريق الاجبار والاكراء، حيث تفرض عليه العقيدة في بعض الأحيان ويسُرّ على اتباعها، ولو عن طريق تقليد الآباء والأجداد. ويتعود الانسان على مثل هذه العقيدة بمرور الزمن ويتطبع عليها وتستقر في نفسه دون أن يكون لديها أدنى اتصال بقدرة التفكير. و أولى انعكاسات النوع الثاني من العقائد أنها تحول دون تفكير الانسان، وتقبل عقله وفكرة. ومثل هذه العقائد عبارة عن سلسلة من الاغلال العقائدية والعرفية والتقلدية التي توثق بها يد الانسان وفكرة وروحه. وكما انَّ الرجل المكبل

---

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٣٠ - ١٣٢.

غير قادر على انتزاع نفسه من الاغلال وتحطيمها بنفسه، ولابد من وجود شخص آخر لديه الامكانات الالازمة كي ينبري لفك هذه القيود والاغلال عنه، كذلك الامر التي اعتنت بعض العقائد لا عن تفكير وانما عن عادة وتقليل وتلقين وغيرها، وقيدت فكرها من خلال قبولها بهذه العقائد المفروضة، لابد لها من قوة اخرى كي تتقدم لتحطيم هذه القيود. فأنا لا اقول بوضع قيود اخرى في يديها ورجلتها، ولا اقول بفرض فكر وعقيدة اخرى عليها حق وإن كانت هذه العقيدة قائمة على فكر ما، واما أقول بتحريرها من تلك الاغلال كي يتأتى لها التفكير بحرية، وانتخاب عقيدتها بمحضها من التفكير. ويعنى هذا العمل من اعظم الخدمات التي يمكن أن تسدى للبشرية. وهذا كان هذا العمل، أحد أعمال الانبياء، حيث كانوا ينطلقون لتدمير مثل هذه القواعد العقائدية القائمة على الاكراه، وفسح المجال للفرد كي يفكر بحرية نفسه، ومصيره، وعقيدته<sup>(١)</sup>.

وطالما تحدث القرآن الكريم عن موضوع الآية: «إنا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون»<sup>(٢)</sup> وعن العقائد التي تُعتنق اتباعاً للأكابر، حيث لا معنى لحرية العقيدة في مثل هذه العقائد، لأن الحرية تعنى إزاحة المانع الذي يحول دون نشاط القوة الفاعلة والرائدة، في حين تعد مثل هذه العقائد نوعاً من الجمود، والحرية في الجمود تساوي مفهوم حرية السجين في البقاء في السجن، وحرية المقيد في البقاء في القيد، مع فارق واحد هو أن سجين ومقيد الجسم يشعر بسجنه وقيده، بينما لا يشعر سجين ومقيد الروح بسجنه وقيده. وهذا نحن نقول لا معنى لحرية العقيدة الناشئة عن التقليد، لا عن الفكر الحر.

والعقيدة في اللغة بمعنى الاعتقاد، والاعتقاد مشتق عن «عقد» و«انعقاد»، كأن نقول «عقد الخيط» اي جعل فيه عقدة. واعتقاد الانسان بالشيء يكون في صورتين: الاولى عقلية، حيث تقوم عقيدته على اساس فكري. والثانية

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١١٤ و ١١٥.

(٢) الزخرف / ٢٢.

عاطفية أو قلبية، حيث يعتقد بالشيء لا على اساس فكري أو عقلي وانما بداعف نفسي وعاطفي. فكيف تحصل هذه العقيدة؟ وما هو الاساس الذي يقوم عليه هذا الاعتقاد؟ فهل يمكن الوصول إلى هذه العقيدة والانعقاد القلبي عن طريق التفكير الحر، ام عن طريق تقليد الآبوبين أو المحيط وال العلاقات الشخصية والمصالح الفردية؟ ولاشك في انّ اكثراً عقائد الناس نابعة عن العاطفة والانعقاد القلبي لا عن التفكير<sup>(١)</sup>.

انت تعلمون انّ العقائد ليست ناجمة جميعها عن فكر صحيح وصائب. فتتفق خلف الكثير من العقائد سلسلة من العادات والتقاليد والعصبيات. والعقيدة بهذا المعنى ليست غير ناجمة فحسب، وانما تعد نوعاً من الانعقاد الفكري ايضاً، اي أن فكر الانسان وبدلاً من أن يتسم بالافتتاح والنشاط، يظل مغلقاً ومنعقداً، وتبقى القوة الفكرية المقدسة حبيسة بسبب هذا الانعقاد في ضمير الانسان وباطنه. وحرية العقيدة بهذا المعنى الاخير ليست غير مفيدة فحسب، وانما تلحق أفدح الاضرار بالفرد والمجتمع ايضاً. فحينما نجد انساناً يعبد الحجر، هل يجب أن نقول بما انه فكر، وتوصل إلى هذه العقيدة من خلال ذلك التفكير، وبما انّ العقيدة على اي حال محترمة، فلا بد أن نحترم عقيدة عبادته للحجر، وعليينا أن لا نحول دون ممارسته لهذه العبادة، ام أن علينا أن نعمل على تحرير عقله وفكره من اسر هذه العقيدة، اي أن نقوم بنفس العمل الذي قام به ابراهيم الخليل<sup>(٢)</sup>؟

### العقائد في اغلبها تقليدية

النظريات العلمية التي يختارها الانسان، تقوم عادة على نوع من التفكير الحر، ولا بد أن يتسم صاحبها بالحرية، إلا انّ العقيدة التي يختارها الانسان لا

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٩٧.

(٢) حول الثورة الاسلامية، ص ٨.

تقوم في اغلب الأحوال على أساس من التفكير، وانما بداع من التقليد واتباع الأكابر. وتحدث القرآن الكريم عن وقوع الإنسان تحت تأثير كبراء قومه وساداته في اعتناق عقيدته فضلاً عن آبائه وأجداده وأسلافه. فلماذا يكون الإنسان حرًا في العقيدة أو النزعة العقائدية التي تنبع من التقليد الأعمى للمحيط أو الوسط الاجتماعي ومحاكاة الكباء والشخصيات المتنفذة ذات المصلحة؟!

ومعنى هذه الحرية: انّ شخصاً قد أخطأ فوضع القيود في يديه ورجله، ثم نأتي نحن لنقول: بما انه قد وضع القيود بنفسه في يديه ورجليه، فهو حر، لأنّه قام بهذا العمل عن ارادته، كما أن حقوق الإنسان تقتضي أن لا نفتح هذه القيود عنه لأنّه يقول: لا تفتحوها، لا تفتحوها! فهل هذا صحيح؟!

هناك قصة معروفة تقول انّ سكان إحدى القرى كانوا مصابين بجكة في الجسم. وصادف أنّ مّرّ بهم طبيب فوجدهم على تلك الحالة فشخص مرضهم وعلاجهم. إلا انّهم كانوا قد اعتادوا على ذلك المرض وأنسوا به وتطبعوا عليه، وكانوا يتذذلون حينما يبحكون أجسامهم بأظفارهم. فقال لهم الطبيب:انا على اتم الاستعداد لمعالجتكم. وكان يتوقع منهم الموافقة على اقتراحه. إلا انّهم صرخوا في وجهه: أعزب عن وجها! ماذا تريد أن تفعل بنا؟! غير انّ الطبيب كان يعلم انّهم مرضى ولا بد من معالجتهم من مرضهم. فاتبع مختلف الأساليب حتى استطاع أن يقنع أحدهم ويعالجه من حكته. فشعر بذلك الشخص بالراحة وأدرك مأساوية ما كان عليه! وعالج الطبيب افراداً آخرين بهذه الطريقة حتى تحول الاصحاء إلى قوة تمكنت من فرض العلاج على الجميع. ولا بد هنا من اثارة السؤال التالي: هل قام ذلك الطبيب بعمل سيءٍ ومشين لأنّ عمله كان يتعارض مع رغبة اهل تلك القرية وارادتها؟ ومن الواضح ان الرغبة لا يمكن أن تكون معياراً، فقد يرغب الإنسان في شيءٍ ما عن جهل أو مرض.

وهناك قصة أخرى نقلها جلال الدين الرومي بلغة الشعر تقول انّ رجلاً عاقلاً وحكيناً يتطي صهوة جواده، توقف عند شجرة يرقد تحت ظلها رجل

مستطرق يبدو عليه الانهاك والتعب، وكان يغط في نومه وقد فتح فمه. وفيها كان الفارس ينظر اليه شاهد دودة تزحف عند زاوية شفتيه، ثم تدخل إلى فمه، فيبتلعلها دون أن يدرى. وأدرك الفارس أنّ هذه الدودة سامة وإذا بقيت في جوفه قتلتة. فترجل سريعاً عن جواده وقرر ايقاظه بالقوة. ورأى أنه لو قال له انّ دودة قد دخلت إلى جوفك فمن المحتمل أن لا يصدق، وقد يفزع اذا صدق فيهلكه الفزع. لهذا لم يجد بدأ من استخدام اسلوب القوة معه، سيا وقد كان يحمل معه هراوة. فأيقطه من نومه بالقوة. ففتح الرجل عينيه فشاهد شخصاً لا يعرفه عند رأسه. قال له: ماذا ت يريد؟ فأجابه: انقض! فقال: ماذا ت يريد مني؟ فضربه بالهراوة على رأسه فأجبره على النهوض. ثم ناوله بعض التفاح المتعفن المرمي هناك وأكرهه على أكله. وكلما قال الرجل: لماذا يجب أن آكله؟ يجيبه: يجب أن تأكله؟ وضربه بالهراوة ايضاً على رأسه، ثم وضع ذلك التفاح في فمه وأجبره على بلعه. ثم قفز عن ظهر جواده وقال له: تحرك! فقال: لماذا؟ أين اذهب؟ ماذا كان يبیننا من قبل؟ ما هو سبب عدائك لي؟ ماذا عملت لك؟ ربما قد خلقت بياني وبين عدوك؟ فقال له: لابد أن تهروـلـ. ثم ضربه بالهراوة وقال له: هروـلـ! وكان المستطرق يصرخ وييكي، إلا انه لم يجد بدأ من الهروـلةـ، فأخذ يجبره على الهروـلةـ حتى حصلت لديه حالة الغشيان ثم بدأ يتقيأ، فتقىأ التفاح وخرجت معه الدودة ميتة. فقال: آه، ما هذه؟! فقال الفارس: لقد استرحت، كان كل هذا من أجلها! فقال: ما الخبر؟ فأجابه: أنا لست عدواً لك أبداً وإنما فعلت ذلك لاخراج هذه الدودة من جوفك، لأنها لو بقيت فيه ساعة من الزمن لقتلتك. والآن وقد نجوت من الموت، فقد انتهت مهمتي معك. ثم ودعه وانطلق بجواده فلحق به الرجل وأمسك برجله يقبلها ولم يسمح له بالذهاب وهو يقول له: انت ملاك بعثه الله لنجاتي، اي رجل شريف أنت!<sup>(١)</sup>

... توجد في الاسلام حرية العقيدة والفكر، لكن ليس على اساس ان

---

(١) التعرف على القرآن، ج ٣، ص ٢٢٤-٢٢٧.

الانسان محترم ولا بد من احترام عقیدته ايضاً سواء كانت حقاً ام باطلأ، ولا على اساس ان الدين امر فردي وذوقى، او ان حسنه امر نسبي، ولا على اساس ان فرض عقيدة ما على شخص ذي عقيدة ترجيح بلا مرجع. ولا بد من توضيح الشق الآخر: في القضايا ذات الطابع الجاد والمتعلقة بالصالح الانسانية العليا كالطلب وعلاج الامراض ذات الخطورة، لابد للجميع من اتباع الطريقة الثابتة والمعمول بها في العلاج. في مرض الديفتيريا الخطير - على سبيل المثال - لو كان هناك علاج واضح ومحدد ومتبع ازاء هذا المرض، فلا بد لكل طبيب من الالتزام بهذا العلاج. ولو حاول طبيب ما أن يستخدم علاجاً وفق قناعته الخاصة، فإنه يعرض نفسه للملاحقة القانونية. انه لا يحق له سوى عرض رأيه وطريقة علاجه على اللجنة الطبية العليا، لا أن يستخذه معياراً للعمل. اما اذا لم يتم اكتشاف الطريقة المثلثى والعلاج الناجع، وخصوص طريقة العلاج للآراء والنظريات، فلا بد من احترام هذه الآراء والنظريات كافة، ولا حق لأحد أن يفرض رأيه على الآخرين، لعدم وجود ما يرجحه عليها. وينطبق هذا الامر على مسائل الاجتهد والظنية، حيث ان المجتهدين احرار في هذه المسائل، والمقلدين احرار في اختيار المجتهد المرجع، لأن العقائد والآراء الظنية لا يمكن اثباتها ولا فرضها على الآخرين. ولا يحق لأحد في اطار مثل هذه القضايا وعلى مختلف الأصعدة أن ينال من عقائد الآخرين أو أن يفرض عقیدته عليهم، لأن فرض مثل هذه العقيدة بثابة فرض ارادته الشخصية، على العكس من الحالة الاولى التي يتم فيها البرهان على الحقيقة بالعلم، ولا وجود فيها لفرض الارادة والرغبة الشخصية، وانما تفرض الحقيقة لثبوتها وقطعيتها.

وأقام الغربيون حرية العقيدة على ثلاثة مبادئ: إحترام الإنسان، والطابع الشخصي للدين، وفرض الرأي أو العقيدة أو الفكرة الشخصية على الآخرين افما هو ترجيح بلا مرجع. هذا في حين تقوم حرية العقيدة من وجهة النظر الاسلامية على ٣ أسس اخرى هي: الاول ان الفضائل النفسية بحاجة في

فضيلتها إلى الإرادة والاختيار. فاللقوى، والعفة، والامانة لا تعدّ فضيلة إلا إذا اختارها الإنسان بنفسه، والثاني خروج الحب والقيدة عن إطار الاجبار، والثالث انحياز الاسلام نحو حرية الفكر في اصول الدين، وعدم تحقق هذه الاصول إلا عن التفكير الحر.

ولا يمكن أن تعدّ قضية اعتقاد الاسلام بوجوب الاختلاف في العقيدة وحرب العقائد، دليلاً مستقلاً، لأنّ اختلاف العقيدة في المسائل الاصولية غير مطلوب بالذات من قبل الاسلام وانما مطلوب بالعرض، أي انه ليس مطلوباً لأنّ الاسلام يريد هذا الاختلاف، وانما لو لا هذا الاختلاف ولو لا حرب العقائد، لما تبلورت حقيقة الایان والقضايا التي لابد من الایان بها، ولما اتضحت المسار الروحي الذي لابد للانسان من قطعه باتجاه الحقائق الایمانية.

من أتفه ما قيل، ذلك الكلام القائل بما أنّ مواد الاعلان العالمي لحقوق الانسان قد صودق عليها في المجلسين (مجلس النواب ومجلس الشيوخ)، فلا بد من العمل بها.

لابد من القول انّ هناك فرقاً بين حرية العقيدة وحرية التفكير. والتفكير المنطقي المدروس هو الذي يجب أن يكون حرّاً، لا العقيدة والتزعة التي تظهر بفعل بعض العوامل الخاصة، وتحول دون التفكير أحياناً.

لا تقولوا انّ هذا حديث نظري، بل هناك مصاديق تؤيد ما ذهبنا اليه مثل قصة كوروش، أو ما قيل عن ساح بريطانيا بعبادة البقر وكذلك عبادة الاصنام في اراضيها<sup>(١)</sup>.

### الانشداد والعقيدة والتأثير الوطنية

هل الانسان يجب أن يكون حرّاً من حيث الانشدادات القلبية؟ والحقيقة هي انّ هذه الانشدادات هي التي تعمل على ظهور التعصب والجمود والخنود

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهرى، حرف الألف، ص ٨١-٨٣.

والسكون لدى الانسان، كما ان العقيدة بالأساس تكبل الفكر وتقيده غالباً. وحينما تظهر العقيدة فان أول آثارها: ايقاف نشاط الفكر وحرية التفكير لدى الانسان، لأن «حب الشيء يعمي ويصم»، وحينئذ لا يمكنه رؤية الحقيقة ولا سماعها. فاولئك الذين عبدوا ويعبدون الأصنام، فهل تعتبر عملهم هذا تفكيراً، وهل نعد عقيدتهم هذه، وليدة الفكر والعقل، أم أنها ارتباط قلبي وجود وتجبر ناجم عن سلسلة من التعصبات والتقاليد التي وصلت اليهم جيلاً فجيل؟ فهل تصدقون أن ينبري هذا الانسان لعبادة الاصنام بوعي من فكره الحر؟ وهل يمكنه أن يعبد «هبل» بدافع من الفكر الحر؟ وهل يمكن أن يلجأ بالفكرة الحر - الفكر المدرسي، الفكر الذي يطلبه الاسلام في اصوله العقائدية - والفكر المنطقي إلى عبادة البقر كما يفعل الملايين في الهند في يومنا هذا؟ وهل يمكن أن يدفع الفكر المفتح الحر الذي لا يعترضه معارض بالانسان نحو عبادة العضو التناسلي، كما هو حال ملايين اليابانيين اليوم؟ كلا، فلا يمكن لأبسط العقول والافكار أن تدفع الانسان إلى هذا المستوى. وهذه العقائد ذات جذور غير عقلية وفكرية. فأصحاب المطامع والاستغلال حينما يعتقدون العزم على استعباد الآخرين - وهذا كان موجوداً في العالم بشكل فظيع ولا زال موجوداً - أو حينما ينونون ايجاد نظام سياسي ما يخدم مصالحهم، فلا بد من وجود قاعدة عقائدية يقومون عليها، وإلا لما افلحوا في تمرير أهدافهم. والشخص الأول الذي يبادر مثل هذه المبادرات يعرف ماذا يفعل، ويعرف كيف يخون، ويعرف كيف يروج للفكرة وللচنم، والبقرة، والحيتان في اوساط الناس. وتنطلي الحيلة على الناس رغم انهم لا يتفاعلون كثيراً مع تلك العقائد، لكن ما أن يمر الزمن عليهم ويأتي اولادهم إلى الدنيا ويرون ما عليه آباؤهم حتى تتتجذر تلك العقائد وتنتقل من جيل لآخر وتتبلور لها خلفية تاريخية، وتصبح جزءاً من السنن والمآثر الوطنية والمفاخر القومية، بحيث لا يمكن انتزاعها من قلوب معتنقيها، بالضبط مثل الكلس الذي يخلط مع الماء، فإنه يتسم بالمرونة في بداية

الامر وبامكانك أن تجعله في اي شكل تشاء، لكن ما أن يجف حتى يتصلب ويزداد تصلباً بحيث لا يمكن تهشيمه حتى بالفأس<sup>(١)</sup>.

### الاستعمار وحرية العقيدة

سافرت ملكة بريطانيا يوماً إلى الهند، وزارت مختلف المعابد فيها وعبرت عن احترامها لها<sup>(٢)</sup>. وكان من ضمن برنامج رحلتها أن تزور معبداً للأصنام هناك. وكان الهندود حينها يزورون هذا المعبد يخلعون أحذيتهم حينما يدخلون إلى صحن المعبد، إلا أن الملكة البريطانية خلعت حذاءها قبل الوصول إلى الصحن تعبيراً عن الاحترام الذي يفوق الحد، ثم وقفت أمام الأصنام باحترام فاقت به الآخرين<sup>(٣)</sup> وقالت: هذا معبد، هذا مكان محترم، ورغم أنني مسيحية ولست وثنية إلا أنني يجب أن أحترم هذه الأصنام لأنّ هناك فتاة من الناس تحترمها، فالعقيدة حرة<sup>(٤)</sup>. وانطلق البعض لتفسير تلك الخطوة بسذاجة فقالوا: انظروا كيف تحترم مجنة امة متقدة عقائد الآخرين! وقد غاب عن ذهنهم أنّ تلك الخطوة لم تكن سوى خدعة استعمارية. فالاستعمار يعلم أنّ هذه الأصنام هي التي كبتت الهند وروضتها لقبول المستعمرات. فمثل هذا الاحترام، ليس خدمة للحرية ولا احتراماً للعقيدة، وإنما خدعة للاستعمار. فلو خرج الشعب الهندي من طوق هذه الخرافات، لما تنازل للإنجليز أبداً<sup>(٥)</sup>.

وهناك من يقول: اي شعب نحن! فنحن قد وقعنا على لائحة حقوق الانسان قبل ٢٥٠٠ عام. فحينما دخل كوروش إلى بابل أمر باحترام كافة معابد الأصنام التي هناك رغم انه لم يكن صنميّاً وانه كان زرادشتياً. وهذا

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٩٧-٩٩.

(٢) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٠٠.

(٣) حول الثورة الاسلامية، ص ٨.

(٤) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٠١.

(٥) حول الثورة الاسلامية، ص ١٠.

يعني انتا شعب يدافع عن حرية العقيدة!

انه خطأ فاحش ولاشك، منها حاولتم الاشادة به على الصعيد السياسي. فالشخص الذي يريد أن يستعبد امة من الامم، لابد له أن يحترم منطلقاتها القائدي. غير أن هذا العمل غير صحيح تماماً من وجهة النظر الانسانية<sup>(١)</sup>. انه عمل مألف وخطوة عاديه أن يلجاً الفاتح الذي ينتحج سياسة استعمارية إلى مثل هذا العمل، لكن هل هو عمل مألف على الصعيد الانساني؟ وهل كان السيد كوروش يؤمن به؟ من المؤكد لا، إلا انه كان يعتقد ان إبقاء الناس في الجهل، عامل مهم لبقاءهم في العبودية، وهذا هو الذي دفعه لمثل تلك الممارسة<sup>(٢)</sup>.

فهل يجب التصدي لمثل هذه العقائد أم لا؟ وهل الحرية الفكرية التي تتحدث عنها تشمل مثل هذه العقائد؟ والمغالطة التي تسود في العالم الراهن هي الدعوة من جهة لحرية الفكر والعقل، والتأكيد من جهة اخرى على حرية العقيدة، اي أن يكون عابد الصنم حراً في عقيدته، وعابد البقر حراً في عقيدته، وعابد الحيتان حراً في عقيدته. اي أن يكون كل أحد حراً فيما يعبد وحراً في انتخاب أي شيء عقيدة له. في حين ان مثل هذه العقائد تتناقض تماماً مع حرية الفكر، وتعمل على تقييده وتكميله بالأغلال. وانطلاقاً من هذه النظرة الخاطئة يأتي البعض كي يقول أن بريطانيا -مثلاً- بلد الحرية، وأن كافة الفئات والطوائف والفرق تتمتع فيها بالحرية، فبامكان عابد الاصنام أن يمارس عبادته فيها بحرية، وبامكان عابد البقر أن يعبد البقر بحرية. فالحكومة تمنح الحرية لأتباع كل عقيدة بمحارسة طقوسهم وفق عقيدتهم بل وانها توفر الامكانيات لهم على هذا الصعيد، لأنّ بريطانيا مهد الحرية، وتحترم معابدهم وما يعبدون، مبررين ذلك بقولهم: الانسان يجب أن يكون حراً في عقيدته!

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٠١.

(٢) حول الثورة الاسلامية، ص ١١.

وقد ارتكب اعلان حقوق الانسان هذا الخطأ ايضاً انطلاقاً من ضرورة احترام كرامة الانسان: فالانسان بما هو انسان، محترم (ونحن نؤمن بهذا ايضاً)، وبما انه محترم، فلا بد من احترام كل ما يختار لنفسه، وكل عقيدة يعتنقها! عجباً! فن الممكن أن يختار الانسان غالباً أو قياداً لنفسه، فهل يجب أن ندعه يكتب يديه ورجليه على اساس انَّ الانسان محترم؟! فماذا يقتضي احترام الانسان؟ هل يقتضي أن نرشده إلى طريق الرقي والتكميل أم نقول له: ايهما الانسان! بما انك انسان، وبما أنَّ الانسان محترم، فلك الحق أن تختار لنفسك ما تشاء وأن ارضي لك هذا الاختيار وأحترمه، حتى وإن لم اكن معتقداً به وأعلم انه كذب وخرافة، وتترجم عنهآلاف الآثار السيئة! غير أنه اختار لنفسه القيد والغل، وأقبل على تقييد عقله وفكره، فكيف تحترم هذا القيد؟ أن احترامك لهذا القيد والغل اغا هو تعبير عن عدم احترامك للمواهب البشرية، والكرامة الانسانية التي تتجل في التفكير. فيها كي تحطم هذا القيد وتحرر فكره منه!<sup>(١)</sup>

### لا إكراه في الدين

الفكر منطق. والانسان لديه قوة تدعى قوة الفكر التي يمكنها دراسة القضايا والانتخاب على اساس الحجة والاستدلال. في حين أنَّ العقيدة تعني الانعقاد والارتباط، وهذا ما اكثر العقائد التي لا تقوم على اساس فكري، واغا تقوم على التقليد والتبعية والعادة، بل وتعرق حرية الانسان. وهذا فالحرية التي يجب أن يتمتع الانسان بها هي حرية الفكر، في حين انَّ العقائد التي ليست لديها أية جذور فكرية واغا هي انعقاد وجمود روحي تناقلته الاجيال، تعد استعبداً وأسراً، كما تعد محاربة مثل هذه العقائد، حرباً في طريق تحرير الانسان، وليس حرباً على حريته. فذلك الذي يقف امام الصنم الذي صنعه بيده ويطلب منه أن يقضي له حاجته، فاغا هو اضل سبيلاً من الأئم، حسب

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٩٩ و ١٠٠.

التعبير القرآني. اي أن انساناً كهذا لا يقوم عمله على ادنى قاعدة فكرية. ولو كان قد حرك فكره ولو قليلاً لما اقبل على مثل هذا العمل. وليس هناك من تفسير له سوى انّ انعقاداً أو جموداً قد طرأ على قلبه وروحه بسبب التقاليد العمياء. ولابد من التعامل معه بنطاق القوة لانتزاعه من هذه الاغلال الباطنية كي يتمكن من التفكير. وهذا يخطئ أولئك الذين يعتبرون حرية التقليد وحرية الاغلال النفسية، حرية للعقيدة ويسمحون بها على هذا الأساس. اما نحن فنؤيد حرية الفكر، لا حرية العقيدة اعتماداً على الآية القرآنية التي تقول: ﴿لَا إِكراه في الدِّين﴾<sup>(١)</sup>.

وهناك آراء عديدة حول شأن نزول هذه الآية متقاربة من بعضها، ويمكن أن تكون جميعها صحيحة. فحينما خان اليهود بنو النضير ونقضوا عهدهم مع المسلمين، أمر الرسول ﷺ بإخراجهم من ديارهم. إلا انّ عدداً من أبناء المسلمين كانوا بين هؤلاء اليهود وقد اعتنقوا اليهودية أيضاً. فلماذا كانوا يهوداً؟ كان اليهود قبل ظهور الإسلام اكثراً ثقافة من عرب الحجاز، بل أن عرب الحجاز كانوا أميين وقليلي المعرفة، في حين كان اليهود وبوحي من كتابهم السماوي أكثر علمًاً وثقافة، واستطاعوا عن هذا الطريق أن يفرضوا فكرهم على المجتمع المجازي، حتى أخذ عبدة الأصنام والآوثان يؤمنون بهم أيضاً. ويقول ابن عباس انّ بعض العوacker من نساء المدينة كنّ ينذرن انهن لو ولدن لبعض أولادهن للتزرع بين اليهود، لأنهن كن يعتقدن انّ الدين اليهودي أسمى من ديانة عبادة الأصنام. وكنّ بيعلن صغارهن إلى نساء اليهود لارضاعنهم. ومن الطبيعي أن يعتنق الأطفال الذين ينشأون في المجتمع اليهودي اليهودية، ويتطبع الذين يرتكبون اللعن اليهودي على الأخلاق اليهودية.

وعلى هذا الأساس كان عدد من أبناء الاوس والخزرج المسلمين يعيشون في الوسط اليهودي حينما قرر الرسول إخراجهم من ديارهم، وهذا ما دعا

(١) الجهاد / ص ٥٥

بالمسلمين إلى رفض أن يذهب أبناؤهم معهم، في حين اصر بعض الابناء على الذهاب مع اليهود على اعتبار انهم قد اعتنقوا اليهودية. وتحولت تلك القضية إلى مشكلة فرضت نفسها على الجانب الاسلامي. وأقبل المسلمون على الرسول ﷺ وقالوا له: يا رسول الله! نحن لن نسمح لأبنائنا بالخروج معهم، فقال لهم الرسول ﷺ: لا اكره في الدين، فأبناكم مخيرون بين الاسلام والذهب معهم: ﴿لَا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾. فمن طبيعة الاعيان انه لا يقبل الاجبار والاكراه.

﴿فذكر انت مذکر لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾.

في ايها الرسول! ذكر الناس وأيقظهم من رقاد الغفلة، وأفضل عليهم اليقظة، ثم ادعهم إلى الدين بعد ذلك. ﴿انما أنت مذکر﴾، فلست سوى مذکر لهم ولست مسيطراً عليهم، اي أن الله لم يوكل اليك مهمة فرض الشيء بالقوة، ﴿إلا من تولى وكفر﴾. فهل هذا الاستثناء، استثناء يختص بـ ﴿لست عليهم بمسيطر﴾ ام بـ ﴿فذكر انت مذکر﴾؟ ويرى تفسير الميزان بالاعتماد على بعض الادلة انه يخص ﴿فذكر انت مذکر﴾ ويقول: «...فالمعنى بالاستثناء هو التذكرة بعد التذكرة كأنه قيل: ذكرهم وأدم التذكرة إلا من ذكرته فتولى عنها وكفر، فليس عليك إدامة تذكرة، بل أعرض عنه، فيعذبه الله العذاب الأكبر»<sup>(١)</sup>.

وهناك آراء مختلفة في تفسير الآية: ﴿لَا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ التي جاءت في سورة البقرة. فقال البعض انها نفس مبدأ حرية العقيدة الدينية الذي عدّ جزءاً من حقوق الانسان. وهذا يعني انّ الاسلام يتبنى حرية العقيدة. بينما قال آخرون انها قد نسخت بآيات الجهاد.

(١) جولة في السيرة النبوية، ص ٢٥٤-٢٥٦.

والحقيقة هي ان هذه الآية لم تنسخ بآيات الجهاد، كما أنها لم تكن عين مفاد الاعلان العالمي لحقوق الانسان الذي ينص على حرية العقيدة الدينية.

ولابد من الحديث هنا عن أمرتين: الاول كيف كان تاريخ تطور الاسلام وغوه وازدهاره؟ وما هي العوامل التي تقف خلف ذلك فهو الاسلامي السريع الذي طوى مسار مائة عام في ليلة واحدة مما جعل المناوئين يشعرون بعقدة النقص؟ وهذه قضية تاريخية. والقضية الاخرى: ما هو رأي الاسلام بحرية العقيدة، وما هو نطه الفكري على هذا الصعيد؟ وحول الموضوع الاول نقول ان مراجعة سيرة الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه وتاريخ حياته خلال مرحلة الرسالة تكشف عن نمو الاسلام وازدهاره رغم ان المال والقوة كانوا في الجهة الم反ا له. فالرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه لم يجمع الناس حوله من خلال الترغيب أو التهديد ابداً، وهذا كانت اللوحات التاريخية المعبرة عن عقيدة المسلمين وثباتهم واستقامتهم في صدر الاسلام، لوحات فريدة في العالم. كما ان الحروب التي نشبت في ايام الخلفاء، لم ينتصر فيها سوى اولئك الذين كانوا قائمين بالليل وصائمين بالنهار. والأهم من ذلك، تفوق الاسلام على الامم المتحضرة وذات الخلفية الثقافية العرقية والتي لا يمكن نكران ارتباطها بتاريخها. ورغم الخسار النفوذ السياسي للخلافة الاسلامية عن هذه الامم فيما بعد إلا انها ظلت تحت هيمنة النفوذ المعنوي الاسلامي رغم سنوح الفرصة أمامها للعودة إلى ماضيها.

اما حول الموضوع الثاني، فهناك عدة نقاط لابد من الاشارة اليها:

- أ- ما هي الاشياء القابلة للاجبار والاكراه، وما هي الاشياء غير القابلة؟
- ب- في الحالات التي يمكن استخدام الاجبار فيها، ويمكن أن يترك الفرد حرّاً، هل تحترم الحرية بشكل مطلق ولا يجوز انتزاعها، أم أن هناك حالات لابد فيها من تحديد هذه الحرية؟

لاشك أن هناك حالات لابد من تحديد الحرية فيها وهي:

- ١- اذا كانت حرية الفرد مخلة بحرية الآخرين أو تتزعزع حرية الآخرين، فيمكن في

هذه الحالة بل يجب التصدي لحرية الفرد واجباره.

٢- اذا كانت الحرية الفردية تتعارض مع مصالح المجتمع العليا، يحق للحكومة - باعتبارها حافظة هذه المصالح - أن تحدد الحريات لصالح المصالح الاجتماعية العليا<sup>(١)</sup>. ولا تتحقق مثل هذه الخطوة إلا إذا اتخاذها الشعب نفسه، لأنّ قدرة الحكومة نابعة من قدرة الشعب، وبعد مثل هذا القرار من نوع الارادة الأخلاقية في مقابل الاهواء النفسية. وبعد تحديد حدود الحرية الفردية وقدرة الحكومة، من القضايا الاجتماعية المهمة في عصرنا الراهن، مثل النظام المفروض والضرائب المفروضة.

٣- اذا كان حفظ حرية الفرد خلافاً لصالح الشخصية المسلم بها. ففي قضايا كالتعليم، والتربية والصحة وغيرها لا بد من اتباع اسلوب الاجبار، اي لا بد من التعليم الاجباري، والصحة الاجبارية، وعلى قول المولوي:

الطفل يرتد من لسع الحجامة

والأُم المشفقة مسرورة بذلك الغم

والحكومة تفتخر عادة أن تلقي الناس حتى ولو باستخدام القوة البوليسية بالمصول المضادة للديفتيريا، والكَزاز والسل وغيرها.

فالحرية اذا لا بد منها على صعيد تأمين نفو الفرد وتكامله، مثل حرية الفكر (لا العقيدة)، وكذلك اذا كانت ذات صلة بالذوق والاختيار، اي تتعلق بالأمور التي يتحدد حسنها بالاستحسان، مثل اختيار اللباس، والسكن، والزوج، والصديق، والأمور التي يراد منها اللذة الآتية، لأنها اذا كانت غير مستحسنـة فهذا يعني انتفاء الغرض وتقضـه.. وكذلك في الموارد التي وإن لم يتصل حسنـها

---

(١) حرية الفرد المتعارضة مع المصالح الاجتماعية كالانسان الراكب في السفينة والساعي لثقبها بمحجة استخدام حريته (مثال موسى والخضر). فالافراد ليسوا أحراراً اذا ما أرادوا خرق القوانين الاجتماعية على صعيد الاخلاق والثقافة والتاريخ.

بالذوق، غير أن المصلحة تقتضي أن يكون الإنسان حرًّا في اختيارها<sup>(١)</sup>، مثل الأساليب التربوية، لأنَّ الحسن الخلقي لا يتلاءم مع الاجبار، وكذلك في الحالات التي يعتمد فيها رقي الناس وتطورهم على حرية العمل والاختيار، وإذا ما حاولنا أن نفرض عليهم مصلحتهم بالاكراه، فإنهم لن يصلوا في يوم ما إلى مستوى تقدير مصلحتهم وتحديدها. فالناس على سبيل المثال لابد لهم من انتخاب ممثلهم الصالح بارادتهم و اختيارهم، ولا بد من فسح المجال امامهم كي يصلوا إلى المستوى الذي يستطيعون به انتخاب الممثل الصالح. غير أنَّ فرض الممثل عليهم حتى وإن كان صالحًا، سوف لن يسمح للاستعداد الاجتماعي بلوغ مرحلة الفعلية، ويحول دون ظهور التجربة الاجتماعية، والعقل التجريبي الاجتماعي.

وهناك حالة أخرى يسمح فيها بالحرية لكنها ليست متصلة بالذوق وليس من الامور التي تتوقف فيها المصلحة على الانتخاب الفردي، ولا من الامور التي لا يتحقق النمو الاجتماعي إلا في إطارها فقط، لكن لا توجد قوة تشخيص ما فوق تشخيص الفرد قادرة على تحديد التكليف. ولهذا لابد من احترام عقيدة كل فرد وفكرة. والحقيقة أنَّ جذور حرية العقيدة الغربية تنبع من هذه الفكرة بالذات. اي ان حرية العقيدة الغربية تقوم على أساس رفض الاعتقاد بالدين والتشخيص الما وراء طبيعى، لأنَّ وجود ما فوق العقل الشخصي، ينفي منطق الحرية!

ج - الاسلام حينما يقول «لا اكراه في الدين»، يريد أن يؤكّد على انفصال دائرة العقيدة والايام عن دائرة القوة والاكراه. اي أن الدين يرفض منطق القوة. والاسلام الذي يقول «لا اكراه في الدين» لا يقصد من «الدين» النهج العملي فقط، وإنما العمل المترن بالایام. وليس مثل الحكومات التي تصرّ على

---

(١) بعبارة أخرى، في الموارد التي يستحسن فيها ظهور حالة الاختلاف وتتاذع البقاء، كي يتم انتخاب الأصلح.

العمل بالقوانين الحكومية - مثل قانون الضرائب - وليس مهمًا لديها أن يكون لدى الناس ايمان بهذا القانون ام لا يكون. وأما الاسلام فلا يقبل العمل إلا بشرط أن يكون متناغمًا مع الوجدان والقلب. ولو كان قابلاً للاجبار - على سبيل الفرض - مثل العلم، والصحة، لكان قد دعا اليه عن طريق الاجبار.

اما انصار حرية العقيدة فانهم انا صاروا انصاراً لها اعتقاداً منهم ان الدين والاعيان، قضية شخصية ووجودانية وخاضعة للظروف الحياتية. وليست من المحسن المطلقة التي لا تعتمد على تشخيص الاشخاص وأذواقهم، اي انهم يعتبرونه من المحسن النسبيه التي يخضع تشخيص حسنها أو بحثها إلى ذوق الاشخاص، مثل الموسيقى، والشعر، ولون الموبيليات والبساط. فقد يعجب احدهم بديوان سعدي والأخر بديوان حافظ، وقد لا يولي ثالث اهتماماً ليس بديوان سعدي وحافظ فحسب وإنما للشعر بشكل عام. فالعقيدة - أي الذوق - حرّة في مثل هذه الامور. فقد يتذوق شخص ما الموسيقى الغربية، في حين يتذوق شخص آخر الموسيقى الشرقية. وقد يميل هذا إلى المطرب الفلامي وذاك إلى مطرب آخر. وكل فرد ينزع في مثل هذه الامور، نحو ما يميل إليه قلبه. فهي ليست اموراً اصولية ذات آثار ما وراء اللذة المستحصلة منها، وإنما هي امور ذوقية لا يتجاوز اثرها اللذة المؤقتة التي يستشعرها الانسان من خلاها. وإلا اذا كانت هناك مصلحة، وكانت قابلة للأكره والاجبار ايضاً، فلماذا تختلف عن العلم، والصحة إذ؟

د- الاسلام ليس مثل نظرية الفيلسوف التي يقولها في زاوية من زوايا الغرفة أو تحت الدثار الدافئ ولا يسمح لأحد بالدخول اليه، اغا لديه مشروع نظام اجتماعي ويبدل اقصى ما لديه من جهود لتطبيق هذا المشروع.

هـ - الجهاد في الاسلام - بمعنى الدفاع - يعد من اكبر القوانين طبيعية في الاسلام. فتسلماً لا تحبني القوة في دائرة المنطق، كذلك لا يجدي المنطق في مقابل القوة. فالقوة يجب أن تجاهد بالقوة. وهناك مثل معروف يقول: «عقدة قرن

أفضل من متري ذئب». والمقصود هو أن المنطق لا يجدي في مقابل القوة.  
ويقول الشاعر مشكك الطبيسي:

رغم قوة السيف والقلم

إلا أن ما يفعله السيف لا يفعله القلم

فالسيف كناية عن القوة، والقلم كناية عن المنطق والاستدلال.

اما على صعيد الجهاد المجموعي، فلا بد من ملاحظة طبيعة المحيط الذي يراد مهاجمته. فقد يكون ذلك المحيط يتمتع بالحرية بحيث يمكن لكل أحد أن يعرض عقيدته فيه، مثلما هو الحال في بريطانيا كما يقولون، فبامكان كل أحد أن يعرض عقيدته ورأيه وفكرته ويبلغ لها ويدعو إليها في الحديقة المسماة «هайд بارك»، الموجودة في العاصمة لندن. ويقتصر استعمال القوة في مثل هذا المحيط على ايجاد حالة الاختناق والكبت. وقد تهيمن على المحيط قوة شيطانية تقنع الحرية وتحول دون عرض العقيدة، فيجوز استخدام الجهاد المجموعي لضرب تلك القوة الشيطانية ونشر الحرية وخلق المحيط الحر. وربما يكون هدف الآية الكريمة: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله»، هذا المعنى بالذات، اي ازاحة أسباب الفتنة والقوى الشيطانية وتحرير المحيط.

وكان المسلمون في صدر الاسلام ينطلقون لتدمير القوى الشيطانية، إلا انهم لم يجبروا الناس على اعتناق الاسلام. فكانوا احراراً في البقاء على دينهم وفي ظل ظروف تتميز بالحرريات والمحدوبيات مثل عدم وجوب الجهاد، والزكاة، والخمس، وجواز شراء وبيع الحمر والخنزير، واقامة مراسيم الزواج وفقاً لدينهم، أو اختيار الاسلام، وعدم إعطاء الجزية، والعيش مثل اوائل المسلمين بدون اي تفاوت. وليس هناك قوم فاتحون تعاملوا مع المغلوب بشهامة وعدل كالمسلمين.

و- الاسلام يعترف بحرية عقيدة اهل الكتاب، أي انه لا يعدها جرماً، في حين يعد الشرك والمادية جرماً قابلاً للملاحقة بل وحتى الاعدام. وهذا هناك

فارق بين اللادينية المخضة أو العقيدة المادية، وبين العقيدة الدينية الخاصة كاليهودية، وال المسيحية، وحتى المحسوبة (يراجع تفسير الميزان، ج ٢، ص ٦٥-٧٠).<sup>(١)</sup>

اذاً تغيرت الدعوة الاسلامية بعناصر الرفق، واللين، والمرونة، وتحاشي العنف والإكراه والاجبار على صعيد الاعيان نفسه، لا على صعيد العقبات الاجتماعية والفكرية التي تعرضت الاعيان والتي لها حساب آخر:  
﴿لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾.

وصفة منطق القرآن أن ليس هناك إكراه في امر الدين، لأن الحقيقة واضحة وساطعة: طريق الهدایة والرشد واضح، وطريق الضلال والغي واضح ايضاً، وبإمكان المرء أن ينتخب أحد هذين الطريقين<sup>(٢)</sup>.

فالدين والاعيان خاليان من الإكراه، والطريق واضح، والاسلام لا يريد غير التفكير والتدقيق. والاعيان الذي يريده الاسلام هو بالاساس غير قابل للفرض والإكراه ولا يستوعب الاجبار. فهل يمكن إجبار الشخص على الاعيان وفق الشكل الذي يريده الاسلام؟ فإذا كان بإمكان الطفل المشدود إلى الفلقة والذي ينهال عليه الضرب المبرح أن يحمل مسألةً من المسائل، بإمكان مثل هذا الاعيان أن يتحقق ايضاً. فليس بإمكان أحد أن يحمل مسألة تحت الضرب،.. فلا بد من تركه حراً، ولا بد لفكرة أن يعمل بحرية، كي يتمكن من الوصول إلى الحل. والعقيدة الاسلامية، على غرار هذا الامر تماماً.<sup>(٣)</sup>

وجاء في تفسير آية ﴿لا اكراه في الدين﴾ أن رجلاً انصارياً من المسلمين كان لديه ولدان اعتنقا الديانة المسيحية وازاد تعليقها بهما. فاستاء ابوهما

(١) سلسلة ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف، ص ٨٤-٨٨.

(٢) جولة في السيرة النبوية، ص ٢٥٣ و ٢٥٤.

(٣) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١١٠.

ال المسلم واقبل على الرسول وقال: يا رسول الله! ماذا أفعل وقد اعتنق ولداي المسيحية، ولم يرجعا عنها رغم كل ما فعلت، فهل تأذن لي باكراهها على الخروج منها والدخول في الاسلام؟ فقال الرسول ﷺ: لا، لا اكره في الدين<sup>(١)</sup>.

وهناك آية معروفة تقول: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما هي أحسن»<sup>(٢)</sup>.

انها تأمر بالدعوة إلى سبيل الله، لكن كيف؟ بالقوة؟ بالسيف؟، كلا، وانما بالحكمة، والمنطق، والبرهان، وكذلك بالموعظة الحسنة، والجدال بما هي احسن. فإذا ما جادلك احد ما، فجادله جدالاً حسناً حلواً. وتكشف هذه الآية هي الاخرى عن اسلوب اعتناق الاسلام والاعتقاد به ألا وهو اسلوب الدعوة.

وهناك آية اخرى تقول: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر»<sup>(٣)</sup>، حيث تشير إلى اختيارية الكفر والایمان، وتنفي وجود الامر على اعتناق الاسلام. فالاسلام لم يقل في يوم ما لا بد من اكراه الناس للانتهاء اليه، وانما فرض هذا الامر إلى الشخص نفسه: إن شاء آمن، وإن شاء كفر.

وهناك آية اخرى: «لو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جمِيعاً فأفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين»<sup>(٤)</sup>.

والآية توجه خطابها إلى الرسول ﷺ الذي كان يتوقع لأن يرى الناس جميعاً مؤمنين. وتأكد له أن لا معنى للقوة على صعيد الایمان لأنها لو كانت صحيحة لجعل الله الناس جميعاً مؤمنين منذ البداية بارادته التكوينية، إلا أن

(١) الجهاد، ص ٣٤.

(٢) النحل / ١٢٥.

(٣) الكهف / ٢٩.

(٤) يومنس / ٩٩.

الإيمان أمر يجب أن يختاره الناس بأنفسهم. لهذا ولنفس السبب الذي لم يجبر الله الناس على الإيمان بارادته التكوينية، عليك أيضاً أن لا تقتصرهم على الإيمان، وتدعهم حراراً في اختياره.

وفي القرآن الكريم آية أخرى تخاطب النبي ﷺ قائلة: «لعلك باخ نفسك أن لا يكونوا مؤمنين»؛ أي يبدو أنك ت يريد أن تنهك نفسك وتهلكها لأنهم لم يؤمنوا، فلا تتألم عليهم إلى هذا الحد، لانتنا لو أردنا أن نجعلهم مؤمنين بارادتنا التكوينية وعن طريق الاجبار، لما صعب علينا ذلك «إن نشأننزل عليهم من السماء آية فظلت اعناقهم لها خاضعين»<sup>(١)</sup>. أي انتا اذا اردنا أن ننزل من السماء آية وعداها لقلنا لهم إما أن تؤمنوا وإما أن نهلكم بهذا العذاب، ولا بد أن يؤمنوا حيث إن مكرهين، إلا انتا لا نفعل ذلك لانتنا نريد أن يختاروا الإيمان بأنفسهم.

ويكفي أن نستشف من هذه الآيات أيضاً أن هدف الإسلام من المجهاد ليس كما قال بعض المغرضين اجبار الناس على اعتناق الإسلام، أي إما الإسلام أو القتل بالسيف!

### الأنبياء وحرية العقيدة

العمل الصحيح هو ما قام به نبي الله إبراهيم عليه السلام. فقد كان الشخص الوحيد الذي يتمتع بالتفكير الحر، بينما كان كافة الناس الذين حواليه يرسفون في أغلال العقائد التافهة التقليدية التي لا تستند إلى أدنى قاعدة فكرية. وقد خرج هؤلاء الناس يوماً خارج المدينة للاحتفال بأحد أعيادهم فيما تعارض إبراهيم ولم يخرج. وحينما خلت المدينة من أهلها انطلق نحو بيت الأصنام الكبير وهو يبالفأس على الأصنام ليحطّمها جميعاً ثم علق الفأس في عنق الصنم الكبير وخرج. وقد قام بهذا العمل كي يسمح لاذهانهم بالتفكير، حسب النص

(١) الشعراة ٢ / ٣

القرآنِ. وحينما عادوا ليلاً إلى المدينة، ودخلوا إلى المعبد، رأوا الأوضاع مقلوبة رأساً على عقب وكأنّ معركة حامية قد نشببت بين الأصنام وقد قتل بعضها البعض الآخر إلا الصنم الكبير الذي كان يحمل في عنقه الفأس، وأخذوا يتساءلون: من الذي فعل هذا؟ وأدركوا من خلال الفطرة أن هذه الأصنام الميتة ليس بامكانيها أن يحطم بعضها بعضاً. فلا بد إذًا أن هناك كائناً حياً قد فعل هذه الفعلة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا فَتِي يُذَكِّرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمٌ﴾. فأحضروا إبراهيم فوراً للتحقيق معه في الأمر، فقالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتْنَى يَا إِبْرَاهِيمَ؟﴾، فأجابهم: ﴿بَلْ فَعَلْهُ كَبِيرُهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ﴾، أي لماذا تسألوني أنا؟ أن أداة الجرم مع الصنم الكبير، فاذهبوا واسألوا الأصنام نفسها: من فعل بها هذا؟ ﴿فَرَجَعُوا إِلَيْهِمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي انهم عادوا إلى انفسهم، وحرروا فكرهم من غل العقيدة خلال عملية رجوعهم تلك. ولا شك في أن عمل إبراهيم هذا، كان عملاً انسانياً.

وكان عمل موسى بن عمران عليه السلام، عملاً انسانياً أيضاً. فحينما شاهد قومه يعبدون عجل السامي قال لهم: ﴿لَنُنْحرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنُنَسْفِنَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفَأً﴾. لأن هذا العجل لو بقي في اوساطهم لكتلهم بقيود الخرافة. فهل كان الفكر الحر هو الذي قاد قوم موسى لعبادة العجل أم انهم حينما خرجوا من البحر وسقطت عيونهم على اناس لديهم اصنام يعبدونها - ولم يكونوا قد سجدوا للأصنام من قبل - جاؤوا إلى موسى وقالوا له: ﴿يَا مُوسَى إِجْعَلْنَا الْهَآءَ كَمَا لَهُمْ آهَةً﴾؟

والعمل الصحيح هو ما قام به خاتم الانبياء ﷺ ايضاً. فقد تصدى لعقيدة عبادة الأصنام لسنوات متتالية ساعياً من خلال ذلك لتحرير افكار الناس. فلو مررت الف عام اخرى على عرب الجاهلية في الوضع الذي كانوا عليه، لظلوا على عبادتهم للأصنام والاوثان ولما خطوا خطوة واحدة باتجاه الرقي والتكميل، كما هو الحال عند بعض الشعوب المتطرفة كالبابانيين الذين لا زالوا يحتفظون بعبادة الأصنام. إلا أن الرسول انبرى ل تحطيم الاغلال عن

افكارهم وإطلاقها من وثاق العقائد المزيفة: «ويضع عنهم إصرهم والاغلال التي كانت عليهم». وهكذا نرى أن الاسلام يطلق على حرية العقيدة التي ينادي بها الغرب، اسم «الاغلال»، ويطالع الناس أن يشكروا الله تعالى لأنه انقضهم بواسطة هذا الرسول من تلك الاتصال التي كانت تنوء بها اكتافهم، أي الخرافات والعقائد التافهة، وحطّم عنهم الاغلال التي كبلوا أنفسهم بها.

بعد معركة بدر، جيء بالأسرى بين يدي الرسول ﷺ وكأنوا مقيدين خشية أن يهربوا. فنظر إليهم وتبسم. فقالوا له ما كانا متوقع أن تشمّت بنا. فأجابهم أنها ليست شهادة إلا أنني سأبعث بكم إلى الجنة بقوة هذه القيود. ولا بد لي أن انتزع منكم عقائدكم بالقوّة<sup>(١)</sup>.

كيف يمكن تفسير العمل الذي قام به ابراهيم عليه السلام؟ وهل كان العمل الذي قام به يتعارض مع حرية العقيدة بمعناها المتداول في هذا اليوم والاصرار على حرية عقيدة كل شخص، ام انه كان في خدمة حرية العقيدة بمعناها الحقيقي؟ فلو كان ابراهيم قد قال: بما أن هذه الاصنام تُعبد وتحترم من قبل ملايين الناس، فلا بد أن أحترمها ايضاً - نفس الكلام الذي يروج له انصار حرية العقيدة في هذا اليوم - فهل كان قوله صحيحاً؟ أبداً، انه لو قال ذلك لكان اغراء على المجهل لا خدمةً للحرية<sup>(٢)</sup>.

### الدفاع عن التوحيد

الاسلام دين السيف، إلا أن سيفه كان متأهلاً للدفاع إما عن ارواح المسلمين، واموالهم، وببلادهم، أو عن التوحيد عند تعرضه للخطر. وقد بحث العلامة الطباطبائي موضوع الدفاع عن التوحيد في تفسير الميزان خلال تناوله لآيات القتال في سورة البقرة، وكذلك في آية «لا اكراه في الدين». فالاسلام

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٠١ و ١٠٢.

(٢) حول الثورة الاسلامية، ص ٩٦ و ٩٧.

يسعى لإنقاذ التوحيد كلما تعرض للخطر، لأن التوحيد اسم حقيقة إنسانية. وهؤلاء السادة الذين يتحدثون عن الحرية، لا يعلمون أن التوحيد بمستوى الحرية على الأقل، إن لم يكن اسمها، ولا شك في أنه اسمها. وطالما قلت في مختلف المناسبات: لو دافع شخص ما عن نفسه، فهل يُعد دفاعه هذا صحيحاً أم لا؟ ولو تعرضت أرواحكم للخطر من قبل شخص ما، فهل تقولون دعوه يفعل ما يشاء، فلا يجب أن نستخدم القوة، دعوه يقتلنا؟ كلا. كذلك لو تعرض عرض شخص ما لخطر الاعتداء، فلا بد من الدفاع. ولو تعرضت أمواله للاعتداء، فلا بد من الدفاع، ولو تعرض بلد ما للاعتداء، فلا بد لأهله من الدفاع. وهذه أمور غير قابلة للنقاش. وأنا أقول: لو تعرضت أرواح شعب مظلوم وأموالهم وبладهم لاعتداء ظالم ما، فهل تعد مساهمة شخص ثالث في الدفاع عن المظلوم، عملاً صحيحاً أم لا؟ ليس الدفاع عن المظلوم عملاً صحيحاً فحسب، وإنما اسمى من دفاعه عن نفسه أيضاً، لأن الإنسان حينما يدافع عن حرية نفسه، أما حينما يدافع عن حرية الآخرين، وإنما يدافع عن الحرية نفسها، وهو دفاع مقدس للغاية. فلو هب شخص من أوروبا للدفاع عن الفيتนามيين وقاتل الأميركيان، فإنكم تقدسونه مائة مرة أكثر من تقديسكم للفيتامي نفسه، ولا بد أن تقولوا: أي رجل عظيم هذا!! فالرغم من أنه لم يتهده خطر، إلا أنه افطلق من بلاده إلى بلاد آخر للدفاع عن حرية الآخرين، وارواحهم، وأموالهم، وبладهم. وهذا العمل أعظم مائة مرة من أي عمل آخر، لماذا؟ لأن الحرية مقدسة. وهل ينطبق هذا الأمر على من يدافع عن العلم؟ لا شك في أنه ينطبق أيضاً، في حال تعرض العلم للخطر، لأنه من المقدسات البشرية أيضاً، ولا بد من القتال لإنقاذه من الخطط. كما ينطبق على إنقاذ السلام.

ولا يختلف الأمر بالنسبة للتوحيد، لأن التوحيد الحقيقي ليس ملكاً لأحد، وإنما هو للبشرية بأسرها. والاسلام يأمر بالدفاع عن التوحيد حال تعرضه

للخطر، لأنه جزء من فطرة الانسان ولا يمكن أن تقوده فطرته ضد التوحيد، وإنما هناك عوامل أخرى تقود إلى ذلك. إلا أن هذا لا يعني الاسلام يسعى إلى إقحام التوحيد في قلوب الناس بالقوة، وإنما للقضاء على العوامل التي تهدد التوحيد، كالنقايد، والتلقينات، ومعابد الأصنام والآوثان، وكافة الأشياء التي يعمل وجودها على صرف الانسان عن التفكير في التوحيد، والتي تعد بثابة أغلال الفكر الانساني، كالعمل الذي قام به ابراهيم طليلاً<sup>(١)</sup>.

وعلى هذا الاساس هناك تفاوت كبير بين حرية التفكير وحرية العقيدة. فإذا كانت العقيدة قائمة على اساس فكري وذات جذور فكرية، فهي عقيدة مقبولة من قبل الاسلام. ولا يقبل بالاساس اية عقيدة على غير هذا النط. وتُعد حرية عقيدة بهذه، حرية فكرية. اما العقائد التي تنطلق بـ وهي من الوراثة، والتقليد، والجهل، والافتخار، والاستسلام للعوامل المناهضة للفكر، فهي عقائد لا يقبلها الاسلام باسم حرية العقيدة<sup>(٢)</sup>.

فالاسلام لا يسمح بوجود اي غل يكبل الانسان، حتى ولو كان هو الذي كبل نفسه به. ومن هنا تدرك أن حرية العقيدة شيء، وحرية الفكر والآيات التي تعني ان على كل شخص أن يحصل على ايمانه عن طريق التحقيق والتفكير والتفحص، شيء آخر. والاسلام يقاتل من أجل تحطيم العقبات والعوائق التي تعرّض سبيل الحريات الاجتماعية، ونحن نراهم يتتساءلون: لماذا هاجم المسلمون البلد الفلاني حتى في عهد الخلفاء؟ ولست بصدد بحث صحة ام عدم صحة الحروب التي جرت في ايام الخلفاء، إلا ان المسلمين حينما كانوا يفتحون البلدان، لم يقولوا لاهلها في يوم ما: كونوا مسلمين! فقد كانت النظم والحكومات الجائرة قد كبلت ايدي الشعوب وارجلها، وقد قاتل المسلمين تلك الحكومات لتحرير تلك الشعوب. هذا في حين لم يميز هؤلاء المعترضون

(١) جولة في السيرة النبوية، ص ٢٤٩-٢٥١.

(٢) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١٠٣ و ١٠٤.

بين الحكومات والشعوب. فإذا كان المسلمون قد حاربوا الحكومات، إلا انهم حرروا الشعوب. وإذا كانوا قد قاتلوا بلاد فارس والروم، فاغما قاتلوا حكومتيها المستبدتين من أجل اقاذ الامم التي كانت ترثى تحت حكمها، وهذا السبب نجد كيف استقبلت تلك الامم المسلمين بشوق وترحاب. فلماذا يتحدث التاريخ أن جيوش المسلمين حينما كانت تدخل إلى تلك البلاد، كان أهلها يستقبلونها بياقات الورود؟ لأنهم كانوا يرون فيها ملاك الرحمة. ان المغرضين لا يفرقون بين الحكومات والشعوب ويقولون: «عجبًا! أن المسلمين حينما غزوا ايران، اقبلوا على أهلها واجبروهم على دخول الاسلام!». أن المسلمين لا يستهدفون الشعوب، وإنما يستهدفون الحكومات المتجردة. فهم قد ابادوا الحكومات وتركوا الحرية للناس لاعتناق الاسلام، وقالوا لهم: اذا أسلتم اصيحتم مثلنا تماماً، وإذا لم تسلمو، فهناك عقود معينة نوقعها معكم تحمل بعض الشروط وتدعى شروط الذمة، وهي شروط سهلة وبسيطة للغاية<sup>(١)</sup>.

## وأد البنات

تقدّم أحد مشاهير الصحابة من الرسول الراكم ﷺ يوماً وخبره بأن النعمة التي انعمها الله عليهم بواسطة الرسول ﷺ هي اكبر مما يمكن تصوّره. ويبدو انه قد اعرب عن رأيه هذا حينما كان يلطف الرسول ﷺ ابنته أو طفليه اخرى. ثم تحدث هذا الرجل عن حادثة مأساوية تفوح منها رائحة القسوة وتدعى إلى الحيرة، حتى انه نفسه ابدى حيرته واندهاشه لارتكابه مثل ذلك العمل. واخبر الرسول ﷺ انه كان من وقع تحت تأثير عادة وأد البنات اعتقاداً منه أنها عار لا بد ان يُمحى. وقد ولدت له بنت اخفتها امها عنه خوفاً من أن يئدها وقالت له أنها قد ماتت. وكبرت تلك

---

(١) جولة في السيرة النبوية، ص ٢٥٢ و ٢٥٣.

البنت حتى بلغت من العمر ست أو سبع سنوات، وقد جاءت بها امها في يوم ما اليه لتربيها له ظناً منها انه لن يمسهاسوء حيناً يرى أن لديه مثل هذه البنت الجميلة. إلا انه غضب غضباً شديداً وهبّ لدفتها حية دون أن يرق لها قلبه. واعترف هذا الرجل للرسول انهم كانوا وحوشاً قبل الاسلام، وانه قد انقضهم وحررهم من تلك الاعمال التي كانوا يتصورون أنها حسنة<sup>(١)</sup>.

### تحرير العقل من العادات

والقضية الاخرى هي تحرير العقل من هيمنة البيئة، والعرف، والعادات، ونفوذ السنن والايحاءات الاجتماعية. وما اوصى به الامام الكاظم عليهما السلام تلميذه هشاماً: «... يا هشام ثم ذم الذين لا يعقلون، فقال (أي القرآن): ﴿وَإِذَا قِيلُ لَهُمْ أَتَبْعَدُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَبِعُ مَا فَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقُلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

فالقرآن يندم الذين يقعون في اسر التقليد ويحاكون الآباء والاسلاف، ولا يتحرر كون بوحي من العقل والتفكير. فما هو هدف القرآن من هذا الذم؟ لا شك أن هدفه التربية. اي انه يسعى إلى ايقاظ الناس والفات انتباهم إلى أن المعيار هو العقل والتفكير، لا التقليد المحمض للآباء والاجداد. وهناك عدد كبير من الآيات القرآنية يتحدث عن التقليد الاعمى للآباء، ولم اجد نبياً دعا قومه إلى الایمان، إلا وقالوا له: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقتَدُونَ﴾<sup>(٣)</sup>. وبالرغم من اختلاف الامم التي بُعثت إليها الانبياء من حيث السنن والعادات، واستعراض كلنبي للقضايا التي تتصل بحياة كل امة من تلك الامم، إلا أن كافة تلك الامم تشتراك في عيب كبير واحد وهو تقليد الآباء أو ما

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ١١٧.

(٢) البقرة / ١٧١.

(٣) الزخرف / ٢٢.

نسميه اليوم بـ«التقليدية». وقام الانبياء في اوساط تلك الامم بعهمه ايقاظ عقولها وفسح المجال لها بالتفكير من خلال التأشير على نقطة مهمة: ﴿أَوْلَوْ كَانُواْ أَبْأَوْهُمْ لَا يَعْقُلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾، فهل سيحزون حذو آباءهم حتى وان كانوا لا يدركون الاشياء ولا يهتدون اليها؟

### الامام الصادق والرجل التقليدي

انها قصة معروفة تقول أن الامام الصادق عليه السلام زار احد اصحابه أو احد شيعته في بيته، وكان يسكن في دار صغيرة ومتواضعة للغاية. ويبدو أن الامام كان يعلم أن وضعه المالي يسمح له بالسكن في دار افضل منها. فتساءل الامام عن سبب نزوله في هذه الدار في حين ان: «من سعة المرء سعة داره»<sup>(١)</sup>.  
فقال: قد أجزاءً هذه الدار لابي.

فقال الامام الصادق عليه السلام: إن كان ابوك احمق، فتبغى أن تكون مثله؟  
انها نقاط عجيبة حقاً. فالانسان لا يلتفت على الصعيد التربوي اليها ولا يسائل نفسه لماذا يقوم القرآن بالاشارة اليها. انه يريد أن يربى الامة عليها.

### عدم اطاعة الاكثرية

وتحدث الامام موسى الكاظم عليه السلام عن موضوع آخر ضمن ذم الله تعالى البعض الاشياء: «...ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ الْكُثُرَةَ فَقَالَ: ﴿وَإِنْ تَطْعَ اكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ  
يَضْلُوكُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>».

فلا بد من التحرر من هيمنة العدد، ولا يجب أن تُتَخَذ الاكثرية معياراً وملاكاً، ولا يجب أن ينظر الانسان فيرى أين تسير الاكثرية فيتبعها ويسير في طريقها دون أن يكون لديه تردد في الامر تفكير، لأن هذا السلوك لا يختلف عن

(١) محسن البرقي، ص ٦١١؛ فروع الكافي، ج ٦، ص ٥٢٥ بتعابير مختلفة.

(٢) الانعام / ١١٧.

التقليد في شيء. فثلياً أن الإنسان ينزع بالطبع نحو تقليد الآخرين، ينزع بالطبع نحو الأكثرية أيضاً. والقرآن يوجه الانتقاد بشكل خاص نحو ذلك الشيء الذي ينزع نحوه الإنسان بالطبع، فيقول: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضْلُّكُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، والسبب في ذلك هو أن أكثر الناس تسير خلف الظن والتخيين لا خلف العقل والعلم واليقين، فتلتتصق بخيوط ظنها العنكبوتية.

ولهذا السبب بالذات قال علي عليه السلام: «لا تستوحشو في طريق الهدى لقلة اهله»<sup>(١)</sup>. إفروضاً إننا نسير نحو هدف ما، فوصلنا إلى مفترق طرفيين، فاتخذنا أكثرنا أحد هذين الطريقين، بينما اتخذنا نفر قليل منا الطريق الآخر. فمن الطبيعي أن نشعر نحن القلة بالوحشة خلال سلوكنا للطريق الثاني وقد تحدثنا أنفسنا بسلوك الطريق الذي سلكنه الأكثرية ونقول ليصيّبنا ما يصيّبهم! غير أن الإمام علي عليه السلام يقول: كلا، عليك أن تكون عارفاً بالطرق، ولا معنى لاتباع الأكثرية، لمجرد كونها الأكثرية.

### عدم التأثر بأحكام الآخرين

والقضية الأخرى المتصلة بالتربية العقلية هي ضرورة أن لا نتخد من أحكام الآخرين ملاكاً ومعياراً. فهناك مرض عام يعاني منه اغلب الناس وللأسف. فقد يرتدي شخص ما لباساً معيناً ذا لون خاص بعد أن اقتنع انه لون جيد. لكن سرعان ما يأتي اليه احدهم ويقول له: اي لون تافه هذا الذي اخترته! وقد يكرر ثان وثالث هذه العبارة حتى يدخل ذلك الشخص اعتقاد بأن اللون الذي انتخبه لون سيئ وتافه حقاً. وقد يلجم البعض إلى مثل هذه الانتقادات أو يصدر مثل هذه الأحكام لا عن قناعة وإنما لمجرد حمل الجانب الآخر على تغيير فكرته، وهذا ليس من الصحيح أن يخضع الإنسان لقرارات الآخرين وأحكامهم في القضايا التي تخصه. وهذا قيل لنا: لا تقعوا أبداً تحت

(١) نهج البلاغة، الخطبة ٢٠١

تأثير احكام الآخرين وتشخيصهم في الامور التي تتعلق بكم<sup>(١)</sup>.

### العلاقة بين إعلان البراءة من المشركين ومبدأ الحرية

يقولون أن الاسلام يقول: تعاملوا بشدة مع المشركين الذين ليس بينكم وبينهم عهد أو الذين نقضوا عهدهم معكم، وأمهلوهم، فإن تابوا بعد ذلك وأسلموا فلا ضير عليهم وإن لم يتوبوا وعandوا فاقتلوهم، أما إذا جاؤكم لمعرفة الحقيقة فأعطوهم الامان، وإلا فاقتلوهم. فهل ينسجم هذا المبدأ الاسلامي مع مبدأ حرية العقيدة الذي يُعد في هذا اليوم جزءاً من حقوق الانسان؟ وكيف يمكن تعليله اذا لم ينسجم؟ إن حرية العقيدة، هي من الحقوق الإنسانية الاولى، ولا يسمح قانون حقوق الانسان بال تعرض لاحد من اجل العقيدة التي اختارها؛ فكيف يأمر الاسلام بالتعامل وفق المسطق اعلاه مع المشركين (لا مع اهل الكتاب كالنصارى واليهود والمجوس)؟ ثم هل ينسجم هذا الامر مع القاعدة القرآنية التي تقول ﴿لَا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾؟ اي أن القرآن يعلن مرة: ﴿لَا اكراه في الدين﴾، ثم يأتي ليقول: ﴿براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين﴾ إلى أن يقول: ﴿فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلو المشركين حيث وجدتهم﴾، لماذا؟ لماذا قتل المشركين حيثاً وُجّدوا، بينما يعلن نفسه: ﴿لَا اكراه في الدين﴾؟

تُعد حرية العقيدة كما قلنا في هذا اليوم حقاً من حقوق الانسان. ويقولون انه حق طبيعي وفطري للانسان أن يختار العقيدة التي يريد. ولو تصدى احد لعقيدته فإنما يتصدى لحق منحته الطبيعة أو الخلقة للانسان، ويرتكب ظلماً في هذا المجال.

إلا أن اساس هذا الكلام باطل، صحيح أن الانسان لديه حق طبيعي وفطري، إلا أن هذا الحق الطبيعي والفطري لا يعني احترام كل عقيدة يختارها

(١) التعليم والتربية في الاسلام، ص ٤٦-٤٩.

الانسان لنفسه. انهم يقولون أن الانسان محترم بما انه إنسان، وهذا لا بد من احترام ارادته وانتخابه ايضاً؛ ولا حق لاحد أن يعترض سببها يحاسبه على عقيدته التي اختارها بنفسه. غير أن الاسلام يرفض مثل هذا الكلام ويقول: صحيح ان الانسان محترم، لكن هل لا بد من احترام انتخابه، منها كان هذا الاحترام؟ إن احترام الانسان، يلي احترام مواهبه وكمالاته الانسانية، اي احترام انسانيته.

فالانسان اما صار انساناً بسبب ما اودعته اليه اليد الالهية فيه من سلسلة من المواهب والاستعدادات العظيمة. وقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله: «ولقد كرّمنا بني آدم»<sup>(١)</sup>. فالانسان يتمتع بالفكير، والقابلية العلمية مختلفاً بها عن الحيوانات والنباتات والجمادات. وهذا السبب ينفرد عنها بالاحترام. وقد قال الله تعالى ايضاً: «وعلم آدم الاسماء كلها»<sup>(٢)</sup>. فالله قد علم اسماءه للانسان دون غيره من المخلوقات، وكمال الانسان في أن يكون عالماً. فلديه سلسلة من القابليات الاخلاقية والمعنوية، وبامكانه أن يتمتع بكرامة خلقية سامية. ولديه من المشاعر العليا التي لا يتلکها لا الحيوان ولا النبات. كما أن انسانية الانسان ليست بهيكله ومشيه وكلامه وطعامه، فانسان كهذا انسان بالقوة لا بالفعل، ومن الممكن أن يرتكب الانسان ابشع الجرائم في حق الانسان نفسه، أي أن أنسف أنا الانسان انسانيتي بيدي. واذا ما اتخذت خطوات مناهضة للكمالات الانسانية بارادي، فأنا لست سوى انسان مضاد للانسان أو في الحقيقة حيوان مضاد للانسان. فاذا كنت معادياً للعلم وقلت أن العلم في ضرر الانسان، فأنا انسان معاد للانسان، بل الصحيح «حيوان معاد للانسان»، او انسان معاد للانسانية الحقيقة بالقوة. فأنا لو تمردت على الصدق والامانة والكرامة الانسانية واصبحت مثل «مكيافيلي» نصيراً للسيادة وقلت أن الاخلاق

---

(١) الاسراء / ٧٠.

(٢) البقرة / ٣١.

والانسانية والشرف والامانة اغا هي وسيلة الاقوياء على الضعفاء واساس السيادة، فأنا لست سوى انسان عدو لانساني<sup>(١)</sup>.

واسى الاستعدادات الموجودة عند الانسان واكرمها هي الحركة نحو الله تعالى: «يا ايها الانسان انك كاذب إلى ربك كدحًا فملاقيه». والشرف بشرف التوحيد، هو الذي يضمن السعادتين الدنيوية والاخروية. فإذا ما ترد احد على التوحيد، فهو انسان معاد للانسان، أو قل حيوان معاد للانسان. ومن هنا ندرك أن معيار كرامة الانسان واحترامه وحرفيته، حركته في مسار الانسانية. ولا بد من اعطاء الحرية له خلال حركته في هذا المسار، وليس أن تعطى له الحرية في انتخاب كل ما يشاء حتى وان كان ذلك الانتخاب متعارضاً مع الانسانية.

فاولئك الذين تقوم فكرتهم حول حرية الانسان على اساس حرية ارادته - اي انه حرّ في كل ما يشاء - يقولون: «الانسان حر في اختيار عقيدته»، لكن ماذا لو اختار الانسان عقيدة مناهضة للانسان نفسه ومضادة له؟!<sup>(٢)</sup>

يمكن فرض الحرية بالقوة

ولا يمكن فرض الایمان وروح التحرر

وهناك تفاوت بين التوحيد - حتى وان اعتبرناه من حقوق الانسان - وبين غير التوحيد كالحرية، يتمثل في أن الحرية يمكن فرضها بالقوة على الناس، من خلال التصدي للمعتدي بالقوة. اي يمكن تحرير امة بالقوة عند الوقوف بوجه المعتدي ودحره. ولكن لا يمكن فرض روح التحرر عليهم، فلا يمكن أن نعتقد بشيء عن طريق القوة والاكراء، أو أن تخلق القوة في قلوبنا الاعيان بشيء ما. وهذا هو معنى «لا اكراه في الدين». فالقرآن حينما يقول لا إكراه في الدين، لا يريد أن يقول: من الممكن فرض الدين أو إكراه الناس عليه، إلا انكم لا

(١) التعرف على القرآن، ج ٣، ص ٢٢٣-٢٢٠.

(٢) التعرف على القرآن، ج ٣، ص ٢٢٤.

تستخدموا اسلوب الاكراه ودعوا الناس احراراً في اختياره. وانما يريد أن يؤكد على حقيقة ان الدين لا يمكن أن يفرض بالاكراه والاجبار. وما يفرض بالاجبار لا يمكن أن يكون ديناً.

وخطاب القرآن الكريم تلك الفئة من عرب الbadiee التي اسلمت حدثاً دون أن تفقه ماهية الاسلام ودون أن ينفذ الاسلام إلى قلوبها ورغم ذلك ادعت الایمان، فقال: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قَلْ لَمْ تَؤْمِنَا وَلَكُنْ قَوْلُنَا إِسْلَمْنَا وَلَمَا يَدْخُلَ الْأَيْمَانَ فَقَالَ﴾<sup>(١)</sup>. اي قولوا انتا قد اقرنا إقراراً لفظياً بالاسلام، واكتسبنا بالشهادتين حكم المسلم الظاهري، وقد اصبحنا جزءاً من المسلمين لنا ما لهم وعلينا ما عليهم. غير انكم لا ينطبق عليكم الایمان لأنه لم ينفذ إلى قلوبكم ولا إلى اعماقكم. وفهم من ذلك أن القرآن يريد أن يقول أن الایمان متعلق بالقلب.

والشاهد الآخر على كلامنا هو أن الاسلام لا يميز التقليد في اصول الدين، ويوجب التحقيق والتفحص بالضرورة. ومن الواضح أن اصول الدين، تتصل بالعقيدة والایمان؛ مما يعني أن وجهة نظر الاسلام ترفض استحصال الایمان عن طريق الفكر غير الحر سواء كان بواسطة اغلال التقليد أو القوة والاكراه، لأن العقيدة التي يريدها الاسلام لا يمكن أن تتحقق من خلال هذه الالوان التي لا تعبر عن الحرية الفكرية.

والآن وقد ادركنا هذا الموضوع، نجد أن هناك رأيين متقاربين للباحثين الاسلاميين على صعيد التوحيد. فالبعض يرى ان التوحيد جزء من الحقوق الانسانية، ولا بد من الدفاع عن الحقوق الانسانية؛ اي لا بد من الدفاع عن التوحيد، ويمكن مقاتلة الامم من اجله. فيما يرى البعض الآخر انتا لا يمكن أن تقاتل من اجل التوحيد فقط؛ اي لا يمكن أن تقاتل الامة المشركة لمجرد انها مشركة.

---

(١) الحجرات / ١٤

## القتال لازحة المowanع عن طريق الائمان والتوحيد

ونرى من خلال ما ذهبنا اليه تقارب هذين الرأيين. لاننا حتى إذا اعتبرنا التوحيد جزءاً من الحقوق الإنسانية، فليس بامكانتنا ايضاً أن نقاتل امة اخرى من أجل فرض عقيدة التوحيد عليها، لأن التوحيد بحد ذاته غير قابل للفرض والاكراه. نعم، هناك حالة واحدة وهي اننا لو اعتبرنا التوحيد جزءاً من الحقوق الإنسانية، فامكانتنا أن نقاتل الامة المشركة عند اقتضاء المصلحة الإنسانية ومصلحة التوحيد، لكن لا من أجل أن نفرض التوحيد أو الائمان عليها - لأنها غير قابلين للفرض - وإنما من أجل استئصال جذور الفساد من الاساس. وهذا يعني أن اجتثاث جذور عقيدة الشرك بالقوة شيء، وفرض عقيدة التوحيد شيء آخر.

ومن هنا نرى أن أولئك الذين يعتبرون التوحيد جزءاً من الحقوق الفردية والحد الأعلى للحقوق الفردية، لا يجيزون قتال المشركين من أجل التوحيد. وأغلب الغربيين يؤمنون بهذا النطافكري الذي سرى في اوساطنا ايضاً.

فالغربيون ينظرون إلى هذا النوع من القضايا على انه سلسلة من القضايا الشخصية وغير الجادة في الحياة، كالعادات والتقاليد التي عليها الشعوب والتي لها الحق في انتخاب ما يحلوها منها. ويصررون على اننا لا حق لنا في التصدي للشرك حتى من أجل اجتثاث جذور الفساد، لأن التوحيد امر شخصي بحت ولأن الشرك ليس فساداً من وجهة نظرهم.

لكننا لو اعتبرنا التوحيد قضية عامة، وجزءاً من الحقوق الإنسانية، ومن الشروط التي لا بد من توفرها لتحقيق السعادة العامة، جاز حينئذ القتال الابتدائي مع المشركين دفاعاً عن التوحيد واستئصالاً لجذور الفساد. لكن لا يجوز هذا القتال اذا كان يهدف إلى فرض عقيدة التوحيد.

### الحرب من أجل حرية الدعوة وازاحة موانعها

ونرد هنا بحثاً آخر وهو: هل يجوز القتال من أجل حرية الدعوة؟ وما معنى

القتال من أجل حرية الدعوة؟ نحن نقول يجب أن تكون احراراً في الدعوة لعقيدة أو فكر خاص بين الناس، سواء كنا ننظر إلى الحرية، أو إلى التوحيد، أو إلى كلِّيهما معاً كحق عام وانساني. ولو كان هناك حائل مانع يعتريض طريق هذه الدعوة، ولو ظهرت قوة ما وقالت لا اسمح لكم بالدعوة لأنكم تهددون إلى تسميم افكار الناس، سبباً وان مراد اغلب الحكومات من الفكر المسموم هو الفكر الذي يحمل الناس على عدم الانصياع لهذه الحكومات، فهل يجوز قتال هذه الحكومات وإسقاطها باعتبارها قتلة الحاجز الذي يعتريض نشر الدعوة؟ نعم يجوز هذا، لأنَّه عمل ذو هدف دفاعي، وجزءٌ من الجهادات ذات المنحى الدفاعي.

### مقياس الحقوق الفردية والحقوق العامة

لقد امطأنا اللثام حتى الآن عن ماهية الجهاد، وظللت قضية واحدة وهي: هل التوحيد جزء من حقوق الانسان العامة، أم جزء من الحقوق الفردية أو الحد الأعلى من الحقوق الوطنية؟ من أجل الاجابة على ذلك لا بد لنا أن نعرف ما هو مقياس الحقوق الإنسانية العامة والحقوق الفردية؟ فالناس يشتركون في كثير من الامور والقضايا، وهناك الكثير من المشتركات بين سكان الارض، كما أن هناك الكثير من المفارقات ايضاً. والاختلافات بين الناس هي من الكثرة بحيث لا يمكن نجد فردين يشبه احدهما الآخر في كل شيء. ومثلما لا يمكن العثور على فردين متشاربين تماماً من حيث الشكل والاعضاء والخصائص الجسمية، لا يمكن العثور ايضاً على فردين متشاربين تماماً من حيث المواقف النفسية. ومن هنا تُعد المصالح ذات الصلة بالمشتركات الإنسانية، حقوقاً عامة لا فردية. فالحرية - مثلاً - تعني عدم وجود مانع أو عائق يحول دون ظهور القابليات والمواهب التي يتمتع بها الافراد، وهي قضية تتعلق بالناس كافة وليس بفرد دون آخر. فالحرية مهمة بالنسبة لي بقدر

اهيتها بالنسبة لك، وهي مهمة لك بمستوى اهميتها لغيرك. غير أن هناك الكثير من الفوارق بيني وبينك، ويمكن أن نطلق عليها اسم «الاذواق». فثلاً هناك اختلاف في اللون والشكل، هناك اختلاف في الاذواق ايضاً: فأنا أفضل لون لباس معين وانت تفضل لوناً آخر، وانا استحسن هذا النوع من الفصال وانت تستحسن ذاك النوع، وانا احبذ السكن في مدينة وانت تحبذ السكن في مدينة اخرى، وانا افضل هذه المحلة وانت تفضل تلك، وانا أحب أن ازين غرفتي بهذه الصورة وانت تحب أن تزيّنها بتلك الصورة، وانا أهوى هذا الفرع الدراسي وانت تهوى فرعاً غيره. وهذه قضايا شخصية بحتة ولا يحق لأحد أن يتعرض طريق الآخر في مثل هذه القضايا. وهذا ليس من حق أحد أن يفرض على شخص آخر رأيه في قضية الزواج، فلكل فرد ذوقه الخاص ورؤيته الخاصة في شريك الحياة. والاسلام هو الآخر يؤكّد على هذا الامر ايضاً. غير أن الغربيين يقولون بوجوب عدم اعتراف أحد على صعيد التوحيد والاعيان لأنهم يعتبرونها من القضايا الخاصة والذوقية والشخصية. اي أن الانسان لا بد له أن يسلّي نفسه في حياته بشيء اسمه الاعيان، مثل الاعمال الفنية! والناس يختلفون في اذواقهم عادة في شتى المجالات. فقد يميل احدهم على صعيد الشعر لحافظ وثان لسعدى، وثالث لمولوي، ورابع للخيام، وخامس للفردوسي. فلا يجب نعترض على ذلك الذي يميل نحو سعدى وتقول له: لماذا تميل نحو سعدى؟ ولا بد لك أن تميل نحو حافظ. ويقولون أن الدين هو بهذا الشكل ايضاً: فهذا يختار الاسلام، وذاك يختار المسيحية، وثالث يختار المحبوبة، ورابع لا يرغب في أي من هذه الاديان. وهذا يجب علينا أن لا نضايق أو نسيء إلى أي منهم، لأن هذه الامور لا تتعلق بأساس الحياة من وجهة النظر الغربية. فالنظرة الغربية إلى الدين تختلف عن نظرتنا نحن المسلمين إليه، ولا بد لهم وفق هذه النظرة وهذا التصور أن يعتبروه جزءاً من القضايا الشخصية أو الذوقية. في حين اننا نرى في الدين، صراط البشرية المستقيم، وطريقها الصحيح الذي

يوصلها إلى السعادة المطلوبة. ومن هنا تعدّ اللامبالاة في قضية الدين، لا مبالاة في طريق البشرية القويم. وحينما نقول ان التوحيد ذو صلة بالسعادة البشرية، انا نعني انه ليس متصلةً بالذوق الشخصي، ولا يشمل هذا الشعب دون غيره او هذه الفئة دون غيرها. فالحق اذاً مع اولئك الذين ينظرون إلى التوحيد كحق من الحقوق الإنسانية. ونحن حينما نقول لا تجوز الحرب من اجل فرض التوحيد، فلا تعني ان التوحيد من القضايا التي لا يجب الدفاع عنها او انه ليس من الحقوق الإنسانية، بل لأنه غير قابل للأكره والفرض في حد ذاته، وهذا ما اشار اليه القرآن في الآية «لا اكره في الدين»، ولا شك في انه جزء من الحقوق الإنسانية<sup>(١)</sup>.

### الدفاع عن الحقوق الإنسانية

#### اكثر قدسيّة من الدفاع عن الحقوق الفردية والقومية

هناك بعض الحقوق التي تُعد اكثر قدسيّة من الحقوق الفردية أو القومية، والدفاع عنها اسمى من الدفاع عن الثانية، ألا وهي المقدّسات الإنسانية. بتعبير آخر: إن معيار قدسيّة الدفاع ليس دفاع الإنسان عن نفسه، وإنما دفاعه عن الحق. وحينما يكون «الحق» هو المعيار، فلا فرق حينئذ أن يكون هذا الحق، فردياً أو عمومياً وانسانياً؛ بل إن الدفاع عن الحقوق الإنسانية اكثر قدسيّة، وهذا ما يُعترف به في هذا اليوم على صعيد العمل وإن لم يُشرَّ إليه باللسان. فالحرية - مثلاً - تُعد من المقدّسات الإنسانية في هذا اليوم، علمًا بأنها ليست خاصة بفرد أو امة ما. ولو هوجمت هذه الحرية في مكان ما من هذا العالم - اي ليست حرية أو حرية قومي - فهل يُعد الدفاع عنها دفاعاً مشروعًا باعتبارها حقاً إنسانياً ولكون هذا الدفاع دفاعاً عن الحق الإنساني؟ وإذا كان هذا الدفاع مشروعًا، فهو لن يقتصر على الجهة التي تعرضت حريتها

(١)الجهاد، ص ٤٩-٥٤.

للخطر، وانما يشمل كافة الافراد والامم، ولا بد لهم من الاسراع لنجدية تلك الجهة والقتال دفاعاً عن الحرية. فاذا تقولون على هذا الصعيد؟ لا أتصور أن يشك احد في أن اكثرا نوعاً من الجهاد والمحروب قدسية، هي تلك الحرب التي تقوم من أجل الدفاع عن الحقوق الإنسانية.

فخلال الحرب التي خاضها الجزائريون ضد الاستعمار الفرنسي، ساهم العديد من غير الجزائريين بما فيهم بعض الغربيين في تلك الحرب على شكل مقاتلين وغير مقاتلين. فهل تعتقدون بمشروعية قتال الجزائريين فقط على اعتبار أن حقوقهم قد تعرضت للاعتداء؟ واذا كان الامر كذلك، فهذا يعني أن ذلك الفرد الغربي الذي هبّ من اقصى اوروبا للمساهمة في القتال لصالح الجزائريين، شخص ظالم ومعتد، ولا بد أن يُقال له: ما علاقتك بالامر أيها الفضولي، فمن الذي اعتدى عليك حتى تقاتل؟ ولا بد أن يقول ذلك المقاتل: انا ادافع عن الحق الانساني. وهذه هي الاجابة الصحيحة.

والحقيقة أن جهاد هذا الشخص، اسمى من جهاد الجزائري نفسه و اكثر قدسية، لأن الاول يدافع عن نفسه، بينما الثاني يدافع عن الحقوق الإنسانية.

والتحرريون الحقيقيون أو المظاهرون بالتحررية، انا يحظون باحترام المجاهير وتقديرها لأنهم يرفعون شعار الدفاع عن الحقوق الإنسانية، لا حقوقهم الفردية أو حقوق شعوبهم أو قاراتهم. ولو اخترق هؤلاء حدود اللغة والقلم والخطابة وتنوير الافكار، وانطلقا لميدان الحرب، ودافعوا عن الفلسطينيين أو رجال الفيتكونغ على سبيل المثال، لازداد احترام العالم لهم وسموا في انظار الناس، لا أن توجه إليهم الاتهادات أو المؤاخذات.

### لا زال الدفاع عن الحرية مقدساً

نحن نرى في هذا اليوم حتى اولئك الذين يقارعون الحرية ويتصدون لها، يتذرعون بالدفاع عن الحرية ايضاً من اجل إمار الممارسات التي يمارسونها

وتبريرها، لأنهم على علم بأن الدفاع عن الحرية، مفهوم مقدس. ومن هنا يحاولون أن يطلقوا على أعدائهم العدوانية اسم الدفاع عن الحرية، وهو اعتراف منهم بأن الحقوق الإنسانية قابلة للدفاع أيضاً، وال الحرب من أجل هذه الحقوق، شرعية ونافعة<sup>(١)</sup>.

دراسة قضية الحرية في المستقبل المتكامل للتاريخ

يعتبر تكامل الحرية، موضوعاً آخر من مواضع الحرية، لأن الإنسان مقبل على مزيد من الحرية في المستقبل. ولا بد لنا من أن نؤشر على جهة التكامل هذه. والحرية تأخذ ثلاثة الوان عادة: أحدها حرية الإنسان من اسر الطبيعة. فتحن خاضعون للارض على سبيل المثال ونعيش في سجن الارض البعض الاعتبارات. فقد ولدنا في هذا السجن، ونحن على ثقة اننا لنخرج منه إلى آخر حياتنا، ورغم ذلك لا نشعر بالامتعاض. لكن لو فُتحت ابواب الكواكب الأخرى بوجه الإنسان، لشعر ذلك الذي أُجبر على البقاء في الارض بشكل دائم، انه اشبه بذلك الذي مُنع من الخروج من بلاده، وهذا ما يمثل نوعاً من انواع الأسر الطبيعي. وهناك أسر آخر يتهدد الإنسان، كأسر الامراض التي لا علاج لها كالسرطان، وبعض الامراض القلبية التي تذل الإنسان وتتركعه. وكذلك الموت الذي يمثل أشد أنواع الأسر. ولا بد للإنسان إذاً من أن يتكامل ويتطور على طريق التحرر من أسر الطبيعة وهيمنته.

واللون الثاني: التحرر من هيمنته على نفسه، اي التحرر من الاهواء النفسية. فالإنسان من حيث هو انسان اسير نفسه، ومن حيث هو حيوان فان انسانيته اسيرة حيوانيته. واذا ما عَبَّرنا عن هذا المعنى بتعبير ديني نقول: وقوع الملوك الانساني - الذي يمثل الجانب العلوي من الإنسان - اسيراً لجانبه السفلي. والشعراء حينما يشبهون الإنسان، يشبهونه عادة بيوفوس الواقع في

(١) المجلد، ص ٤٢-٤٦.

الجب. ومرادهم من «الجب»، ظلام الطبيعة. فالنفس الإنسانية حينما تخضع للرغبات النفسية والطبيعية، ولا يخدم العقل الإنساني إلا الطبيعة والمادة، فهذا يعني الأسر، والعبودية النفسية: «أرأيت من اتخذ أهله هواه»<sup>(١)</sup>، أي تحول النفس إلى الله وعبود.

واللون الثالث: تحرر الإنسان من هيمنة الآخرين. ولا شك في أن الإنسان لا يمكنه أن يتحرر بشكل مطلق من هيمنة الآخرين، وهو أمر لا يبدو معقولاً، بالضبط مثل استحالة تحرره من قيود الطبيعة بشكل مطلق. والسبب في ذلك هو أن حرية الفرد تتعارض مع حرية الآخرين. فإذا كنتَ حراً مطلقاً في علاقتي معهم، فهذا يعني انهم غير احرار في علاقتهم معي، ولا بد أن يكون الحد الاقصى من الحرية هو أن حرتي لا يحدّها غير حرية الآخرين. هذا فضلاً عن قضية أخرى تثار وهي: هل تحدّها مصالح الإنسان أيضاً أم لا؟

وأثير مثل هذا البحث في القرن الثامن عشر من قبل بعض دعاة الحرية مثل فولتير وجان جاك روسو، معتمدين في ذلك على محور الحرية. إلا أن مثل هذه الآراء قد تراجعت فيما بعد وقيل بشيء من المحدودية على أساس أن من حق المجتمع أن يحدد الفرد بعض الشيء، لأن الحرية بذلك الحجم الأول تساوي تقوّق المجتمع، وإذا أريد لهذا المجتمع أن ينطلق ويتطور فلا بد من تقليص حجم الحرية، وهذا اخذوا يتحدثون عن «حرية الفرد وقدرة الحكومة»، حيث يدور كتاب الدكتور صناعي حول هذا الموضوع.

وبالرغم من أن النزعة العالمية تميل إلى هذا الجانب بشكل عام إلا أن المعسكر الغربي يبدو أكثر التصافياً من الشرقي بالحرية، في حين يتحرك المعسكر الشرقي بشكل أكبر نحو رفض الحرية وهيمنة الحكومة<sup>(٢)</sup>، إلا أنه

(١) الفرقان / ٤٣.

(٢) (يعلم القارئ الكريم أن المعسكر الشرقي قد نزع نحو الحرية والحد من هيمنة الحكومة مؤخراً.)



يطلق على الحكومة اسم «دكتاتورية البروليتاريا» مغيرين بذلك اسمها فقط<sup>(١)</sup>.

## الحرية والمساواة

فالقياس من وجهة نظر المذهب الشيعي هو تطور المجتمع. ولا بد من ازالة كل ما يتباين مع هذا التطور. في حين لا تؤمن المذاهب الأخرى بذلك، وإنما يؤمن بعضها باصالحة الفرد بشكل مطلق، والبعض باصالحة فردية غير مطلقة. وعلى هذا الاساس هناك لغز لا ينحل دائمًا على صعيد الحرية والمساواة: الحرية والمساواة قيمتان انسانيتان متضادتان. فلو كان الافراد احراراً زالت المساواة، ولو أريد للمساواة أن تجري بشكل كامل فلا بد من تحديد الحريات. لأن افراد المجتمع ليسوا مثل بضاعة المصنع التي يشبه بعضها البعض الآخر، وإنما يختلف بعضهم عن البعض الآخر من حيث القدرات والقابليات والخصوصيات الجسمية والنفسية. فهذا ذو قابلية كبيرة، والآخر ذو قابلية أقل، وهذا قوي الجسم والأخر ضعيف الجسم، وهذا يتمتع بالقابلية على الابداع وذاك لا يتمتع بهذه القابلية، وهذا كسول وذاك نشط وفعال. ولو اردنا أن نتخد من المجتمع ميداناً للسباق فلا بد يفوز البعض وبخسر البعض الآخر. ولا بد في مثل هذه الحالة أن تؤدي الحرية إلى اللامساواة شيئاً ما أبينا. أما لو أردنا للمساواة أن تستتب في المجتمع فلا بد أن نبادر إلى تحديد الحرية بشكل كبير، بل وإلى تحديد الحقوق الفردية، فنأخذ من هذا ونعطي لذاك.

و قضية الحرية والمساواة شبيهة بقضية سباق الخيل. فالخيول في ميدان السباق والاستعراض ليس امامها سوى حالتين: الحالة الاولى حينما نريد لها أن

→ وللاسف لم يشاهد الشهيد المطهرى عن كثب فشل الماركسية على الصعيد العملي بعد أن بذل المجهود الشيق للبرهنة على فشلها نظرياً، رغم أن الرأسمالية فاشلة هي الاخرى وليس بعيداً أن يتضح فشلها على الصعيد العملي ايضاً، فيقبل ابناء العالم على الاسلام من خلال التعرف الحقيقي عليه ويستقون هذه الرسالة الاهلية الخاتمة).

(١) فلسفة التاريخ، ج ١، ص ٢٨٥ و ٢٨٦.

تنطلق مثل انطلاق خيول العسكر. ف يجعلها في خط واحد ومتراصفة بشكل منظم بحيث تتلامس آذانها، ولا بد لها أن تعود بسرعة واحدة، ولا بد لفرسانها من السيطرة عليها، وإن لا يسمحوا لفرس أن تتقدم أو تتأخر عن الأخرى. وستكون حركتها حينئذ حركة منتظمة ومتناصفة منذ بداية الانطلاق وإلى نهايته، حتى لو اشتراك في ذلك الاستعراض مائة فرس، وحتى لو كانت الحركة على شكل طوابير مؤلف كل طابور من عشرة افراط مثلاً وبين كل طابور وآخر مسافة عشرة امتار. فتتحقق حالة الاتساق والنظام والمسافة الثابتة، ملزمة للخيول طيلة فترة العدو وإن استمرت لمدة ساعة كاملة. إلا أن حرية الخيول قد حددت خلال هذه العملية، فالكثير منها يريد أن يعود بسرعة أكبر إلا أن فرسانها لم يسمحوا لها بذلك، ولا بد لها أن توافق في حركتها حركة الخيول الأخرى.

والحالة الثانية: حينما يكون هناك سباق في الفروسية، ولا بد لكل جواد أن ينطلق بأقصى ما لديه من سرعة، أي أن الجياد حرة تماماً في استخدام الطاقة والقابلية التي لديها. ولا بد في هذه الحالة أن يتقدم بعضها ويتأخر البعض الآخر، وحينئذ تندفع المساواة. فإذا ما أردنا أن نعطي الحرية للخيول فلا بد أن تزول المساواة والتنسيق، وإذا ما أردنا أن نحافظ على المساواة والتنسيق، فلا بد أن غنّع عنها الحرية. فالحرية متعلقة بالفرد والمساواة بالمجتمع. ويعتمد الغرب الحرية الفردية بشكل كبير، ومن الطبيعي أن تُسحق في ظل ذلك المساواة. في حين يعتمد الشرق المساواة مما يؤدي إلى سحق الحرية. فلا مساواة في الغرب، ولا حرية في الشرق، وهما إنما يفعلان ذلك انطلاقاً من النهجين الفلسفيين المختلفين اللذين ينهجانها.

والقضية التي لا بد من اثارتها هنا هي: هل القضية بهذا الشكل حقاً، أي: إما تطور الفرد أو تطور المجتمع؟ وإما سعادة الفرد أو سعادة المجتمع؟ أم أن هناك طريقة طبيعياً تكون فيه الحرية - التي هي حق الإنسان الطبيعي - في حد

معين، إذا ما تجاوزته خرجت عن كونها حرية، ويعتمد التطور والتكامل على هذا القدر من الحرية؟ أي: هل هناك مذهب ثالث غير هذين المذهبين؟ إن هذا بحاجة إلى بحث مستقل<sup>(١)</sup>.

### حرية المرأة وحقوق الإنسان

أخذت تبلور في العالم الغربي ومنذ القرن السابع عشر حركة باسم «حقوق الإنسان»، إلى جانب الحركتين العلمية والفلسفية. وانبرى الكتاب والمفكرون في القرنين السابع عشر والثامن عشر إلى عرض أفكارهم في الأوساط الاجتماعية حول الحقوق الطبيعية والفطرية للإنسان والتي لا يمكن أن تُسلب منه ...

والمبدأ الأساس الذي اعتمدته هذه الطائفة هو أن الإنسان يمتلك سلسلة من الحقوق والحرريات بشكل فطري وباعتبار الخلقة والطبيعة، ولا يمكن لأي فرد أو جماعة انتزاع هذه الحقوق بأية طريقة وتحت أي اسم كان، بل لا يجوز حتى لصاحب الحق نفسه أن يتنازل عنها طواعيةً لغيره ويتجبر منها. كما أن الجميع: المحاكم والممحاكم، والإيض والإسود، والغنى والفقير، متساوون في هذه الحقوق ...

ودارت كافة الحركات الاجتماعية الغربية منذ القرن السابع عشر وإلى يومنا هذا حول محوريين اساسيين هما: «الحرية» و«المساواة». ولم يُشر على صعيد المرأة سوى إلى الحرية والمساواة أيضاً نظراً لأن حركة حقوق المرأة في الغرب قد جاءت في أعقاب سائر الحركات، فضلاً عن أن تاريخ حقوق المرأة هناك كان أكثر مأساوية من الرجل على صعيد الحرية والمساواة.

وكان رواد هذه الحركة على اعتقاد بأن حرية المرأة ومساواتها للرجل في الحقوق، عملية مكملة لحركة حقوق الإنسان التي رُفع شعارها في القرن السابع

(١) فلسفة الأخلاق، ص ٢٦٦-٢٦٨.

عشر. واكدوا على خواص التحدث عن الحرية وحقوق الانسان بدون تحقيق حرية المرأة ومساواتها مع الرجل. كما عبروا عن اعتقادهم بأن كافة مشكلات الاسرة، ناجمة عن عدم حرية المرأة وعدم تساوي حقوقها مع حقوق الرجل، وان هذه المشاكل ستحل دفعه واحدة حين حصول المرأة على هذين العنصرين.

وقد تُنسى في هذه الحركة قاماً ما ندعوه بـ«القضية الأساسية في نظام حقوق الاسرة»، اي هل ان هذا النظام، مستقل بالطبع وهل لديه منطق ومعيار غير منطق ومعيار سائر المؤسسات الاجتماعية؟ فلم يلتفت الاهتمام ولم يستقطب الانظار سوى تعميم مبدأ الحرية ومبدأ المساواة بين الرجل والرجل. بتعبير آخر: لم يُثر في مجال حقوق المرأة سوى موضوع «الحقوق الطبيعية والفطرية غير القابلة للانتزاع» فقط. فكانت كل الاحاديث تدور حول محور هذا الموضوع وان المرأة شريكة للرجل في الانسانية وانها انسان بمعنى الكلمة، ولا بد لها أن تتمتع كالرجل بالحقوق الفطرية غير القابلة للاستلاب ...

وتؤلف الطبيعة نفسها اساس الحقوق الطبيعية والفطرية للفرد. اي اذا كان الانسان يتمتع بحقوق خاصة لا يتمتع بها الحewan، والخروف، والدجاجة، والسمكة، فجذور ذلك تضرب في اعماق الطبيعة والخلقة. وإذا تساوى الناس في الحقوق الطبيعية ولا بد لهم جميعاً من العيش بحرية، اغا هو امر صادر في متن الخلقة، وليس هناك اي دليل آخر عليه. كما ليس لدى انصار المساواة والحرية - كحقين فطريين للانسان - اي دليل غير هذا. كما لا يوجد دليل غير دليل الطبيعة ايضاً على صعيد القضية الأساسية في نظام الاسرة.

وعلينا أن نرى لماذا لم يوجه الاهتمام إلى القضية التي اسمايناها القضية الأساسية في نظام حقوق الاسرة. فهل اتضح في ظل العلم الحديث ان الاختلاف بين الرجل والمرأة اختلاف عضوي بسيط، ولا تأثير له على اساس التركيبة الجسمية والروحية لكلا الجنسين والحقوق التي تتعلق بكل منها، والمسؤوليات التي لا بد لكل منها أن يحملها على عاتقه، وهذا لم يحظ باهتمام

## الفلسفات الاجتماعية المعاصرة؟

والحقيقة ان القضية بالعكس تماماً. فقد اصبح الاختلاف بين الجنسين اكثر وضوحاً واستدلالاً من ذي قبل بفضل الاكتشافات الجديدة والتطور العلمي على صعيد الحياة والنفس.

وروبا يرجع عدم الاهتمام، إلى الصورة العجوزة التي نشأت فيها هذه الحركة. وهذا فهي وفي الوقت الذي وقفت فيه بوجه بعض المأسى التي كانت تعاني منها المرأة، خلقت لها وللمجتمع الانساني انواعاً جديدة من المأسى والشقاء... لم تلتفت هذه الحركة إلى وجود قضايا اخرى غير المساواة والحرية. فالمساواة والحرية شرطان لازمان لا شرطان كافيان؛ وتساوي الحقوق شيء، وتشابه الحقوق شيء آخر؛ والتشابه شيء آخر. وقد استخدمت هذه الحركة عن المادية والمعنوية شيء، والتشابه شيء آخر. ولم تقيز بينها، وسلطت الاضواء على «الكمية» وعتمت على «النوعية»، كما أدى التأكيد على «إنسانية» المرأة إلى نسيان «أنوثتها».

والحقيقة هي أن هذه اللامبالاة لا يمكن عدها غفلة فلسفية ناجمة عن الاستعجال فقط، بل كانت هناك عوامل اخرى اريد من خلالها الانتفاع من «الحرية» و«تساوي» المرأة.

وتُعد مطامع الرأسماليين احد هذه العوامل. فهولاء ومن اجل انتزاع المرأة من البيت إلى المصنع والاستفادة من قوتها الاقتصادية، اخذوا يرفعون شعار حقوق المرأة، واستقلالها الاقتصادي، وتساويها في الحقوق مع الرجل. وهولاء هم الذين استطاعوا أن يضفوا على هذه المطالبات الصبغة القانونية.

### رأي ويل ديورانت

تحدث ويل ديورانت في الفصل التاسع من كتاب «الذات الفلسفية» عن بعض الآراء المشينة في حق المرأة التي كان قد اطلقها ارسسطو، ونيتشه، وشوبنهاور،

وبعض الكتب اليهودية المقدسة. وأشار إلى أن الثورة الفرنسية ورغم تحدثها عن حرية المرأة، إلا أنها لم تفعل شيئاً على الصعيد العملي. وقال: «حتى حوالي عام ١٩٠٠، كان من الصعوبة على المرأة أن تجد لها حقاً يحترمه الرجل وفق القانون». ثم تحدث عن سبب تغير وضع المرأة في القرن العشرين وقال: «ان حرية المرأة، من آثار الثورة الصناعية»، وأضاف:

«... كانت النساء العاملات ارخص، وكان ارباب العمل يفضلونهن على الرجال المترددين الذين يتلقاون أجوراً اكبر. وكان الحصول على العمل امراً صعباً على الرجال في انجلترا قبل قرن من الزمن. غير ان الاعلانات كانت تحضهم على إرسال نسائهم واطفالهم إلى المصنع... وكان قانون عام ١٨٨٢، الخطوة الاولى لتحرير جداتنا. وقد منح هذا القانون لنساء بريطانيا العظمى امتيازات لا نظير لها تتمثل في حقهن بالاحتفاظ بالمال الذي يحصلن عليه عن طريق العمل<sup>(١)</sup>. وقد وضع اصحاب المصنع الاعضاء في مجلس العموم هذا القانون الاخلاقي المسيحي الرفيع بغية سحب نساء انجلترا إلى المصنع. والجشع المغرى الذي أقذهن منذ ذلك العام وحتى هذا اليوم من عبودية البيت، قد أوقعهن في عبودية المخانوت والمصنع...»<sup>(٢)</sup>.

إن تطور المكتنة، وارتفاع مستوى الانتاج بما يفيض عن الحاجة الحقيقة، وضرورة فرض هذا الفائض على المستهلك بآلاف اللاعبين والمحيل، والضرورة الملحة لزوج كافة الوسائل السمعية والبصرية والفكرية والشعرية

(١) كتب د. علي شايغان في «شرح القانون المدني الايراني»، ص ٣٦٦: «الاستقلال الذي تتمتع به المرأة في ثروتها والذي اقره الفقه الشيعي منذ البداية، لم يكن له وجود في اليونان، وروما، وגרמניה، وإلى وقت قريب في قوانين اغلب البلدان التي كانت تنظر إليها كنظرتها إلى الصغير والجنون، وكانت شخصية المرأة في انجلترا ذاتية في شخصية الرجل.

ورفع الحجر عن المرأة هناك خلال قانوني عام ١٨٧٠ و ١٨٨٢ المعروف باسم قانون ملكية المرأة المتزوجة».

(٢) لذات الفلسفة، ص ١٥٥ - ١٥٩.

والذوقية والفنية والشهوانية في عملية تحويل الناس إلى مستهلك بلا ارادة، قد حتمت بجماعتها ضرورة استخدام الرأسمالية للمرأة والاستفادة منها، لكن لا من قواها البدنية وقدرتها على العمل كعامل بسيط وشريك للرجل في الانتاج، وإنما من قوة إغرائها وجهها، والمتاجرة بكرامتها، واستخدامها للاستيلاء على الأفكار والإرادات ومسخها، وفرض المزيد من الاستهلاك على المستهلك. والغريب في الأمر تبريرهم لكل هذه الممارسات من خلال قناة حرية المرأة ومساواتها للرجل.

ولم تغفل السياسة هي الأخرى عن استخدام هذا العامل أيضاً. وانت تطالعون تفاصيل هذه الحركة في الصحف والمجلات باستمرار، حيث اكتُنحت المرأة في جميعها وسيلة لتمرير أغراضهم، ولكن تحت غطاء الحرية والمساواة... والعجيب أن الحديث حينما يدور حول الاختلافات الطبيعية والفطرية بين المرأة والرجل، يتلقفها البعض على أنها نقص للمرأة وكمال للرجل وهي ما توجب في النهاية بعض الامتيازات للرجل وبعض القيود على المرأة، وقد غفل هذا البعض أن القضية ليست قضية كمال ونقص، وإن نظام الخلقة لم يخلق أحدهما كاملاً والآخر ناقصاً، وهذا متميزاً وذاك محروماً ومغبوناً.

وتلجمأ هذه الفئة وبعد استنباطها المنطق الحكيم هذا! إلى القول: حسناً، الآن وقد علمنا ان الطبيعة قد ألحقت مثل هذا الظلم بالمرأة الضعيفة الناقصة، فلماذا نلجمأ نحن إلى ظلمها أيضاً، ونحملها ظلماً آخر. اليis من الإنسانية أن نتجاهل تماماً الوضع الطبيعي الذي هي عليه ولا نتعامل معها على اساسه؟ والقضية هي عكس ذلك تماماً. فعدم الاهتمام بالوضع الطبيعي والفطري الذي عليه المرأة، هو الذي ادى إلى ضياع حقوقها. فلو شكل الرجل جبهة في قبال المرأة وقال لها أنا مثلك وانت مثلي، ولا بد أن نتساوی انا وانت في الاعمال، والمسؤوليات، والارباح، والخسائر، والمكافآت، والعقوبات، والاعمال المجهدة الثقيلة، وان تأخذني من الاجور ما يتناسب مع قابلتيك على

العمل، ولا تنتظري مني احتراماً ودعماً، وعليك أن تتحملني كافة نفقات حياتك، وتشتركي معي في نفقات الابناء، وتدافعي بنفسك عن نفسك ازاء الاخطار التي تهددك، وان تنفي علىَ المقدار الذي اتفق عليك و...، لو حدث مثل هذا لخسرت المرأة الشيء الكثير، لأن قابليتها على العمل والانتاج اقل من الرجل ونفقاتها اكبر. بالإضافة إلى ما يتخلل حياتها من ظواهر طبيعية مستمرة كفترة الطمث، ومشاكل الحمل، وألام الوضع، وحضانة الطفل الرضيع، وغيرها، مما يجعلها بحاجة إلى رعاية الرجل وحمايته، وإلى التزامات اقل وحقوق اكبر. ولا يختص هذا الامر بالانسان فقط، وانما يشمل كافة الكائنات الحية التي تعيش ازواجاً: ينبع الذكر وبايحاء من الغريزة إلى حماية الانثى.

فالاهتمام بالوضع الطبيعي والفطري لكل من المرأة والرجل، والأخذ بنظر الاعتبار تساويهما في الإنسانية، وحقوقهما المشتركة، سيجعل المرأة في وضع مناسب جداً بحيث لا يُسْحِق شخصها ولا شخصيتها.

### أين يوصل الاعتماد على الحرية فقط؟

من أجل أن يكون لدينا اطلاع ولو جزئي على النتائج التي تخوضت عن التنكر للوضع الفطري والطبيعي الذي عليه المرأة والرجل، والاعتماد على الحرية والمساواة فقط، من الأفضل أن نرى ماذا قال أولئك الذين سلكوا هذا الطريق من قبل واتهوا إلى مأزق.

نشرت مجلة «خوانديها» العدد ٧٩، عام ١٩٧٤ مقالاً لمهنامه شهربانى يحمل عنوان «قصص عن العاملات في المجتمع الامريكي» مترجمًا عن مجلة «كورونت». وهو مقال مفصل ويستحق المطالعة، ويبتدئ بالحديث عن شكوكى امرأة من الاوضاع المتدهورة للمرأة العاملة، وكيف أنها لم يكن يُسمح لها من قبل وعلى العكس من الرجال بحمل الاشياء التي يزيد وزنها عن ٢٥

باونداً، بينما أُلغي مثل هذا التحديد في الوقت الراهن. وتقول هذه المرأة: لقد تغيرت ظروف العمل في مصنع «جزال موتور» في ولاية اوهايو، أو بعبارة أفضل المكان الذي تُستبعد فيه نحو ٢٥٠٠ إمرأة... وان عليها أن تسيطر على ماكينة بخار قوية جداً أو تنظف اتوناً معدنياً يبلغ وزنه ٢٥ باونداً كان قد نقله قبل لحظات رجل قوي البنية. وتقول ايضاً: انها منهكة وجريحة تماماً، وعليها أن تعلق في كل دقيقة ذراعاً يبلغ طوله ٣٠ - ٢٥ بوصة ووزنه ٣٥ باونداً في الكالليب، وهذا فان يديها متورمتان وجريحان دائماً.

ويتحدث ذلك المقال ايضاً عن قلق واضطراب سيدة اخرى كان زوجها ملاحاً في القوة البحرية، لا سيما بعد أن قرر احد الاميرالات استخدام عدد من النساء في سفن الرجال؛ ويقول:

بعثت القوة البحرية سفينتين تحمل ٤٠ إمرأة و٤٨٠ رجلاً في مهمة ما. وحينما عادت بعد اول رحلة بحرية مختلطة إلى الميناء، تبين صدق الخوف والقلق الذي ساور نساء الملائين، وثبت ان السفينتين لم تشهدن الكثير من القصص الغرامية فحسب، وإنما ارتبطت اغلب النساء ايضاً بعلاقة جنسية ليس مع رجل واحد وإنما مع عدة رجال.

ويقول المقال: «لقد غالب القلق اراميل ولاية فلوريدا بعد الحرية، لأن أحد قضاة هذه الولاية ويدعى «توماس تستا» اعلن عن عدم قانونية القانون الذي كان يسمح بتخفيف الضرائب عن الارامل إلى ٥٠٠ دولار، واعتبره تمييزاً بين الرجل والمرأة»....

«لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون»<sup>(١)</sup>.

والشرط الاساس لسعادة المرأة والرجل معاً وبالتالي المجتمع البشري هو

(١) بس / ٤٠

أن يدور كل جنس في مداره. فالحرية والمساواة لا تجلبان النفع والفائدة إلا إذا لم ينحرف كل من الرجل والمرأة عن المدار الطبيعي والفطري المرسوم لها. والتفرد على اوامر الفطرة والطبيعة، هو الذي يجلب الشقاء للمجتمع.

ونحن حينما نطالب باعادة تقييم قضية «نظام حقوق المرأة في الاسرة والمجتمع»، وان لا تقنع بالتقنيات السابقة، انا نؤكد على: ١ - اتخاذ الطبيعة مرشدًاً ودليلًاً، ٢ - الاستفادة القصوى من التجارب المرة والملوحة كافة سواء تلك التي حصلت في الماضي أو تلك التي حصلت في القرن الراهن. ولا بد لحركة حقوق المرأة أن تتحقق بالمعنى الحقيقي اذا اخذنا هذين الامرين بنظر الاعتبار.

ويتفق الصديق والعدو على ان القرآن الكريم قد احيا حقوق المرأة. ويذعن المعارضون على الاقل في انه قد قطع في عصر نزوله خطوات عريضة لصالح المرأة وحقوقها الانسانية. إلا أن القرآن لم يتتجاهل رجولة الرجل وأنوثة المرأة باسم إحياء المرأة كـ«انسان» وشريك للرجل في الانسانية والحقوق الانسانية. بتعبير آخر: نظر القرآن إلى المرأة كما هي في الطبيعة. وهذا يعني أن هناك انسجاماً كاملاً بين اوامر القرآن واوامر الطبيعة؛ والمرأة في القرآن هي نفس المرأة التي في الطبيعة. وينطبق هذان الكتابان الاهليان الكبيران احدهما على الآخر تماماً: احدهما تكويني، والآخر تدويني. واذا كان هناك عمل مفيد قامت به هذه السلسلة من المقالات، فهو توضيح لهذا الانطباق والاتساق<sup>(١)</sup>.

### تقد نظرية فرويد حول الغريزة الجنسية

يتمثل خطأ فرويد وأضرائه، في تصورهم أن الطريق الوحيد لتهيئة غريزة الجنس يقتصر على اشباعها بلا حدود. ولم يلتفتوا سوى إلى الحدود والقيود المفروضة عليها والعواقب السيئة التي يتحمل أن تتمضض عن ذلك، مدعين أن

(١) نظام حقوق المرأة في الاسلام، ص ١٤-٢٦.

هذه القيود تعمل على ترددنا وجموحها. وقد اقترحوا من أجل تهدئة هذه الغريزة ممارسة الحرية الجنسية بشكل مطلق، للرجل والمرأة معاً.

ونظراً لأن هؤلاء لم يبصروا سوى جانب واحد من القضية، لهذا لم يدركوا مثلما أن تقييد الغريزة الجنسية وقوعها يؤدي إلى توليد العقد النفسية، كذلك يؤدي إطلاقها وإثارتها والاستسلام المطلق لها إلى ايصالها إلى حالة الجنون؛ ولما لا يمكن تحقيق كافة رغبات الفرد سبباً إذا كانت غير متناهية، فستتّفع الغريزة بشكل أسوأ من السابق، الامر الذي يؤدي إلى ظهور العقد النفسية.

ونحن نرى وجوب توفير شرطين لتهذئة الغريزة: الاول اشباعها في حدود الحاجة الطبيعية، والثاني الحيلولة دون إثارتها وتهييجها.

فالانسان من حيث الحاجات الطبيعية مثل البئر البترولية التي يؤدي تجمع الغازات الداخلية فيها إلى انفجارها. وهذا لا بد من إخراج تلك الغازات وتسللها إلى النار، إلا أن هذه النار لا يمكن ان تشبع بالفريسة الكبيرة.

فحينما تتصب جهود وسائل الاعلام كافة: السمعية والبصرية واللمسية، على إثارة الغريزة الجنسية، فلا يمكن تهدئة هذه الغريزة المجنونة من خلال اشباعها، واغاثة ستزداد اضطراباً وتلاطمًا، فضلاً عنها يرافق ذلك من آلاف الامراض النفسية والجرائم الناجمة عن الاثارة.

فالاثارة المستمرة للغريزة الجنسية، تخلف العديد من الامراض والآثار الوخيمة الاخرى كالبلوغ المبكر والشيخوخة المبكرة ايضاً.

ومن هنا يتضح أن عرفاءنا وحكماءنا حينما يقولون:

إذا أبلغت أحداً مراده أصبح طوع بنائه

على العكس من النفس فانها تأمر اذا بلغت المراد

فلا بد انهم قد ادركوا بنظرهم الثاقب وضميرهم المنفتح العارف اموراً لم يلتفت اليها علماء النفس والحللون النفسيون الذين ذاع صيتهم في عصر العلوم هذا.

اما قولهم: «الانسان حريص على ما مُنِعَ منه»، فهو قول صحيح، إلا انه

بحاجة إلى توضيح: فالانسان حريص على الشيء ليس إذا منع منه فقط وإنما إذا حُرِّض عليه ايضاً. أي أن تُزرع في نفسه أمنية شيء ما، ثم يُمنع ذلك الشيء عنه. أما إذا لم يُعرض عليه شيء أو يُعرض عليه قليلاً، فمن الطبيعي أن يقل حرصه عليه وولعه به.

وأدرك فرويد المتخمس بشكل كبير لحرية الغريزة الجنسية فيما بعد انه قد اخطأ، وهذا اقترح الانحراف بها عن طريقها الخاص إلى مسار آخر، والاهتمام بالقضايا العلمية والفنية كالرسم وغيره، معلنًا بذلك عن انجيوازه لفكرة التصعبيد. فقد برهنت التجارب والارقام على ازدياد الامراض والآثار النفسية الناجمة عن الغريزة الجنسية بعد ازاحة القيود الاجتماعية. وأنا لا ادرى ما هو الطريق الذي يقترحه فرويد لعلاج ذلك بعد انجيوازه للتصعبيد؟ وهل هناك طريق آخر غير تحديد الغريزة الجنسية؟

وطالما كان يقول الجهلاء للطلبة الاجهل منهم: ان الشذوذ الجنسي ينتشر بين الشرقيين فقط لأنهم لا سبيل لهم إلى المرأة نتيجة الحجاب والقيود الكثيرة المفروضة عليها. ولم تمض فترة طويلة حتى اتضح ان انتشار هذه العادة القبيحة في الغرب اكبر بكثير مما هي عليه في الشرق.

ونحن لا ننكر ان عدم نيل المرأة يؤدي إلى الشذوذ، ولا بد من تسهيل شروط الزواج القانوني، إلا أن ذلك الحجم من الشذوذ الجنسي الناجم عن تبرج المرأة واظهارها لملفاتتها في المجتمع والعلاقات الحرة، اكبر بكثير من الشذوذ الجنسي الناجم عن الحالة الاولى.

وإذا كان الحرمان يقف خلف الشذوذ الجنسي في الشرق، فإن الآثارات الجنسية الكبيرة تقف خلف هذا الشذوذ في الغرب، حتى أصبح رسمياً وقانونياً في بعض البلدان الغربية كما طالعتنا بذلك الصحف التي قالت بما أن الشعب الانجليزي قد عَبَّر عن قبوله للشذوذ عملياً، فلا بد للبرلمان بحذو حذو الشعب في ذلك، اي أن القضية قد اخذت اطار ما يشبه الاستفتاء الشعبي القسري.

والابشع من ذلك ما قرأته في احدى المجالات حول زواج الذكور من بعضهم بشكل رسمي في بعض الدول الغربية<sup>(١)</sup>.

### الشعور بالحرمان وحرية الغريزة الجنسية

يعتقد علماء النفس بأن الشعور بالحرمان، مصدر للكثير من الامراض العصبية والنفسية والاجتماعية، لا سيما على صعيد الغريزة الجنسية، وبرهنا على انه يقف خلف ظهور العقد التي تبلور احياناً على شكل صفات خطيرة كالنزع نحو الظلم، والجريمة، والتكبر، والحسد، والانعزal، والتشاؤم، وغيرها.

ويُعد المبدأ اعلاه، من الاكتشافات المهمة على صعيد الاضرار الناجمة عن كبت الغرائز وقمعها، ومن اعظم النجاحات التي توصل اليها الانسان. غالباً ما يولي الناس اهمية اكبر للاكتشافات التي تتم في الحقول الفنية والصناعية واستخدام قوى الطبيعة الجامدة، اطلاقاً من انهم بالمحسوسات وتعلّمهم لعرفة المزيد عنها.

وقلما يتم عامة الناس بنتائج الدراسات النفسية، إلا أنها تبقى مسجلة في ذكرة المفكرين والمهتمين بهذه الدراسات وتظل محط اهتمامهم.

وبالرغم من وجود الكثير من المؤشرات التي تدل على اهتمام القدماء بهذه الحقيقة، مثلما نرى ذلك في بعض الحكم والكلمات المأثورة، لا سيما في الآثار الاسلامية، التي كان يرجع اليها الكثير من معلمي الاخلاق والتربويين، لكن الذي لا ريب فيه هو ان البرهنة العلمية على هذه الحقيقة واكتشاف القوانين المتصلة بها، يُعد من انجازات القرن الاخير العلمية.

وعلينا أن نرى كيف تم استخدام هذا المبدأ؟ فهل استُخدم مثل الاكتشافات الطبية كالبنسلين؟ للاسف، نقول ان تعقيد القضايا النفسية من جهة، وارتباط

(١) قضية الحجاب، ص ١١٩-١٢٢.

هذه القضايا بالميول والاهواء التي تعمل على إعماء البصيرة من جهة اخرى، لم يسمحا باستخدامه كما ينبغي، مما ادى إلى ظهور المزيد من عوامل قع الغرائز وظهور الآثار النفسية والاجتماعية الخطيرة الناجمة عن ذلك، لا سيما على صعيد الجنس، وايجاد المزيد من العقد والازمات النفسية، ورفع حجم الامراض النفسية، والجنون، والانتحار، والجرحية، والقلق، والاضطراب، واليأس، والتشاؤم، والحسد، والحدق، بشكل رهيب. لماذا؟ لأن عدم قع الغرائز كان يفسر باطلاق الميول، وإطلاق الميول يعني إزالة كافة القيود، والحدود، والنظم. وبعد قرون من الدعاية المضادة للشهوانية كأمر مناف للالحاق الاجتماعية، ومعكر للهدوء النفسي، ومخل بالنظام الاجتماعي، والتشهير بها كنوع من الانحراف والفساد، وإذا بالقضية تنقلب رأساً على عقب، وإذا بدعوات جديدة تتطلق من هنا وهناك قائلة ان تحديد الغريزة الجنسية، والتمسك بالعفة والتقوى، وتحمل القيود والحدود الاخلاقية والاجتماعية، تعد السبب الكامن خلف الاضطراب النفسي، والفوضى الاجتماعية، فضلاً عن كونها ممارسات مناهضة للاحلاق وتهذيب النفس. وتصاعدت على اثر ذلك صيحات الاستياء: حطّموا هذه القيود والحدود من اجل استئصال جذور الاحقاد، والخصومات، والعداوات. ومزّقوا حجاب العفة كي تهدا القلوب، ويستتب النظام الاجتماعي. وأعلنوا الحرية المطلقة للقضاء على الامراض النفسية!!

ومن الطبيعي أن يتباين مع مثل هذه الصيحات والأفكار ذات الظاهر المعسول الكثير من الانصار والمؤيدین، لا سيما اوساط الشباب، خاصة اذا علمنا انها كانت تُقدم تحت شعار إصلاح الفساد الخلقي والاجتماعي.

ونحن نعلم من هم الذين كانوا يدافعون في بلدنا عن هذه الافكار. وهل هناك افضل من يضعوا افسهم بين يدي القلب، ويضعوا القلب بين يدي الهوى، ثم يدعون انهم قاموا بعمل اخلاقي وانساني، ويدرجون اسماءهم في سجل المصلحين الاجتماعيين! اي: استفادة وإفادة، شهوانية واصلاح النفس، شهوة

وأخلاق! إنها ممارسة شبيهة ولا شك بذلك العشق المجازي الذي كان لدى بعض مدعي التصوف، فكانوا يضمنون أوقاتهم إلى جانب أصحاب الوجوه المليحة، ثم يسمون ذلك سلوكاً إلى الله!

فإذا كانت النتيجة؟ كانت معروفة منذ البداية. فهل تم القضاء على الامراض النفسية؟ وهل حل المهدوء النفسي محل القلق والاضطراب؟ أبداً، وإنما كانت النتيجة معكوسه تماماً، فأضيف شقاء جديد إلى الشقاء القديم، حتى أن بعض رواد الحرية الجنسية - من هم ذاكى من غيرهم - حاولوا الانسحاب عن أفكارهم على شكل تفسير وتأويل. فقالوا لا بد من المحدود والضوابط الاجتماعية؛ والغريرة لا يمكن إشباعها كلياً عن طريق الاستمتاعات الجنسية، ولا بد من توجيه الذهن نحو القضايا الفنية والفكرية الرفيعة، ودفع الغريرة باتجاهها بشكل غير مباشر. وكان «فرويد» أحد القائلين بذلك.

والأخلاق التي كان يدعوا لها «راسل» وأمثاله، ويطلقون عليها اسم «الأخلاق الحديثة»، لم تتمر سوى عن مزيد من الاضطراب على صعيد الغرائز والميول، وصار من اللائق أن يُتهم نظامهم الخلقي الجديد ببئس الاضطراب في النفس وتعكير هدوئها بدلاً من اتهام الأخلاق القديمة بذلك.

وطفت على السطح في هذا اليوم ظواهر اجتماعية خاصة أو بتعبير آخر مشاكل وازمات اجتماعية خاصة شغلت بال علماء الاجتماع.

فالشباب في مجتمعاتنا الراهنة باتوا يعزفون عن الزواج، واخذت المرأة تنظر بقرف إلى الحمل، والولادة، وتربيه الأطفال، واخذت تبدي اهتماماً أقل نحو ادارة شؤون البيت والاسرة. وقلما يلاحظ الزواج كوحدة للروح إلا بين الشرائح التي لا زالت ملتزمة بالأخلاق القديمة. ونلاحظ تصاعد حدة حرب الاعصاب يوماً بعد آخر، فضلاً عن مشاهدة الاضطرابات النفسية الغريبة بشكل واضح.

وحاول البعض أن يعلل هذه الاعراض بأنها ضرورة لا بد منها في الثورة

الصناعية الجديدة، مغلقين بذلك طريق العودة عنها، في حين أنها ليست ذات صلة كبيرة بالحياة الصناعية وأوضحلال غط الحياة الزراعي. فهذه الاعراض ناجمة عنها يسمى بالثورة الفكرية وعن فئة خاصة تحمل السهم الاكبر من الشقاء الذي يلتف البشرية.

وكان «راسل» يعاني من التناقض في كلامه، فمرة يدافع عن الحرية الجنسية بمحاس... ومرة يقبل مجبراً بوجود سلسلة من الحدود والقيود الاجتماعية، التي لا مجال لذكرها.

### التفاوت بين اشباع الغريزة والحرية الجنسية

والحقيقة هي ان إشباع الغريزة وعدم قعها شيء، والحرية الجنسية وإقصاء القواعد والمعايير الأخلاقية شيء آخر. فاشباع الغريزة الجنسية لا يتعارض مع رعاية مبدأ العفاف والتقوى، بل لا يمكن اشباعها بالحد الكافي، ولا الحيلولة دون الآثارات التي لا معنى لها والشعور بالحرمان وأنواع القمع الناجمة عن تلك الآثارات، إلا في ظل ذلك العفاف وتلك التقوى. بتعبير آخر: ان تربية الاستعدادات والمواهب، مختلف عن المبادرة إلى الاعمال الشهوانية اللامحدودة والميول التي لا تنتهي.

فن الخصوصيات التي يمتاز بها الانسان عن الحيوان، هو وجود نوعين من الميول والرغبات لديه: الميول الصادقة، والميول الكاذبة. والميول الصادقة اما هي تعبير عما تقتضيه الطبيعة الاصلية، لأن في وجود كل انسان طبيعة الميل نحو صيانة الذات، والسيطرة والسلط، والجنس، والطعام، وغيرها. وتتمكن وراء كل ميل من هذه الميول حكمة وفلسفة. ورغم أن الميول الصادقة ميول محدودة، إلا أنها قد تتحول إلى قاعدة لميول كاذبة، فتولد عند المرء شهية كاذبة للطعام مثلاً، كما نرى ذلك عند البعض الذين يأكلون دون حساب أو كتاب، وقد يتحول ذلك الميل إلى عطش نفسي لا نهاية له مثلما هو الحال في

بعض الغرائز ومنها الغريزة الجنسية.

وأولئك الذين اقتربوا نظام الاخلاق المرة من اجل الميلولة دون قمع الغرائز، وغو الاستعدادات، كان خطأهم في هذا الاقتراح ناجماً عن عدم تقييدهم بين التفاوت العظيم القائم بين الانسان والحيوان، وعدم الالتفات إلى أن الانسان يحمل في طبعه الميل إلى اللامناعة. فالانسان إذا ما وجد الارضية الملائمة للانطلاق، فلن يقف في وجهه عائق أو حد، سواء كان ذلك على صعيد المال والثروة، أو السياسة والحكم والهيمنة على الآخرين، أو على صعيد الجنس والشهوة. كانوا يتصورون أن الحاجة الجنسية في وجود الانسان كالحاجة الطبيعية إلى التبول، حيث يؤدي حبس البول إلى الكثير من الاضرار الصحية في حين ان التخلص منه ليس له حدود وشروط، أي ليس بامكان المرء أن يبول أكثر من حاجته إلى التبول!

ما اشد جهلنا لو لم نفرق بين الغريزة الجنسية، او حب المال، وحب الجاه، وبين الحاجة إلى التبول، ونكرس اهتماما نحو جانب الحرمان وعدم إشباع الغريزة فقط، وتجاهل الاعراض الرهيبة وغير المتناهية للجانب المعakens.

فلو كان الانسان ذا وسع محدود كالحيوان على صعيد الغرائز، لما كانت هناك حاجة ابداً إلى كل هذه القوانين السياسية والاقتصادية والجنسية، ولما كان بمقدمة على الصعيد الاخلاقي لا إلى الاخلاق السياسية والاجتماعية، ولا إلى الاخلاق الاقتصادية، ولا إلى الاخلاق الجنسية، على اعتبار ان الوسع المحدود الطبيعي، بامكانه أن يجعل المشكلات كافة. لكننا نرى أن لا مفر من القوانين والنظم والاخلاق التي تحدد العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ولا مفر ايضاً من العفة والتقوى السياسية والاجتماعية، ولا مفر كذلك من النظم والاخلاق التي تحدد الجنس، اي العفة والتقوى الجنسية<sup>(١)</sup>.

---

(١) الاخلاق الجنسية، ص ٦١-٦٨.

## لا الحبس ولا الاختلاط

ما ي قوله الاسلام، هو غير ما يفهم به من قبل مناوئيه - اي حبس المرأة في البيت - وغير النظام الذي اخذ به العالم الجديد، والذي نشاهد عواقبه الوخيمة - اي اختلاط المرأة والرجل - في هذا اليوم ...

فالاسلام يقول: لا حبس ولا اختلاط وانما فصل . فمنذ ايام الرسول ﷺ لم تُنْعَنِ المرأة عن الاشتراك في المجالس والتجمعات ، ولكن كان يراعى مبدأ الفصل . فلم تكن المرأة تختلط بالرجل لا في المساجد ولا في الاجتماعات ، بل ولا في الزقاق والمرأة . واختلاط المرأة بالرجل في بعض الاماكن كبعض المشاهد المشرفة والتي تزدحم بالزائرين في ايامنا هذه ، خلاف لرضا الشارع المقدس<sup>(١)</sup> .

## هدف النظام البهلوi المستبد من حرية المرأة

قبل ١٧ عاماً ، وربما قبل اتفاضة ١٥ خرداد بأشهر ، ارادوا تشييد سينما في ابادان إلى جوار المسجد . كان هذا بعيد وفاة المرحوم آية الله البروجردي ، ولم تكن لديهم الجرأة على القيام بمثل ذلك في حياته ، ولم يكن المراجع الجدد قد اصبحوا في وضع قوي بعد . ولهذا حاولت الحكومة انتهاز فرصة وفاته على الفور . واخذ علماء خوزستان يتصارخون: الآن وقد قررتكم أن تشييدوا سينما ، فلماذا تشييدونها إلى جانب المسجد؟ واقبل هؤلاء العلماء على قم وطهران وجرت تحركات من قبل علماء البلاد على شكل برقيات ، واحتجاجات ، وانتقادات . ونقل لي احد العلماء الذي كُفَّ بالذهاب إلى احد المسؤولين ، والتحدث معه ، والاحتجاج على مثل تلك الخطوة ، انه قال له: انا لا اريد ان اتحدث عن السينما . ولا اريد ان امنعكم من السينما لانكم لا تسمعون . انكم

(١) قضية الحجاب ، ص ٣٤١ و ٣٤٠ .

تقومون بعمل هذه الاعمال وفق اهداف خاصة، فماذا تريدون من السينا  
بالضبط؟

قال لي انه تحدث معه بصراحة كاملة، وانه قال له: ربما تقولون انكم تريدون نشر التمدن عن هذا الطريق وان تفعلوا كذا وكذا. وقال له في نهاية المطاف: ربما تهدفون من خلال دعم السينا إلى هذا الحد وتوفير كل هذه الامكانيات لها، أن يرتاد الشباب هذا المحيط الاهداء كي تقدموا لهم تعاليكم وتشغلوا بعضهم بالبعض الآخر. لماذا كل ذلك؟ كي يظل الشباب - فتياناً وفتيات - بعيدين عن السياسة، وكيف ينهمكون في المللذات، والشهوات، وتعاطي الحب والغرام، وقضايا من قبيل صديقة الفتى، وصديق الفتاة، وينغمسو في ذلك ويتخدروا بها بحيث لا يعود في مقدور اي احد منهم التفكير في السياسة.

قال: ما أَنْ قَلْتُ هَذَا، حَتَّى اخْذَ يَقْهِقَهُ وَقَالَ: نَعَمْ، هَذَا هُوَ بِالضَّبْطِ.  
وكان قد حضر ذلك اللقاء الشخص الذي تقرر أن يستلم منصب رئاسة الوزراء بعد أيام من اللقاء.

كانت اسرة الشاه تستورد الاهيروئين، وكانت هذه المادة تصل إلى الامراء والاميرات وأولئك الذين كانوا يت Sheldon بالحرية وحقوق الانسان، وفق توصيات خاصة. فانظروا اية حرية كانوا يريدون؟ ولماذا كانوا يمارسون مثل هذه الاعمال؟ فهل كان طمعاً في المال فقط؟! انهم نهبوا من الاموال ما لا اعتقاد لهم بحاجة إلى اموال عن هذا الطريق. وحتى لو كان المال احد اهدافهم، إلا الهدف الرئيس كان تخدير الناس بهذه المخدرات وتحويلهم إلى كائنات بلا حس، ولا روح ولا ارادة، ولا عزيمة. انهم كانوا يهدفون إلى انتزاع انسانية الانسان وتدمیر اخلاقه الانسانية.

لقد طبلوا لحرية المرأة! فهل كانوا يهدفون حقاً إلى اعطاء المرأة لها؟ وهل يمكن أن تتوقع منهم اعطاء الحرية للمرأة، بينما هم ليسوا على استعداد لاعطاء

ذرة من الحرية للرجل؟ لقد رأوا أن من غير الممكن أن يقفوا بوجه الوعي الذي عليه الرجل والمرأة، ولا يمكن أن لا توجد في ايران مدرسة. إلا أن الطلبة ما أن ينهوا الصف السادس الابتدائي حتى يفتحوا عيونهم، وما أن يكملوا المرحلة الثانوية حتى يزداد فتحهم لعيونهم، لهذا لم يكن امامهم من سبيل سوى إفساد هذه العناصر من الناحية الأخلاقية، بحيث ليس لا يجدي تعليمها فحسب وإنما يعطي نتائج معكوسة أيضاً. وهذا ما دفعهم لتأسيس المدارس الثانوية المختلطة. لماذا؟ ماذا كان هدفهم؟ وكان للجامعات وضع عجيب أيضاً. فقد دُعيت شخصياً قبل حوالي ١٢ عاماً للتدريس في كلية الآداب - و كنت حينها احاضر في كلية الالهيات - على صعيد الدراسات العليا. ولم يكن عدد الطلبة في كل صف يزيد عن خمسة طلبة عادة. وقد رفضت تلك الدعوة، إلا انهم اصرروا كثيراً على ذلك وقدموا الكثير من المبررات التي تشير إلى وجود حاجة ماسة لتدريس الفلسفة الاسلامية، واني اذا لم احاضر هناك سيحدث كذا وكذا. وقد ذهبت يوماً، إلا انني ما أن دخلت إلى قاعة كلية الآداب حتى شعرت بالملع، ولم اكن قد رأيت قاعة السينما آنذاك ولم ارها حتى هذه الساعة، ولكن رأيت في قاعة الكلية ما كنت قد سمعته عن قاعة السينما. شعرت بالخجل حقاً. وحينما خرجت من هذه القاعة باتجاه حجرة التدريس التي تقع تحت الطابق الارضي، سلكت مسلكاً جانياً وانا مطأطئ الرأس. فتحدثت ببعض الكلمات، وقلت لهم: وداعاً! مکانی ليس هنا.

### منطق الاسلام في مواجهة الفساد الخلقي الاجتماعي

وفي ظل هذه الوضاع، ظهرت حركة بين الشباب الوعيين والشابات الوعيات ولا سيما بين السيدات للتتصدي لهذا الفساد الخلقي، فكانت مواجهة مدهشة وشديدة، راح يعلو خلاها منطق الاسلام: ايتها السيدة! ايتها المرأة المثقفة! ادرسي، ولكن مع الاحتفاظ بالزي الاسلامي. فالمحجب في الاسلام

ليس سجناً للمرأة.

وبامكاني أن اشير وفي منتهى الفخر إلى دوري في هذه القضية، واسكر الله تعالى على ذلك. فكتاب «قضية الحجاب» - الذي الفته حينذاك وتحدثت فيه عن هذا المنطق الاسلامي المعتدل، والذي طبع وحسن المحظ حتى اليوم ما يربو على عشرين مرة، وفي أكثر من ١٠ ألف نسخة لكل طبعة، ولازال هناك إقبال مستمر عليه - لعب دوراً عظيماً على هذا الصعيد، وقد سلطت فيه الأضواء على دور المرأة وقلت: أيتها المرأة! لا بد أن يكون لك حجاب، ولا بد أن تعلمي فلسفة هذا الحجاب. لا تظهرى زينتك ولا تتبرجي. واشترك المرأة في المحافل لا يعني اختلاطها بالرجل. وهذه المساواة التي يدعون إليها، إنما هي كذب وخديعة. وبامكانك أن تحافظي على عفافك ونقائك، وعلى حجابك الاسلامي، وتحصلي على العلم والوعي. وقد رأيت خلال السنوات الماضية كيف ظهرت شريحة في المجتمع بشكل تدريجي من السيدات المتعلمات اللاتي لم يقنن في فن القساد الخلقي؛ أي ظهور طبقة نسوية تتمتع بالوعي من جهة وبالعفاف من جهة أخرى. وكذلك الامر بالنسبة للفتيان. فليس ممكناً أن يكون الفتى فاسداً والفتاة سليمة. وفتياتنا وفتياتنا يتمتعون بالوعي والبقاء معاً. فالمواطن الطهراني الفاسد - فتى كان أو فتاة - لا يمكن أن يصنع لنا مجاهداً. فالمجاهد مخلوق عن الوعي والطهر. والروح الواعية الظاهرة بامكانها أن تكون مجاهدة ومناضلة. اتذكرون الحرب التي شنوها قبل سنوات على حجاب الطالبات؟ فالعدو كان يحسب لهذا الامر الحساب وكان مطلاعاً علىحقيقة الامر ويستشعر الخطر. لماذا داهموا قبل سنوات وفي بداية العام الدراسي مدارس البنات بايحاء من عناصر السافاك الذين كانوا يشغلون مناصب عليا في وزارة التربية والتعليم، وقاموا بانتزاع المناصب من على رؤوس الطالبات؟ فهل كانت القضية ذات طابع شهوانى فردى؟ لقد كان لديهم على هذا الصعيد الشيء الكثير. إنما كانوا قد استشعروا الخطر. فالمدارس

الثانوية للبنين والبنات والتي ظهرت في هذا البلد، كانت تعلم من جهة، وتربى تربية دينية من جهة أخرى، وتشكل مركز خطر عليهم، لا سيما مدارس البنات الإسلامية. ألم تقرر الجامعة قبل سنوات منع الفتيات من الدخول إلى الجامعة بالحجاب الإسلامي؟ وكان الجميع يعلم وكنا نحن نعلم أيضاً أن ذلك القرار كان بایعاز صادر من البلاط. وكان المتحمس الأول له اخت الشاه التوأم. لماذا؟ فهل كانوا يريدون الحرية؟ أم انهم فزعوا لمشاهدة الفتيات متعلمات وعفيفات في آن واحد، وادرکوا لا بد وان يتتحولن إلى خطر يتهددهم في المستقبل ويصبحن نسوة مجاهدات.

وما اروع المقاومة العظيمة التي ابديتها السيدات في ظل ظروف الكبت والاختناق تلك! قلن: يجب أن ندخل إلى الجامعات وان نحتفظ بزينا الاسلامي. وفي مثل هذه الظروف نما لشبابنا - فتياناً وفتيات - جناحان متوازيان وهما: جناح الوعي والعلم، وجناح الارادة والعفاف والطهر. واستطاعوا بهذين الجناحين التخليق في آفاق الكفاح.

كان هذا الكلام مقدمة للحديث التالي: في هذه الايام الاخيرة التي طرحت فيها قضية الحجاب الاسلامي، تصاعدت الصيحات من افواه بعض من يرفعون شعار حرية المرأة وحقوقها قائلات: لقد انتهت حريتنا! فمن هن اوئنك؟ وليس مهماً لدى من هن، وانت اعلم بهن، إلا انهن نفس اوئنك اللاقى وافقن من قبل على قيادة شقيقات الشاه. فهل كن يرددن حرية المرأة حقاً؟ انهن ذات اوئنك الالاقي اعتضمن وتظاهرن قبل اشهر دفاعاً عن الدستور<sup>(١)</sup> (الملكي).

فن الذي ناضل وجاهد؟ الافلام موجودة، وكلكم قد شاهدتم التظاهرات، فهل الالاقي تظاهرن، نساوهم المتحررات ام نساوئنا المتحررات؟ هل كن المحببات بالحجاب الاسلامي ام غير المحببات؟ من هن الالاقي جابهن

---

(١) لا بد وان يدرك القارئ الكريم أن هذه الاحداث التي يتحدث عنها الشهيد، هي الاحداث التي سبقت انتصار الثورة الاسلامية.

الرصاص وقدمن الشهداء؟ هل كن أولئك النسوة أم هؤلاء؟

هذا هو الوعي الذي تزود به الشعب خلال السنوات العشر أو العشرين الماضية، وهذا هو الاسلام الحقيقى الذى أبلغ إلى الشعب بصورته الحقيقية ولعب الدور الاساس. ولا شك في الدور المؤثر الذي لعبته القيادة. فأنتم تعلمون اية عوائق وُضعت في طريق الثورة. وفي الزيارة التي قمنا بها إلى باريس اعلن الامام الخميني (رض) وبالفطنة والرؤى الثاقبة اللتين لديه عن وجوب مساعدة السيدات في التظاهرات حتى ولو منعهن ازواجهن وأباوهن عن ذلك. فالازواج والآباء لا حق لهم في منع انضمامهن إلى التظاهرات. وفي الايام التي امضها في مدرسة علوى طهران، خصص فترة ما قبل الظهيرة لاستقبال الرجال وفترة ما بعد الظهيرة لاستقبال النساء، وكن حينما يأتين لزيارتة، يزداد الازدحام والتدافع بشكل كبير، وتطفى حالة العاطفة عليهم، فيغنى على بعضهن، فيما كان البعض الآخر يبكي، والبعض يصرخ، حتى بعث ذلك القلق عند بعض المقربين من الامام من احتمال أن يؤدي ذلك إلى وفاة البعض منهم، فاقتربوا عليه لإلغاء زيارة النساء، فقال لهم سماحته: لقد طردن الشاه بهؤلاء النساء. فهوئاء هن اللاتي طردن الشاه من البلاد. أنا لا أغي هذا البرنامج. وقد اعلن في بيانه الاخير: النساء ساهمن في هذه الثورة إلى جانب الرجال وبحجم الرجال، بل وتقمن على الرجال، وهذه حقيقة.

فعلينا أن نسعى كي لا نفقد ما حصلنا عليه. فالصراط المستقيم ضيق، ولا بد أن نهوي بمجرد الانحراف عنه سواء إلى هذا الجانب أو ذاك. سنهوي أيضاً لو حجرنا المرأة في زاوية البيت بذرية العفة والظهور. كما سنهوي أيضاً لو اخترقنا الحدود بذرية تدخل المرأة في الاجتماعات والنشاطات<sup>(١)</sup>. فالتدخل أو المساعدة لا يوجب الاختلاط أيضاً. وليس هناك تلازم بين المساعدة والالتذاذ الجنسي. فكان الرسول ﷺ قد سمح للنساء والرجال معاً بالقدوم

(١) أشير إلى هذه الحدود بشكل كامل في كتاب «قضية الحجاب».

إلى مسجد المدينة، ولم يمنع النساء، إلا أنه تمنى يوماً أن يكون في المسجد باب خاص بالنساء. فلم يكن يرغب في دخول النساء والرجال من باب واحد فيصطدم أحدهما الآخر، لأن الفساد ينشأ من هنا عادة. وقد شُيد باب للنساء فيما بعد، ويوجد اليوم في المسجد النبوي باب يدعى «باب النساء» يذكر بالباب الذي شيده النبي عليه السلام الأوائل في هذا المكان. فكان الرجال والنساء يفدون إلى مسجد الرسول عليه السلام لسماع الوعظ والخطابة، وحينما كانوا ينفضون، تزدحم أزقة المدينة بهم وكانت أزقة ضيقة، ويختلط النساء بالرجال وفيهم الشباب من الجنسين، وقد يحدث تماش بين الجانبين نتيجة الازدحام. فأمر الرسول عليه السلام بأن تسير النساء وسط الزقاق والرجال من الجوانب أو بالعكس. فلم يكن الرسول يستحسن أن تكون تلك الحركة على شكل مختلط، والمنطق الصحيح هو هذا أيضاً.

ومن هنا فإن مساهمة المرأة في النشاطات الاجتماعية يجب أن لا تقترب بالاختلاط، في الظروف التي يحتمل فيها إثارة الغرائز كالازدحامات، ولا إشكال في غير الازدحام. وفي الحافلة على سبيل المثال لا إشكال في أن يجلس الرجال وتجلس النساء مع عدم وجود الازدحام. وقد عبرت عن اعتراضي دائماً وحتى في كتاب «قضية الحجاب» على غط زيارة العتبات المقدسة، وهو غط متداول منذ القديم، حيث تختلط خلاله النساء بالرجال، ثم يدفع بعضهم بعضاً. أنه عمل غير صحيح حتى وإن كان في حرم الإمام الرضا عليه السلام. ولم تكن الزيارات قديماً مزدحمة إلى هذا الحد، إلا أنها وقد ازدحمت في الأعوام الأخيرة، فلا بد من تحديد ساعات معينة للرجال وساعات معينة للنساء، كأن تخصص فترة ما قبل الظهر للرجال وفترة ما بعد الظهر للنساء أو بالعكس. أو العمل وفق هذا البرنامج في أيام الازدحام على أقل تقدير. فهذا الغط من الزيارة القائم في هذا اليوم لا ينسجم مع الروح الإسلامية. ولهذا علينا أن لا نسقط لا من ذلك الجانب ولا من هذا الجانب ونحافظ على حالة الوسط

والاعتدال، والاسلام دين الاعتدال<sup>(١)</sup>.

## المحاجب ومبدأ الحرية

والمؤاخذة الاخرى التي أثيرت حول المحاجب هي انه يعمل على انتزاع حق الحرية الذي هو حق طبيعي للانسان، ويعد نوعاً من الاساءة إلى الكرامة الانسانية للمرأة.

يقولون أن احترام الكرامة الانسانية، إحدى مواد الاعلان العالمي لحقوق الانسان. فكل انسان، هو شريف وحر، رجالاً كان ام امرأة، وابيض كان او اسود، ومهما كان البلد الذي ينتمي اليه والدين الذي يعتنقه. وفرض المحاجب على المرأة، يعبر عن تجاهل حق حريتها، ويعد نيلاً من كرامتها الانسانية، أو هو ظلم فاحش لها على تعير آخر. فعزّة المرأة، وكرامتها الانسانية، وحقها في الحرية، وتطابق حكم العقل والشرع في عدم أسر أو حبس أي شخص بدون مبرر أو الحق الظلم به بأي شكل وصورة وذريعة، كلها تدعوا إلى ازالة المحاجب.

وللاجابة على ذلك لا بد من التذكير مرة اخرى بأن هناك فرقاً بين سجن المرأة في البيت وبين التزامها بالمحاجب عند مواجهة الشخص الاجنبي. فلا وجود في الاسلام لحبس المرأة وأسرها، والمحاجب الاسلامي تكليف القاه الاسلام على عاتقها حيث لا بد لها من الالتزام بنمط خاص من اللباس عند العشرة وخلال مواجهة الرجال. وهذا النوع من الالتزام لم يكن الرجل هو الذي فرضه عليها، كما انه ليس بالشيء الذي يتعارض مع كرامتها أو تعدياً على حقوقها الطبيعية التي خلقها الله لها.

فإذا كانت بعض المصالح الاجتماعية تقتضي على الرجل أو المرأة الالتزام باسلوب خاص من المعاشرة، والانطلاق في المجتمع دون تعكير اجواء

---

(١) حول الجمهورية الاسلامية، ص ٥٦-٦٣.

الآخرين أو المساس بالتوازن الخلقي، فلا يمكن نسمى هذا سجناً أو عبودية، أو نعده متعارضاً مع الشرف الإنساني ومبدأ «حرية» الفرد.

ونلاحظ مثل هذه التحديدات على صعيد الرجال في البلدان المتحضرة أيضاً. فلا يحق للرجل الخروج إلى الشارع عارياً أو بملابس النوم وحتى بالبيجاما، على اعتبار أن ذلك يتعارض مع كرامة المجتمع. وتلتحق الشرطة مثل هذه السلوكيات. وحينما تلزم المصالح الأخلاقية والاجتماعية الأفراد بنمط خاص من التعامل الاجتماعي كارتداء اللباس الكامل، فلا يُعد هذا الإلزام عبودية ولا حبسًا ولا امراً مناهضاً للحرية والكرامة الإنسانية، ولا ظلماً، ولا مغاييرًا لحكم العقل.

بل على العكس تماماً، فارتداء المرأة للباس بالمحدود التي رسماها الإسلام، يُعد دعماً لكرامتها وشرفها، لأنه يصونها من مضائق الاجلاف والمستهرين.

فكراة المرأة تقضي أن تخرج من البيت بوقار واتزان وان لا يتسم غط تعاملها وزيها بما يبعث على الاثارة والاهتياج، وان لا تدعو بالوضع الذي هي عليه الرجل إليها، وان لا تلبس اللباس الصارخ، وان لا تسير بطريقة معبرة، وان لا تتغنج في حدتها، لأن الایماءات تتحدث في بعض الاحيان، وطريقة المشي تتحدث، واسلوب الكلام، ذو معنى آخر.

ولو ضربنا انفسنا نحن سلك رجال الدين مثلاً: فلو اتخذ احدنا لنفسه مظهراً آخر خلافاً لما هو متعارف، كأن يكبر عمامته ويطيل لحيته، ويمسك بالعصا ويضع الرداء على كتفه بخفخة خاصة، فمن الطبيعي أن يتحدث مظهره بلغة أخرى، انه يقول: احترموني، افتحوا الطريق لي، قفووا امامي بأدب، وقبلوا يدي!

كذلك الامر بالنسبة للضابط الحامل للرتب والانواط العسكرية العليا، فهو حينما يشمخ بأنفه، ويضرب الارض بأقدامه القوية، وينفخ نفسه، ويغلوظ

صوته حيناً يتكلم، اغاً يقوم بأعمال صارخة ويقول من خلال حركاته:  
خافوني، وأملأوا قلوبكم رعباً مني!

كذلك المرأة، فقد ترتدى زياً أو تسير بطريقة تستصرخ فيها الآخرين أن  
تعالوا خلفي، تحرشوا بي، اركعوا لي، عبروا عن تسيمكم بي وعبادتكم لي!  
فهل تستدعي كرامة المرأة مثل هذا السلوك؟ وهل اذا خرجت بسيطة  
وهادئة دون أن تذهب احداً دون أن تشذ انتظار الرجال الشهوانية اليها، كان  
ذلك منافياً لكرامة المرأة أو لكرامة الرجل او متناقضاً مع المصالح الاجتماعية أو  
متعارضاً مع مبدأ الحرية الفردية؟

من الطبيعي لو أن أحداً قال أن المرأة يجب أن تُسجن في البيت وان يقفل  
الباب خلفها ولا حق لها في الخروج منه، اغاً يكون قد ارتكب ما يتعارض مع  
حريتها الطبيعية وكرامتها الإنسانية والحقوق التي منحها الله تعالى لها. وكان  
مثل هذا الشيء موجوداً في المحجبات غير الإسلامية، انه لا وجود له في  
الإسلام.

لو سألتم الفقهاء: هل أن مجرد خروج المرأة من البيت، حرام؟ لأجابوا: لا.  
ولو سألتم: هل خروج المرأة للشراء من البائع الرجل، حرام؟ فالجواب: لا  
ليس حراماً. وهل يُمنع اشتراك المرأة في المجالس والمجتمعات؟ لكن الجواب  
بالنفي ايضاً، كحضورهن في المساجد والاجتماعات الدينية، دون يقول احد  
بحرمة مجرد حضور المرأة في الاماكن التي يحضرها الرجل. ولو سأله أحد: هل  
يحرم تلقي المرأة للفن وكل ما يعمل على إنشاج الموهاب التي أودعها الله تعالى  
فيها؟ لقليل لا ايضاً.

غير أن هناك قضيتين لا بد منها في كل ذلك وهما:  
الاولى أن تكون محجبة وان لا تخرج بظهر يعمل على الاثارة والاستفزاز.  
والثانية هي أن المصلحة الأسرية تقتضي أن يكون خروجها من البيت  
قريناً برضى الزوج وحكمته. وعلى الرجل في ذات الوقت أن يأخذ مصالح

الاسرة بنظر الاعتبار ايضاً في حدود هذه المصالح. فقد تتعارض زيارة المرأة لاقرائها مع المصلحة في بعض الاحيان. فلو افترضنا انها ت يريد زيارة اختها، إلا أن هذه الاخت امرأة مفسدة ومثيره للفتن وتحرض اختها ضد مصالح الاسرة. والتجارب تؤكد أن قضايا من هذا القبيل ليست قليلة. وقد تكون زيارة الزوجة لبيت امها، ليست في صالح الاسرة، لأنها ما أن تلتقي بها حتى تعود إلى بيت زوجها وقد انقلبت رأساً على عقب فتشغل الذرائع، وتشيع المرأة في حياة الزوج وتجعلها لا تطاق. في مثل هذه الحالات، للزوج الحق في منع الزوجة عن مثل هذه الزيارات الضارة التي لا تلحق الضرر به فحسب وإنما حتى بالزوجة نفسها وبالابناء. إلا انه لا معنى لتدخل الرجل في القضايا التي لا صلة لها بمصالح الاسرة<sup>(١)</sup>.

---

(١) قضية الحجاب، ص ١٠٤ - ١٠٥.

## **الفصل الخامس**

### **الجمهورية الإسلامية والحرية**



## **معنى ومفهوم الجمهورية الاسلامية**

سـ - استاذ! في هذه الايام، وباقتراب موعد الاقتراع على الجمهورية الاسلامية، تثار العديد من القضايا العقائدية لا سيما في اوساط المثقفين. وعلى هذا الاساس تم توجيه الدعوة اليكم لحضور هذه الندوة التلفزيونية، للإجابة على بعض الأسئلة ذات الصلة بهذا الموضوع.

ونبدأ السؤال الاول حول مفهوم الجمهورية الاسلامية، حيث يزعم البعض انه مفهوم غامض، لأن الجمهورية، تعني ايصال حق الحكم إلى الشعب، وبمعنى حكومة عامة الناس، إلا أن قيد «الاسلامية» سيحدد هذا الاطلاق، وهذا يبدو وجود تعارض بين مفهوم الجمهورية الاسلامية وبين قواعد الديمقراطية، وبينه وبين مفهوم الجمهورية بشكل عام. لهذا أسأل: ما هو التعريف الذي تقدمونه عن الجمهورية الاسلامية؟

الاستاذ المطهري: ليس بحاجة كبيرة إلى التعريف. فالجمهورية الاسلامية مؤلفة من كلمتين: كلمة الجمهورية، وكلمة الاسلامية.

فكلمة الجمهورية تحدد شكل الحكم المقترن، وكلمة الاسلامية تحدد محتواه. ونحن نعلم أنظمة الحكم في الماضي أو في الحاضر ذات اشكال مختلفة كالأنظمة الفردية الوراثية والتي تدعى بالأنظمة الملكية، أو حكومة المحكمة، والمتخصصين، وال فلاسفـة، والنخبـة والتي تدعى بالاستقراطـية، حـكومـة

النبلاء، والرأسماليين، وقس على هذا. وهناك حكومة عامة الناس ايضاً، أي الحكومة التي يوكل فيها حق الانتخاب لعامة الناس، بغض النظر عن الجنس، واللون، ونوع العقيدة. ولا يلاحظ في هذا الانتخاب سوى شرط البلوغ والعقل، لا شيء آخر. اضف إلى ذلك أن هذه الحكومة، حكومة مؤقتة، اي تتجدد كل عدة سنوات. وبإمكان الشعب أن يعيد انتخاب الحاكم للمرة الثانية وأحياناً للمرة الثالثة والرابعة، إلى حد ما يسمح به الدستور، وبإمكانهم ايضاً انتخاب شخص آخر أفضل منه.

واما كلمة «الاسلامية» فانها تكشف - وكما قلت - عن محتوى نظام الحكم؛ اي انها تقترح يدار هذا الحكم وفق المبادئ والقوانين الاسلامية، وان يتحرك على ضوء هذه المبادئ. فنحن نعلم الاسلام كدين ومدرسة وعقيدة، مشروع لحياة البشرية في كافة ابعادها وشؤونها. ومن هنا فالجمهورية الاسلامية هي الحكومة التي يتم انتخاب رئيسها من قبل عامة الناس لفترة مؤقتة، وذات المحتوى الاسلامي.

اما الخطأ في تصور غموض هذا المفهوم فيرجع إلى اعتقادهم بتساوي حق الحكم الوطني مع عدم وجود مذهب وعقيدة وعدم الالتزام بسلسلة من المبادئ الفكرية حول العالم والاصول العلمية حول الحياة. فهم يتصورون أن من يلتزم بحزب أو مذهب أو هدف أو دين معين ويسعى لتطبيق اصوله ومبادئه، فهو ليس حرّاً ولا ديمقراطياً. ولهذا لو كان البلد إسلامياً، أي يؤمن شعبه بالمبادئ الاسلامية، ويعتقد أنها مبادئ لا يمكن أن تخضع للنقاش، ل تعرضت الديمقراطية للخطر!

وقد قلت أن «الجمهورية»، تتعلق بشكل الحكم الذي يستلزم نوعاً من الديمocratic؛ اي للشعب الحق في تقرير مصيره بنفسه، وهذا امر لا يتلازم مع إلغاء نزعة هذا الشعب نحو مذهب ايديولوجية معينة أو إلغاء التزامه بمدرسة فكرية محددة. فهل معنى الديمocratic أن يكون لكل فرد عقيدة ومذهب، أو أن

لا يكون لكل فرد عقيدة ولا ينزع نحو أي مذهب ولا يتلزم بمبادئ اي عقيدة ومذهب ودين؟ ولا بد أن نسأل هؤلاء السادة: هل الاعتقاد ببعض المبادئ العلمية أو المنطقية الفلسفية والآيام بأنها لا تقبل الجدل، امر مغایر للديمقراطية، ام أن ما يغاير الديمقراطية هو أن لا يرضخ المرء للمبادئ التي تقبل بها اغلبية المجتمع، ويعتبرها قابلة للنقاش، في حين لا يسمح للأخر بمناقشة عقائده وافكاره؟

فإيان الأغلبية الساحقة من الشعب الإيراني بالمبادئ الإسلامية واعتقادها الراسخ بهذه المبادئ وانها غير قابلة للجدل، لا تعد ذنبأً ولا عيبأً. فالذنب والعيوب هو أن لا تسمح هذه الأغلبية المسلمة للاقليه غير المعتقدة بالنقاش والجدل<sup>(١)</sup>.

### دور الشعب في تحديد نوع الحكم

س: ذكرتم في توضيحكم أن الحكم الجمهوري يعني حكم الناس كافة. ونحن نعلم أن حق الحكم الشعبي - اي صدور السلطات الثلاث عن الشعب - من الانجازات القيمة للثورة الدستورية، ألا تعتقدون بأن إقامة الجمهورية الإسلامية بدلاً من الجمهورية المطلقة - والتي ستفضي بالضرورة إلى حكومة طبقة رجال الدين - ستؤدي إلى سحق هذا الحق المتعلق بكل فرد الشعب؟ ثم ألا يجوز استخدام المبدأ المتطور القائل بأن الشعب مصدر السلطات، بدلاً من فكرة ولاية الفقيه المهمة في الحكومة الإسلامية؟

الاستاذ المطهرى: خلاصة استدلالكم هي أن الشعب الإيراني قد حصل على حق الحكم الشعبي، اي صدور السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية

(١) وتصدق هذه القاعدة على المبادئ الأخرى ايضاً، كالشيوعية مثلاً. فاعتناق الشيوعية عن ايمان جازم لا يُعد مغایراً للمبادئ الديمقراطية. وما يغاير المبادئ الديمقراطية هو منع تساؤلات الآخرين - غير الشيوعيين - والгинولة دون تعبيرهم عن انماطهم، ومنع الاختلاط مع غير الشيوعيين، وإقامة حاجز حديدي حول البلاد، وعدم السماح للمفكرين بالتعبير عن وجهات نظرهم.

عن الشعب، ومن غير المعقول تفويض هذا الحق إلى شخص أو أشخاص. في حين أن الجمهورية الإسلامية تعني حق حكومة الفقيه - أو استبداد الفقهاء حسب تعبير البعض - وهذا ما يتعارض مع الحكومة الشعبية، ويُعد عملاً رجعياً!

وللإجابة لا بد من القول إن الشعب الإيراني الذي حصل في الثورة الدستورية على حق حكم الشعب، لم يكن يعتقد أن ذلك يتعارض مع قبول الإسلام كدين ودستور يتم على ضوئه تدوين قوانين البلاد. وهذا جاء في نص الدستور خروبة الانطباق مع قانون الإسلام، وأشار بشكل صريح إلى لا قانونية أي قانون مضاد للقوانين الإسلامية، كما يشير إليه ما جاء في ملحق الدستور من ضرورة وجود خمسة فقهاء من الطراز الأول للإشراف على القوانين. فأولئك الذين قاموا بالثورة الدستورية، لم يعتبروا هذه التصريحات والتأكيدات امراً مضاداً للديمقراطية وروح الدستورية، وحتى سن القوانين، لأنهم كانوا يسنون القوانين في إطار المبادئ الإسلامية.

المهم هو أن ينفذ الشعب القانون بنفسه، سواء كان هو الذي سن القانون، أو سنه فيلسوف ما وأمن هذا الشعب بذلك الفيلسوف ومذهبه، أو نزل به الوحي الالهي.

ومن هنا ليس هناك أي تعارض أبداً بين إسلامية هذه الجمهورية وبين حكم الشعب - الذي اشترتم اليه في عهد الدستورية - أو بينها وبين الديمقراطية بشكل عام، كما أن مبادئ الديمقراطية لا تفرض أن لا يحكم المجتمع ايديولوجية معينة. ونحن نرى كيف تعلن الأحزاب عادة عن استنادها إلى ايديولوجية معينة، ولا يُعد ذلك متعارضاً مع قواعد الديمقراطية، بل وداعاً للافتخار أيضاً. ويمكن خطأ اعتقادهم بالتعارض بين إسلامية الجمهورية وروح الديمقراطية في أن الديمقراطية التي يؤمنون بها، لا زالت ديمقراطية القرن التامن عشر والتي تلخص فيها حقوق الإنسان في القضايا ذات الصلة بالمعيشة، واللباس، والسكن، والطعام، والحرية في اختيار طريق الحياة

المادية. وقد نسوا تماماً أن الدين والعقيدة والاعيان بعقيدة معينة، جزء من الحقوق الإنسانية، وان ذرورة الإنسانية تتجلّى في التحرر من الغريزة ومن التبعية للمحيطين الطبيعي والاجتماعي، وفي الاتصال بالعقيدة والاعيان والهدف. وهذا الخطأ، معاكس تماماً للخطأ الذي كان عليه الخارج. فقد استبطنوا من مفهوم «ان الحكم إلا الله» - والذي هو يعني أن القانون والتشريع، من عند الله - أنّ الحكم - يعني الحكومة - الله ايضاً. وقد قال علي طيلل في كلمتهم تلك: «كلام حق يراد به باطل».

ولا بد أن هؤلاء السادة قد خلطوا ايضاً بين حكم الشعب وبين مبدأ التشريع وتدوين العقيدة، ولا بد انهم يعتبرون الدستور وملحقه اللذين لا يعترفان بقانونية أي قانون ما لم يتوافق مع قوانين الاسلام، متعارضين مع روح الدستورية وحكم الشعب ايضاً.

واما ما اشرتم اليه حول سحق حق هذا الحكم، فلا بد أن اقول بأن ختم الاسلامية قد ختمته الاغلبية الساحقة من الشعب الايراني على نوع النظام القائم لهذا البلد. فجهاد الشعب الايراني لم يكن ثورة على الهيمنة السياسية والاستعمار الاقتصادي فحسب، وإنما كان ثورة ايضاً على الثقافات والآيديولوجيات الغربية والتبعة الغربية والتي كانت تُعرض تحت عناوين خادعة كالحرية، والديمقراطية، والاشتراكية، والمدنية، والحداثة، والتسطور، والحضارة الكبرى. فالشعب الايراني حينما رفع في تظاهراته المليونية شعار «الجمهورية الاسلامية»، إنما اراد أن يختتم ختم ثقافته على هذه الثورة. ونحن نعلم أن الهوية الثقافية لامة ما، هي تلك الثقافة التي تجذرت في روحها. والاسلام هو الهوية الوطنية للشعب الايراني. والمتصلون من الاسلام، ورغم انهم داخل هذا الشعب وتحت حمايته، إلا انهم متصلون منه في حقيقة الامر، لانفاصاهم عن ثقافته وروحه ومطلبها.

وإذا كان المطلب الجماهيري - أي الجمهورية الاسلامية - متناقضاً مع حكم الشعب، فلا بدقول باستحالة الديمقراطية، لأن وجودها يستلزم عدمها دائماً.

ولم يرحب أي أحد بفرض الجمهورية الإسلامية على الناس، وإنما هو مطلب الجماهير نفسها. والثورة قد تصاعدت وغلت منذ أن أصبح شعار الشعب ومطلب إقامة الجمهورية الإسلامية. فالجمهورية الإسلامية تعني النفي والاثبات: نفي النظام الذي امتد لـ ٢٥٠٠ عام، واثبات المحتوى الإسلامي التوحيدى<sup>(١)</sup>.

... القيم الإنسانية الكامنة في المعرفة الإسلامية قد نفذت إلى الوعي الذاتي للشعب منذ عام ١٩٤١ على يد بعض خيرة علماء ومفكري الإسلام الحقيقيين. أي قيل للناس: الإسلام دين العدل والحرية، ويناهض التمييز الطبقي. فبالإضافة إلى المعنوية، أصطبغت الأهداف والمفاهيم الأخرى بالصبغة الإسلامية كالمساواة، والحرية، والعدل، مما جعلها تترسخ في ذهن الأمة. وهذا الترسخ هو الذي جعل ثورتنا الأخيرة ثورة شاملة وواسعة. ولا اعتقاد أن هناك من يشكك في شموليتها. فالثورة الدستورية كانت ثورة مدنية فقط ولم تكن ثورة قروية، في حين أن هذه الثورة، ثورة مدنية وقروية. فقد ساهم فيها القروي والمدني، والمحروم والثري، والعامل والفلاح، والسوق وغير السوق، والمتقن والعامي، وكافة الفئات والطبقات، ولم يكن ليحدث هذا إلا لـ الإسلامية هذه الثورة التي عبأت الجميع في حركة واحدة وصف واحد<sup>(٢)(٣)</sup>.

### حرية المعارضة وحدودها

لا بد لي أن أتحدث بعض الشيء عن الحكومة الإسلامية القادمة في إيران. فالاحزاب وكما اشار الزعيم الامام<sup>\*</sup> مراراً، حررة في ظل الحكومة الإسلامية.

(١) حول الثورة الإسلامية، ص ٧٩-٨٥.

(٢) نحن لا نقول بالطبع ان نصيب الجميع في هذه الثورة كان واحداً، فمثل هذا الشيء لا يمكن أن يتحقق، إلا اننا نقول ان كافة هذه الفئات قد اصطفت في حركة منسقة وموجهة.

(٣) حول الثورة الإسلامية، ص ٤٤-٤٥.

(\*) يختلف زعيمنا عن سائر الزعماء في انه يعمل بكل ما يقول، في حين ان الزعماء الآخرين يصورون الجنة اولاً ثم ينكرون كل شيء.

فكل حزب حر وان كانت لديه عقيدة غير اسلامية، إلا اننا لا نسمح بالتأمر والخداع.

فنحن نقبل الاحزاب والافراد إلى الحد الذي يعبرون عن عقيدتهم وافكارهم بشكل صريح ويحاربون منطقنا بمنطقهم. اما اذا ارادوا أن يعرضوا افكارهم وعقائدهم تحت لواء الاسلام، فلدينا الحق أن ندافع عن إسلامنا ونقول أن الاسلام لا يقول مثل هذا. ولدينا الحق أن نقول لا تقوموا بهذا العمل باسم الاسلام. ولا اعتقاد أن بالامكان العثور على مثل هذه الحرية في البحث وال الحوار، في مكان آخر. فهل رأيتم في تاريخ العالم بلداً يتسم كافة اهله بالمشاعر الدينية ثم يسمح إلى هذا الحد لغير الدينين بالدخول إلى مسجد الرسول أو الجلوس في مكة والتحدث بحرية بكل ما يودون التحدث به؟ فكانوا يعبرون في احاديثهم عن إنكار الله، والرسول، والصلوة، والحج، ويقولون ببساطة اننا لا نؤمن بهذه الاشياء، في حين لا يتلقون من المؤمنين بالدين سوى التعامل القائم على منتهى الاحترام.

ولدينا في التاريخ الاسلامي الكثير من هذه الماذج المتألقه. وبهذه الحرية التي كان يسمح بها الاسلام، استطاع هذا الدين البقاء والديومة. فلو كان الجواب الذي يتلقاه الشخص المنكر لله في صدر الاسلام الضرب أو القتل، لما بقي للإسلام أي أثر. فالاسلام قد بقي لأنه جابه مختلف الافكار والعقائد بشجاعة وصراحة.

... وبهذه الطريقة استطاع الاسلام أن يصمد ويبيق. فمن الذي برأيكم قد عكس لنا كلمات ومؤاخذات الماديين على مدى التاريخ الاسلامي؟ هل الماديون هم الذين قاموا بذلك؟ كلا. فها هو التاريخ بين ايديكم، تصفحوه لتجدوا أن علماء الدين هم الذين احتفظوا بكلمات الماديين، وهم الذين كانوا قد انبروا لمناظرهم وال الحوار معهم، ثم دونوا تلك المناظرات في كتبهم. وقد وصلت تلك المؤاخذات والآراء المادية إلى ايدينا بفضل دخولها إلى كتب علماء الدين، في حين أن اغلب آثار هؤلاء الماديين إما أنها دثرت أو ليست في متناول اليد.

فطالعوا كمثال على ذلك احتجاجات الطبرسي أو احتجاجات البحار، لترووا كيف عرضت هذه الكتب آراء هؤلاء المعارضين وافكارهم، والاسلام ليس بامكانه أن يستمر في حياته في المستقبل إلا من خلال المواجهة الصريحة والشجاعة ل مختلف العقائد والافكار. وانا أحذر الشباب و مختلف المؤيدين للاسلام من مغبة تصور أن الحيلولة دون عقائد الآخرين وافكارهم، تمثل الطريق لحفظ المعتقدات الاسلامية. فلا يمكن الحفاظ على الاسلام إلا من خلال قوة واحدة فقط ألا وهي: قوة العلم واعطاء الحرية للافكار المعاشرة، ومواجهتها بشكل صريح واضح<sup>(١)</sup> ...

نعود إلى موضوع الحرية الفكرية والتي يجب أن لا يخلط بينها وبين حرية العقيدة. فكل مدرسة تؤمن بعقيدتها وتعتمد عليها، لا بد أن تكون من انصار الحرية الفكرية. وكل مدرسة لا تؤمن بعقيدتها، من الطبيعي أن تقف بوجه الحرية الفكرية. ومثل هذه المدارس والمذاهب مجردة على حفظ الناس ضمن دائرة فكرية محددة، والحيلولة دون نضج افكارهم وازدهارها. وهو عين ما نشاهده اليوم في البلدان الشيوعية. فهذه البلدان وخوفاً من تزعزع الايديولوجية الرسمية، لجأت حتى إلى صناعة اجهزة مذيع ليس بعقولها التقاط اذاعات البلدان الأخرى، مما يعني تربية الشعب تربية أحادية البعد ووفق القالب الذي ينشده الزعماء. وانا أعلن عن عدم وجود أية محدودية فكرية في نظام الجمهورية الاسلامية، وليس هناك أي اثر لتقنيات الافكار. غير أن هذا التعامل لا يشمل التامر والرياء. فالتمر منوع، وعرض الافكار الاصلية، حر ومسموح به.

تحدثتُ قبل أيام مع بعض الشباب الماركسيين. قالوا لي: هل هناك عيب في الشعار الذي يقول: «وحدة، كفاح، حرية»؟ فقلت: لا عيب فيه. فقالوا: اذا فهو شعار نشارك فيه نحن الاثنين. فقلت لهم: مع من تخوضون الكفاح الذي

(١) حول الثورة الاسلامية، ص ١٧-١٩.

ترفعون شعاره؟ اليس هدفك خوض الكفاح ضد النظام ومن ثم الدين؟ إلا يعني هذا انكم تقدمون هذا الشعار بشكل مبهم وغامض علّكم تجتمعون الناس - أي انصار الدين - حوله ثم تستغلونهم بشكل تدربيجي، أنا على أهبة الاستعداد لأن أطلق هذا الشعار شريطة أن أعلن منذ البداية أن هدفي من الكفاح، كفاح الامبرالية والشيوعية.

انني أعلن بصراحة ولا اخشى اي احد: تعالوا، كي تتكلم بصراحة. فأنتم الذين لا تؤمنون بآية الله الخميني، وحينما نجلس معاً تقولون اننا مع هذا الرجل إلى المرحلة الفلانية ثم نهت لجاجته بعد ذلك، فلماذا ترفعون صوره في تظاهراتكم؟ لماذا تكذبون؟ انه ينادي بالجمهورية الاسلامية ويعلن عن آرائه بصراحة، فهيا كي تعلموا عن آرائكم بصراحة ايضاً.

فرحية التعبير عن العقيدة تعني أن تعلموا عن فكركم وما تؤمنون به حقاً، في حين انكم تريدون ان تكذبوا باسم حرية العقيدة. فأنتم لا تؤمنون إلا بليدين. فلماذا لا ترفعون صورته؟ لماذا ترفعون صورة إمامنا؟ فأنتم حينما ترفعون صور الامام، اغا تريدون أن تقولوا للناس اننا نسير في الطريق الذي يسير فيه هذا الزعيم، في حين تنوون السير في طريق آخر. فلماذا هذا الكذب؟ لماذا هذا الاستغفال؟ وعلينا في مثل هذه الحالة أن نفرق بين حرية الفكر وحرية الاستغفال والتفاق والتآمر. فثليما نتحدث اليكم بصراحة ونقول لكم ان حكومتنا المنشودة، غير حكومتكم المنشودة، ونظامنا الاقتصادي المنشود، غير نظامكم الاقتصادي المنشود، ونظامنا العقائدي والفكري ورؤيتنا الكونية، غير نظامكم العقائدي والفكري ورؤيتكم الكونية، هيا كي نتحدثوا بصراحة ايضاً. نحن نتحدث في منتهى الصراحة، فمن شاء أن يسلك هذا الطريق ليسلاك، ومن لم يشا، ليسلاك طريقاً آخر.

فلماذا لا تتحدثون بلغة صريحة واضحة؟ لماذا تقولون هيا كي نصنع من الحرية شعاراً واحداً؟ في حين انكم تريدون التحرر بالدرجة الاولى من الدين، ونحن نريد التحرر من كل انواع الكبت بما فيه الكبت الشيعي. وهذا يعني ان

الحرية التي تطالبون بها، تختلف عن الحرية التي ننشدتها.  
وانا أُعلن لكل هؤلاء الاصدقاء غير المسلمين: الفكر من وجهة النظر  
الاسلامية، حر. فأنت بامكانكم أن تفكروا كيفما شئتم، وبامكانكم أن تعبروا  
عن افكاركم بالطريقة التي ترونها، على شرط أن تقدموا افكاركم وآراءكم  
الحقيقة. اكتبوا ما شئتم أن تكتبوا، فلا يمنعكم أي أحد عن الكتابة<sup>(١)</sup>.  
...وبما أن العدل يمثل جوهر هذه الثورة، فهمتنا الحتمية هي أن نحترم  
الحريات بكل معنى الكلمة، لأنه اذا تقرر أن تقوم حكومة الجمهورية  
الاسلامية بتمهيد الأرضية للكبت، فلا شك في أنها ستنتهي إلى الفشل<sup>(٢)</sup>. لكن  
لا بد من التمييز بين الحرية والفوضى، ونحن نريد من الحرية معناها المعقول.

### حرية الفكر والتعبير والقلم

كل شخص يجب أن يكون حرًا في فكره وتعبيره وقلمه، ولا يمكن لثورتنا  
الاسلامية أن تشق طريقها الصحيح نحو النصر إلا في مثل هذه الحالة. وقد  
برهنت التجارب السالفة ان المجتمع حينما كان يتمتع بشيء من الحرية الفكرية -  
ولو عن سوء نية - فان ذلك لم ينته بضرر الاسلام وانما انتهى لصالحه.  
فالاسلام لا ينمو إلا في مثل هذه الارضية وهذه الاجواء التي تتمتع بالحرية،

---

(١) حول الثورة الاسلامية، ص ١١-١٢.

(٢) نظر القرآن:

الاسلام دين الحرية، والدين الذي ينادي بحرية كافة افراد المجتمع. فنقرأ في سورة الدهر: ﴿اَنَا  
هَدِينَاهُ السَّبِيلُ إِمَّا شَاكِرٌ وَإِمَّا كَفُورٌ﴾.

ونقرأ في سورة الكهف:  
﴿فَنَسِيَ الْكَهْفَ مِنْ شَاءَ فَلِيَكُفَّرْ﴾.

فالاسلام يقول ان التدين ليس تدييناً، اذا كان عن إكراه وإجبار. فن الممكن إكراه الناس ألا يقولوا  
ولا يفعلوا شيئاً، لكن لا يمكن اكراهم على أن يفكروا بهذه الشكل أو بذلك. فالتفكير يجب أن يكون عن  
دليل ومنطق. ولا يمكن نكران القضايا ذات الصلة بقضية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وفق  
شروطها الخاصة، وتقوم هذه القضية على مبدأ الارشاد لا الجبر ايضاً.

والتي يتمنى فيها لاصحاب الافكار أن يعبروا عن افكارهم دون وجل ، ونعبر نحن بالمقابل عن آرائنا وافكارنا . ومن المفيد أن اتحدث اليكم عن خاطرة على هذا الصعيد . قبل سنوات كان يحاضر استاذ مادي في كلية الالهيات ، وكان يدعو خلال محاضراته باستمرار للهادفة ويلع ضد الاسلام . وقد اعرض عليه الطلبة حتى ادى ذلك إلى توتر الاجواء في الكلية . وقد كتبت إلى الكلية رسالة رسمية لا زالت نسخة منها لدى ، وقلت فيها: إن رأيي أن تدرس المادة الديالكتيكية في هذه الكلية ، وان ينهض بهمزة التدريس استاذ حاذق ومؤمن بالهادفة حقاً . وهذا هو الطريق الصحيح للتعامل مع هذه القضية وانا اافق على ذلك . اما أن يحاول شخص ما وبشكل خفي لخداع الطلبة البسطاء الذين لا معلومات لديهم في هذا المجال ، ويسعى للتاثير على افكارهم ، فهذا امر لا يمكن القبول به . وقد اقترحت على الشخص المذكور مراراً انك وبدلاً من أن تعرض ما لديك على بعض الطلبة الذين لا علم لهم بهذه الامور ، إعرضها علي ، وبإمكاننا أن نناقشها معاً وبحضور الطلبة ، اذا كانت لديك الرغبة في ذلك ، بل وحتى على مرأى ومسمع عدد اكبر اذا لزم الامر . فبالامكان استدعاء اساتذة وطلبة الجامعات الاخرى ، وبإمكاننا أن نتحدث بأفكارنا خلال تجمع عام يتألف منآلاف الحاضرين ، ونجري نحن الاثنين فيما يشبه المنازرة . كما قلت له ايضاً: اني وبالرغم من عدم استعدادي للتحدث من خلال الاذاعة والتلفزيون منها كانت المبررات<sup>(١)</sup> ، إلا اني مستعد في هذه القضية بالذات للمناقشة التلفزيونية معك ...

وأعتقد ان هذا الاسلوب ، هو الطريق الصحيح للتعامل مع الافكار المضادة . اما إذا حاولنا نعترض الفكر ، فسنعمل على إجهاض الاسلام والجمهورية الاسلامية . ورغم هذا أؤكد مرة اخرى على أن عرض الافكار ، يختلف عن الاغواء والتضليل . فالاغواء والتضليل هما العمل المصحوب

---

(١) كان هذا خلال عهد الطاغوت .

بالكذب، والدعایات غير الصحیحة، مثل:

قيام شخص ما بحذف جزء من جملة أو آية، وإضافة جزء إليها من عنده، ثم عرضه هذه العبارة المحرفة على أنها حجة ودليل. أو حذف شيء من القضايا التاريخية، ثم استخدام هذه المعلومات الناقصة لدعم النتائج التي يرغب في تقديمها. أو أن يدعي أحد ما العلمية، في حين يقوم كلامه من حيث الأساس على تحريف العلم. فلا يمكن أن يكون التضليل حراً ولا يجب أن يسمح له بالحرية. ومن هذا المنطلق يحرم الاسلام شراء وبيع كتب الضلال لما ينجم عنها من مضار اجتماعية.

وصفوة القول هي اننا لا يمكن أن نضمن مستقبل ثورتنا إلا من خلال الحفاظ على العدل والحرية، والاستقلال السياسي، والاستقلال الاقتصادي، والاستقلال الثقافي، والاستقلال الفكري، والاستقلال العقائدي. وانا لا اريد أن استعرض قضية الاستقلال السياسي والاقتصادي، لأنكم أعلم بها مني إلا أنني أود التأكيد على قضية الاستقلال الفكري والثقافي أو ما اعبر عنها انا بالاستقلال العقائدي.

ان ثورتنا ستنتصر حينما نقدم عقيدتنا - أي الاسلام - نقية ودون أن تشوبها أية شائبة إلى العالم. فإذا كنا نتمتع بالاستقلال العقائدي وعمرضاً عقيدتنا على العالم دون أن يساورنا شعور بالخجل، فبامكاننا أن نحمل في قلوبنا الامل بالانتصار. اما اذا صنعنا باسم الاسلام عقيدة لقيطة التقاطنا افكارها من هنا وهناك، فأخذنا شيئاً من الماركسية، وشيئاً من الوجودية، وشيئاً من الاشتراكية، وأضفنا شيئاً من الاسلام ايضاً، ثم قدمنا هذا «المزيج» الذي صنعناه بأنفسنا على انه «الاسلام»، فلن الممكن أن يصدق الناس به في بادئ الامر، ومن الممكن أن تخفي الحقيقة على المدى القصير، إلا أنها لا يمكن أن تظل خافية على الناس إلى الأبد. فقد يظهر اشخاص من اهل الفكر والدراسة، فيدركون الحقيقة، ثم يبدأون بالاعتراض: ايها السيد الفلاني! أن

الكلام الذي تتسبه إلى الاسلام، من الواضح انه ليس كلام الاسلام. فالمصادر الاسلامية واضحة، والقرآن، والسنة النبوية، والفقه الاسلامي، والاصول الاسلامية المعتبرة، واضحة ايضاً؛ كما أن الكلام الذي تدعى انه كلام الاسلام، واضح ايضاً، ويمكن من خلال المقارنة أن نعلم بأنك قد اخذت كلامك عن الماركسية - مثلاً - ثم صبغته بصبغة اسلامية. ولا بد أن ينجم عن ذلك: ان أولئك الذين اقبلوا على الاسلام بلهفة، واعتنقوا تلك الافكار اللقيطة متصورين انها اسلامية، سيصابون بخيبة امل مريرة، مما يدفعهم للهروب من الاسلام والتفور منه. وهذا ما حداني على الاعتقاد بأن هذه العقائد اللقيطة لا تقل في خطورتها على الاسلام عن العقائد التي لا تكتم عداءها له، وإن لم تكن أشد خطورة منها. وإذا ما أريد لثورتنا أن تشق طريقها منتصرة، فلا بد لها أن تهذب نفسها من هذه السفاسف كافة، وتنطلق في نهج إحياء القيم الاسلامية الأصيلة المتمثلة بالاسلام، والقرآن، واهل البيت عليهما السلام<sup>(١)</sup>.

---

(١) حول الثورة الاسلامية، ص ٦٣-٦٦.

## مصادر الكتاب

- ١- الحرية المعنوية.
- ٢- التعرف على القرآن، ج ٣.
- ٣- الاخلاق الجنسية في الاسلام وعالم الغرب.
- ٤- الانسان في القرآن، ج ٤.
- ٥- الانسان الكامل.
- ٦- الانسان والمصير.
- ٧- حول الثورة الاسلامية.
- ٨- حول الجمهورية الاسلامية.
- ٩- التعليم وال التربية في الاسلام.
- ١٠- التكامل الاجتماعي للانسان.
- ١١- المجتمع والتاريخ.
- ١٢- الجهاد.
- ١٣- الحق والباطل.
- ١٤- حكم ونصائح.

- ١٥ - قصة الصالحين، ج ٢.
- ١٦ - عشرة أحاديث.
- ١٧ - ملاحظات الاستاذ المطهري، حرف الالف.
- ١٨ - جولة في السيرة النبوية.
- ١٩ - جولة في نهج البلاغة.
- ٢٠ - اسباب النزعة نحو المادية.
- ٢١ - الفطرة.
- ٢٢ - فلسفة الاخلاق.
- ٢٣ - فلسفة التاريخ.
- ٢٤ - قضية الحجاب.
- ٢٥ - نظام حقوق المرأة في الاسلام.
- ٢٦ - الحركات الاسلامية خلال القرن الاخير.
- ٢٧ - الوحي والنبوة.
- ٢٨ - الشيخ الشهيد.

## الفهرس

٥ .....	مقدمة
٩ .....	<b>الفصل الاول (معنى الحرية)</b>
١١ .....	ما هي حقيقة الحرية؟
١٣ .....	المعنى الصحيح للحرية
١٧ .....	<b>الفصل الثاني (قيمة الحرية)</b>
٢٠ .....	عامل تأمين الحرية
٢٧ .....	حرية الطبيعة أو حرية الارادة
٣٠ .....	حدود الحرية
٣١ .....	تردد الانسان على القيود
٣٢ .....	الانسان والقضاء والقدر الاهيين
٣٣ .....	العلاقة بين حرية الانسان ووجود الله
٣٤ .....	الله أم الحرية؟
٣٦ .....	الحرية والاختيار
٣٧ .....	الانسان خليفة الله
٣٩ .....	امتياز الانسان
٤١ .....	الآيات القرآنية

الآثار المشؤومة	٤١
المذور التاريخية	٤٢
الانسان والتکلیف	٤٤
العلیة في التاريخ وعلاقتها باختیار الانسان	٤٦
دور حوادث الصدفة في نقض قانونیة التاريخ	٤٧
نتائج تأثير تعالیم الانبیاء على التکامل التاریخی	٤٩
نموذج على سمو الحریة	٥١
ضرورة رعاية العدل في تقيیم الحریة	٥٢
حركة التحرر الاسلامیة	٥٢
الحریة في التعابیر الاسلامیة	٥٤
اقسام العبادة وقیمة كل منها	٥٥
خصوصیات الاسلام عقائیداً	٥٧
<b>الفصل الثالث (الحریة المعنویة)</b>	<b>٥٩</b>
التفاوت بين مدرسة الانبیاء والمدارس البشریة في مفهوم الحریة	٦١
سبب استلاباب الحریات الاجتاعیة طوال التاریخ	٦٢
التفوی والحریة	٦٤
تحديد أم وقاية	٦٥
برنامی الانبیاء	٦٧
الحر الحقیقی	٦٨
عدم رباطة جأش انوشیروان	٧١
الزهد ومقتضیات الزمان	٧٢
الزهد والحریة	٧٤
فلسفة البساطة في حیاة القادة	٧٦
القيود والاغلال	٧٦

٧٨	حرية علي (ع)
٧٩	الزهد لادراك اللذات المعنوية
٨٢	زهد غاندي
٨٢	شرط الحرية
٨٤	عبودية المال والثروة
٨٦	رمز المقاومة
٨٧	تفسير البعض للحرية المادية
٨٩	الانسان شخصية مزدوجة
٩١	تأنيب الضمير
٩١	حقيقة عبودية الدنيا
٩٥	نقد الوجودية ودراستها على صعيد حرية الانسان
٩٦	دور الاعيان بالله في انتزاع الحرية وفق هذا المذهب
٩٧	هل التعلق بكل شيء، مضاد للحرية؟
٩٨	خطأ هذا المذهب على صعيد علاقة الانسان بالله
٩٩	رأي علماء الغرب
١٠١	العلاقة بين الحرية الاخلاقية والتربية والتعليم من منظار علماء الغرب
١٠١	نقد هذا الرأي
١٠٥	العلاقة بين العبادة والحرية
١٠٦	الوجودية ليست ملزمة
١٠٨	نسيان القيم الانسانية
١٠٩	الكمال الاهدي والكمال الوسيلي
١١٣	<b>الفصل الرابع (الحرية الاجتماعية)</b>
١١٧	الأنبياء والحرية الاجتماعية
١٢١	أهمية الحرية في التفكير

ضرورة الحرية الفكرية في استنباط اصول الدين	١٢٤
احتتجاجات الائمة (ع)	١٢٦
مواضع الحرية	١٣٠
الإيان والحرية	١٣٠
لا يتحقق الكمال الخلقي بالاكراه	١٣١
تربية الأطفال	١٣٢
النحو الاجتماعي يتوقف على الحرية	١٣٣
غاذج الحرية في التاريخ الاسلامي	١٣٦
تعامل الامام علي (ع) مع الاسئلة	١٣٨
توحيد المفضل	١٣٩
التفاوت بين حرية الفكر وحرية العقيدة	١٤١
العقائد في اغلبها تقليدية	١٤٣
الانشداد والعقيدة والتأثير الوطنية	١٤٧
الاستعمار وحرية العقيدة	١٤٩
لا إكراه في الدين	١٥١
الأنبياء وحرية العقيدة	١٦١
الدفاع عن التوحيد	١٦٣
وأد البنات	١٦٦
تحرير العقل من العادات	١٦٧
الامام الصادق والرجل التقليدي	١٦٨
عدم اطاعة الاكثريه	١٦٨
عدم التأثر بأحكام الآخرين	١٦٩
العلاقة بين إعلان البراءة من المشركين وبدأ الحرية	١٧٠
القتال لازحة الموانع عن طريق الإيان والتوحيد	١٧٤

الحرب من اجل حرية الدعوة واذاحة موانعها .....	١٧٤
مقياس الحقوق الفردية والحقوق العامة .....	١٧٥
الدفاع عن الحقوق الانسانية	
اكثر قدسيّة من الدفاع عن الحقوق الفردية والقومية .....	١٧٧
لا زال الدفاع عن الحرية مقدساً .....	١٧٨
دراسة قضية الحرية في المستقبل المتكامل للتاريخ .....	١٧٩
الحرية والمساواة .....	١٨١
حرية المرأة وحقوق الانسان .....	١٨٣
رأي ويل ديورانت .....	١٨٥
اين يوصل الاعتداد على الحرية فقط؟ .....	١٨٨
تقد نظرية فرويد حول الغريرة الجنسية .....	١٩٠
الشعور بالحرمان وحرية الغريرة الجنسية .....	١٩٣
التفاوت بين اشباع الغريرة والحرية الجنسية .....	١٩٦
لا الحبس ولا الاختلاط .....	١٩٨
هدف النظام البهلوi المستبد من حرية المرأة .....	١٩٨
منطق الاسلام في مواجهة الفساد الخلقي الاجتماعي .....	٢٠٠
الحجاب ومبدأ الحرية .....	٢٠٥
<b>الفصل الخامس (الجمهورية الاسلامية والحرية)</b> .....	٢٠٩
معنى ومفهوم الجمهورية الاسلامية .....	٢١١
دور الشعب في تحديد نوع الحكم .....	٢١٣
حرية المعارضة وحدودها .....	٢١٦
حرية الفكر والتعبير والقلم .....	٢٢٠
مصادر الكتاب .....	٢٢٤
الفهرس .....	٢٢٦